تفسير من هدى القرآن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد و آله الطاهرين.

وبعد:

قبــل أكــثر من ست سنوات حين عزمت على تسجيل تأملاتي التي استفدتها من القرآن ، كتبت ما يلي:

أبتدىء في تفسير القرآن الحكيم ، في بيت من بيوت الله ، في يوم السبت الموافق 1/4/1398هـ ، ١٩٧٨/٣/١١ م فــي مــدينة (الكويت) . و على الله أتوكل في اتمامه.

و اعتمدت فيه على منهج التدبر المباشر ، انطلاقا مما بينته في (التمهيد) أي منهج الاستلهام مباشرة من الآيات و العودة الى القرآن ذاته كلما قصرنا عن فهم بعض آياته وفق المنهج الذي علمنا اياه الرسول الكريم (ص) وائمة اهل البيت عليهم السلام حيث امرونا بتفسير القرآن ببعضه.

و انــى احاول ربط الواقع الراهن بآيات الذكر . حيث ان ذلك هو الهدف من تفسير القرآن .

أوليس مثل القرآن مثل الشمس تطلع كل نهار باشراقة جديدة على عالم جديد.

ولا ادعي انني أبين هنا معاني كلام الله كاملا ، بل انما حاولت ان اسجل فقط تلك

البصائر التي استفدتها شخصيا عبر تدبري في القرآن.

ولا انسى دور اخوتي من تلاميذ درس التفسير الذي كنت القيه في بلورة رؤاي وأفكاري (والله الموفق وعليه التوكل. (

هذا ما كتبته قبل اكثر من ستة اعوام اما اليوم فقد اكملت التدبر في القرآن كله و سجلت خلاصة الافكار التي استلهمتها من التدبر في هذا التفسير ، وذلك عبر مرحلتين:

ألف : من بداية القرآن وحتى سورة النحل كتبت التفسير بيدي ، حيث كنت آوي الى مسجد أو مقام هادىء ، حاملا معي القرآن و القلم و القرطاس ، و ربما هموما كثيرة ، مما تخص الامة ، فأجلس كالتلميذ أمام كتاب ربي و أقرأ مجموعة آيات ، و أتدبر فيها ، و اذا لم يسعدني ذكائي لفهم أبعاد آية كريمة سألت الله سبحانه أن يعينني على ذلك ، ثم أسجل في البدء خلاصة الافكار التي استوحيها منها ، و بعدئذ أتدبر في آية آية وأسجل تأملاتي فيها بتفصيل أكثر.

وفي بعض الاحيان كانت الافكار تتزاحم و أجدني عاجزا عن تسجيلها فأختار منها البعض فقط ليتناسب مع المنهج الموجز الذي اخترته لهذا التفسير ، بينما انتفع بالبقية في أحاديثي العامة أو في سائر كتاباتي.

ولم أكن أكتب كل يوم أكثر من درس واحد:

اولا : لان مشاغلي كانت تمنعني من ذلك.

ثانيا : لخوفي من أن تصبح تأملاتي هزيلة.

باء :و بعد ثلاث سنوات شعرت بالحاجة الى الاسراع في إتمام التفسير ، و كنت أخشى الا اوفق لاكماله ، فاخذت اسلوب القاء دروس في التفسير ، تسجل على الشريط ثم تكتب و ربما تعاد صياغتها بصورة تتناسب مع أدب التأليف ، و هكذا و فقني الله سبحانه و تعالى لمتابعةالتفسير عبر المحاضرات ابتداء من سورة النحل و حتى اخر القرآن.

و كانت فائدة ذلك مضافا الى سرعة العمل ، ايجاد مكتبة صوتية في تفسير القرآن ، وهكذا كان حيث احتمل أكثر من خمسمائة شريط كاسيت تفسيرا موجزا لكل اي الذكر الحكيم و انتشرت في البلاد الاسلامية بفضل الله.

ولعل القاريء يجد بعض المفارقات بين نصفي التفسير ، حيث يعتمد النصف الاول منه على ضغط الكلمات ، بينما يعتمد النصف الثاني على الشرح والتفصيل.

علما بأن أحد الاخوة كان يحمل معه مرة تفسير سورة الرعد ، فنسيه في سيارة أجرة مما دعاني لتفسيرها مرة اخرى ولكن هذه المرة عبر المحاضرة ، ولعل ذلك كان خيراً لي.

و اليوم تم إعداد أربعة أجزاء للطبع هي التي تحتوي على سور الحمد و البقرة وآل عمـران) جـزء) و سـورتـي النساء و المائدة (جزء) و سورتي الانعام و الاعراف) جزء) و سور الانفال و التوبة و يونس و هود و يوسف و الرعد و ابراهيم و الحجر و النحل (جزء.(

وفي الختام أسجل الملاحظات التالية:

اولا :ان لآيات القرآن الحكيم أبعادا مختلفة وحسب تعبير تراجمة الوحي و أئمة الهدى عليهم السلام ان له تخوما و بطونا تصل الى السبعين ، و يكاد لا يستطيع شخص مثلي أن يطلع على بعد واحد منها فكيف بسائرها ؟ ! لذلك فحين أكتب معنى الآية فلا أدعي انه كل معانيها و أبعادها ، بل لا أدعي أنه بالتأكيد المعنى الاقرب ، انما أسجل فقط وفقط ما فهمته من الآيات ، مع اعترافي بقصور فهمي و الواقع ان كل التفاسير القرآنية ليس الا بيانا لبعض الموضوعات التي تصدق عليها الآيات كما تصدق على غيرها ، وان القرآن سيظل فوق التفاسيرلا يحيط بكنه معانيه الا الله ، ومن ارتضاه الله لغيبه.

ثانيا :كان منهجي في التفسير تدبر الآيات قبل الرجوع الى التفاسير التي نادرا ما كنت أرجـع الـيها ، وذلك لاني كنت أخشى أن اضع بيني وبين القرآن حجابا من كلام البشر .

ثالثا : بعد إتمام التفسير إقترحت على بعض الاخوة ، استخراج معاني مفردات القرآن

من تفسير مجمع البيان للعلامة الطبرسي ، الذي أعتبره الاكمل من بين التفاسير المعتبرة ، وقد فعلوا ذلك مشكورين ، حيث وضعت تحت رسم القرآن تسهيلا للمراجعة ، إكمالا للفائدة.

رابعا :اني مدين في إعداد التفسير للطباعة لاخوتي الافاضل في مؤسسة دار الهدى ، و اخوتي في مكتبي ، والاخوة في دار البصائر ، و أسأل الله أن يجزيهم عن القرآن الحكيم خير الجزاء.

خامسا : أرجو من القراء الكرام أن يهدوا إلي عيوب كتابي و يبتغوا بذلك مرضاة الله سبحانه و تعالى لان ذلك يعتبر مساهمة في تقريب الناس الى الذكر الحكيم.

سادسا : اعتمدنا في كتابة القرآن على المصحف المعروف في العالم الاسلامي وبالذات في الدول العربية والمعتمد من قبل دور الفتوى و وزارات الاوقاف.

و أسأل الله سبحانه أن يجعل هذا الجهد القليل وسيلة لي إليه و يتقبله مني و ينفعني به يوم الجزاء الاكبر يوم لا ينفع مال و لا بنون ، يوم يجعل الولدان شيبا وان ينفع به أمتنا الاسلامية وبالذات المجاهدين منهم في سبيل الله ، بحق محمد سيد النبيين وآله الهداةالميامين.

وصلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما كثيرا..

محمد تقي المدرسي

13/12/1405هـ

30/8/1985م

بحوث تمهيدية

قبل ان نبدأ تفسير القرآن الحكيم لابد من بحوث تمهيدية تتناول:

الف / ما هو القرآن ؟ ولماذا يعجز فهم البشر عن الاحاطة بأبعاد القرآن الحكيم.

وهكـذا يـبين القرآن في آيات الذكر وفي السنة و اخيرا نبين لماذا ندعوا الى القرآن.

باء /نذكر مجموعة بحوث قرآنية مقتبسة من كتابنا السابق بحوث في القرآن الحكيم وهي البحث عن القرآن و التفسير بالرأي ، و القرآن بين التزكية و التعليم ، و القرآن بين الظاهر و الباطن ، وبين المحكم و المتشابه.

ومعنى الاحرف السبعة في القرآن وكيفية اثبات معاني القرآن.

جيم /كيفية التدبر في القرآن حيث نقتبس - مرة اخرى - من كتابنا (بحوث في القرآن الحكيم) منهجا موجزا في كيفية الاستلهام من القرآن ، الذي يعتبر اساس تفسيري للذكر الكريم.

حيث يتناول موضوعا عن التدبر و الصفات النفسية ، ثم عن التدبر والصفات العقلية ، ثم عن السياق و دوره في فهم القرآن.

ثم عن كيفية ربط القرآن بالواقع و كيف يمكن تطبيق القرآن و اخيرا نبين موجزا لمنهج التدبر

الفصل الاول
ما هو القرآن ولماذا ندعوا اليه
القرآن في آيات الذكر

قبل ان نبدأ تفسير القرآن الحكيم ، لابد من بحوث تمهيدية ، نتناول عبرها كيفية التدبر في آيات القرأن الحكيم ، والتي تعتبر ايضا المنهج الذي اتبعته في تفسير القرآن.

وقبل كل شيء نتساءل ما هو القرآن ؟ ولماذا يعجز فهم البشر عن الاحاطة بأبعاد القرآن الحكيم ؟

ان القرآن لم ينزل لجيل واحد او لقرن ، بل هو كلام الله العظيم الذي يمتد مع الزمن من يوم انشأه الله الى يوم يرث الارض ومن عليها ، ويمتد مع البشرية من يوم نزل من السماء مكملا لرسالات الله وحتى يوم البعث ، لذلك فانه كتاب يسع الجميع ولا يسعه أحد.

ولان البشر يتكامل فلابد ان يبقى القرآن امامه دون ان يبلغه انى تقدم حضاريا او توغل في افاق المعرفة ، واذا عجز العقل البشري المحدود عن الاحاطة بأسرار القرآن جميعا ، افلا تعجز لغته عن صفة القرآن ؟ بلى . ان القرآن حين يصف نفسه يفتح امامنا آفاقا من المعرفة .اذا اوغلنا فيها فسوف نستطيع ان نعرف

المزيد من خصائص القرآن ومن صفاته المثلى.

ولا يعني ذلك عجزنا عن معرفة أي شيء من القرآن ، كلا ، بل يعني ضرورة السير قدما في آفاق المعرفة القرآنية ، دون ان نقف عند حد او ان يصيبنا كلل.

أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يتعب منه قارئه . وكلما ازداد تلاوة له كلما ازداد اليه شوقا ، لماذا ؟

لانه مع كل قراءة يجده طريا جديدا ، و يجد فيه علما طارفا ، وأفقا حديثا ، بلى ، قد يتعب الانسان في استيعاب المزيد من معارف القرآن ، دون ان يمل القرآن عن العطاء ، و العطاء بغزارة . كما السحب الخيرة المعطاءة ، تفيض الارض ببركاتها المستمرة دون ان تتوقف هي عن العطاء.

اذن علينا ان نبحر في محيط القرآن الواسع ، الذي تتلاشى الشواطىء أمام أمواجه.

ونتساءل بماذا نستعين اذن في فهم كتاب الله المجيد ؟

والجواب : بالقرآن ذاته ، لانه لم يترك بعدا في المعارف الا و أوسعه هدى وبينات ومن ابرزها . البعد المختص بمعرفة القرآن ذاته.

فما هو القرآن وكيف وصف القرآن نفسه ؟

اكثر من مئة آية تبين خصائص القرآن . واذا اضفنا اليها عشرات الايات التي تحدثنا عن الشؤون المختلفة للقرآن الحكيم ، فانه سيكون ذخيرة علمية غنية نحصل بالتدبر فيها على معرفة واسعة بالقرآن . وبما اننا قد فسرنا هذه الايات ضمن تفسيرنا الشامل للقرآن ، فان علينا ونحن في بحوث تمهيدية للتفسير ، ان علينا مجرد ذكر مجموعة من هذه الايات لنذكر بعدئذ بعض الاحاديث الشريفة ، التي تعتبر بحق شرحا للايات القرآنية لانها تستلهم منها النور و البصائر . اذن كيف وصف القرآن نفسه ؟

القرآن نور ، القرآن كتاب مبين ، القرآن سلام ، القرآن صراط مستقيم . هذه هي الصفات التي جاءت في الاية التالية:

"قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام و يخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه و يهديهم الى صراط مستقيم " (المائدة ١٥ - ١٦)وفي القرآن بصائر تعطي المؤمن قدرة على رؤية الحقائق مباشرة ، ومن دون حجاب.

وفي القرآن هدى يبين الاتجاه السليم في الحياة.

وفي القرآن رحمة وفلاح لمن آمن به واتبع هداه.

هكذا جاء في الاية التالية:

"هذا بصائر من ربكم و هدى و رحمة لقوم يؤمنون " (الاعراف / ٢٠٣)ولابد ان يتفكر الناس ، لكي يحصلوا على المعرفة من خلال أمثال القرآن ، هكذا يقول القرآن.

"لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلكالامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون " (الحشر /٢١)ولقد عجزت كل الاقاويل التي حاولت تفسير ظاهرة القرآن ، الا انه وحي من الله فلا هو بقول شاعر يسبح في غمرات احلامه ، ولا هو بقول كاهن يتخرص فيقول كلاما مجملا لا يعني من ورائه شيئا . هكذا يقول القرآن:

"فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون " (الحاقة / ٣٨ - ٤٢)و جاء القرآن ليتدبر فيه الناس ، شريطة أن يفكوا عن قلوبهم اقفالها ليروا الحقيقة مباشرة.

"أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (محمد / ٢٤)ومن يتدبر في القرآن يعرف انه من الله ، لانه لا اختلاف فيه:

"افلا يتبدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (النساء / ٨٢)و القرآن موعظة يهز أعماق الضمير ، و القرآن شفاء يطهر الصدور من الحقد و الحسد و العقد:

"يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين " (يونس / ٥٧)و القرآن كتاب الله الذي اعجز الخلق عن ان يأتوا بمثله.

"قل لئن أجتمعت الانس و الجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " (الاسراء / ٨٨)وفي القرآن من كل مثل عبرة ، ومن كل سبيل منار ، ومن كل علم درس ، ولكل خير قدوة ، و لكل معروف وسيلة . يعطي لكل حادثة مثلا سابقا ، و لكل ظاهرة قانونا عاما ، ولكل مشكلة طارفة حلا واقعيا تليدا:

"و لقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فابى اكثر الناس الا كفورا " (الاسراء / ٨٩)و القرآن آيات مبينات ، القرآن مثل من و اقع التأريخ الغابر للحاضر " و لقد انزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم و موعظة للمتقين " (النور / ٣٤)ولو ان القرآن انزل على الجبال لخشعت ، لان القرآن يذكر الانسان بالله الذي يخشاه كل شيء " لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله"

القرآن في السنه

لقد تحدثنا في الدرس الذي مضى عن و صف القرآن لنفسه في آيات الذكر الحكيم . وها نحن نتحدث لكم عن وصف الحديث للقرآن . ولا ريب ان الحديث يعتبر شرحا و افيا او مقتضبا لايات الذكر الحكيم.

جاء في حديث مأثور عن عكرمة ، ان ابن عباس كان يقول : " ان لله عز وجل حرمات ثلاث ليس مثلهن شيء : كتابه وهو نوره و حكمته ، و بيته الذي جعله للناس قبلة لا يقبل الله من احد وجها الى غيره ، و عترة نبيكم. "

و جاء في حديث مسند و مروي عن النبي ، قال رسول الله (ص) : " كأني قد دعيت فأجبت ، و أني تارك فيكم الثقلين احدهما اكبر من الاخر كتاب الله تبارك و تعالى حبل ممدود من السماء الى الارض ، و عترتي اهل بيتي ، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما. "

في حديث مسند اخر عن النبي (ص) قال رسول الله : " يا أيها الناس انكم في زمان هدنة وانتم على ظهر سفر و السير بكم سريع فقد رأيتم الليل والنهار والشمس و القمر يبليان كل جديد و يقربان كل بعيد ، و يأتيان بكل موعود ، فاعدوا الجهاز لبعد المجاز. "

فقام المقداد ، فقال : يا رسول الله ما دار الهدنة فقال " دار بلاء و انقطاع " ، ثم اضاف النبي (ص) قائلا : "فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وما حل مصدق. "

"الماحل الذي يخبر السلطان عن رعيته سعاية) وشاية) فاذا اخبر القرآن ربنا المتعال عن عمل سيء قام به أحد العباد فان الرب سبحانه يصدقه. "

ثم اضاف النبي (ص) : " من جعله امامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار . وهو الدليل يدل على خير سبيل ، و هو كتاب تفصيل وبيان تحصيل ، وهو الفصل ليس بالهزل ، له ظهر و بطن ، فظاهره حكمة و باطنه علم ، ظاهره انيق ، و باطنه عميق ، له تخوم على تخومه تخوم ، لا تحصى عجائبه ، و لا تبلى غرائبه . فيه مصباح الهدى و منازل الحكمة و دليل على المعروف لمن عرفه. "

و يأتي رجل الى الامام الصادق (ع) و يسال : ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس الا غضاضة ؟ فيجيبه الامام ابو عبد الله (ع) قائلا : " لان الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ، ولا للناس دون ناس ، فهو في كل زمان جديد ، وعند كل قوم غض اليوم القيامة. "

قال الرسول (ص) : " فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقال : " القرآن غنى لا غنى دونه " وقال : " القرآن مؤدبة الله فتعلموا مؤدبته ما استطعتم. "

وقال الرسول (ص) : " ان اردتم عيش السعداء و موت الشهداء و النجاة يوم الحسرة ، و الظل يوم الحرور ، و الهدى يوم الضلالة ، فادرسوا القرآن فانه كلام الرحمن و حرز من الشيطان و رجحان في الميزان. "

و وصف الامام علي)ع) القرآن مرة فقال : " عليكم بكتاب الله فانه الحبل المتين ، و النور المبين ، و الشفاء الناقع ، و الرأي النافع ، و العصمة للمتمسك ، والنجاة للمتعلق ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تخلقه كثرة الرد ، و ولوج السمع ، من قالبه صدق ومن عمل به سبق. "

و قال أمير المؤمنين (ع) : " كتاب الله تبصرون به ، و تسمعون به ، و ينطق بعضه ببعض ، و يشهد بعضه على بعض. "

و الحارث الاعور من اصحاب الامام علي (ع) يقول : دخلت عليه فقلت : يا أمير المؤمنين إنا اذا كنا عندك سمعنا الذي نسر به ، واذا خرجنا من عندك سمعنا اشياء مختلفة ، مغموسة ، لا ندري ما هي فقال : او قد فعلوها ، قلت : نعم ، قال " سمعت رسول الله يقول:
أتاني جبرئيل فقال : يا محمد سيكون في أمتك فتنة . قلت : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله فيه بيان ما قبلكم من خبر ، و خبرها بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من وليه جبار فعمل بغيره قصمه الله ، ومن التمس الهدى في غيره اضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، لا تزيغه الاهواء ، ولا تلبسه الالسنة ، ولا يخلق عن الرد ، ولا تنقضي عجائبه " .

هكذا تصف الاحاديث الشريفة المروية عن الرسول (ص) ، وعن الائمة الهداة تصف القرآن الحكيم.

نرجوا من الله ان يوفقنا لاستيعاب هذه النصوص الكريمة و التفاعل مع القرآن انه ولي التوفيق وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

لماذا ندعو الى القرآن

في سياق حديثنا عن البحوث التمهيدية لتفسير القرآن الحكيم ، نطرح السؤال التالي : لماذا ندعوا الى القرآن ؟

اول سؤال يطرح علينا هو السؤال عن السبب الذي ندعوا من اجله للقرآن الحكيم ، و الواقع ان هناك عدة اسباب تفرض علينا العودة الى القرآن و التدبر فيه ، ونحن اذ نذكر بعضها بصورة مقتضبة لانملك سوى الاعتراف بعجزنا عن الاحاطة بها جميعا.

اولا : لكل منا رغباته المشروعة التي يتمنى ان يجد سبيلا مستقيما اليها ، و القرآن الحكيم هو ذلك السبيل المستقيم المؤدي الى مصالح كل شخص ورغباته المشروعة.

و ليست أهمية القرآن و عظمته منحصرة في انه يحقق للناس رغباتهم و مصالحهم المشروعة و يهديهم الى سبل السلام المؤدية الى مصالحهم ، بل و أهم من ذلك ، لانه يرسى قواعد للشخصية المتكاملة التي تستطيع بلوغ مآربها المشروعة بسهولة بالغة.

ثانيا :و مصالح الانسان بدورها ليست سوى بعض تطلعاته الكبيرة ، واما البعض الاخر فيمكن الحصول عليه في بحث الانسان الدائم عن الحق و الخير و سعيه المستمر لتحقيقهما.

ان الانسان يبتغي اقرار دعائم الحق كما يريد الوصول الى المصالح.

و أهم ما يصبو اليه الانسان هو التوفيق بين هدفيه هذين وهو تحقيق الحق ، و وصول المصلحة.

و القرآن هو ذلك الحق الذي يبتغيه البشر و يسعى من اجل معرفته و تنفيذه ، وهو اضافة الى ذلك يهدي الانسان الى التوفيق بينه وبين المصالح الخاصة.

و نعود ونتساءل ، من منا لا يريد ان يكون انسانا طيبا يبتعد عن الجريمة و الفحشاء ، و يلتزم الطرق المستقيمة و يتحلى بالسلوك الممتازه ، ولكن كم واحد منا يستطيع ان يفعل ذلك ؟ طبعا القليل فقط يستطيع ذلك لماذا ؟

لان ضرورات العيش لا تدع فرصة للفرد للتفكير في الخير و الحق ، ولكن القرآن يوفر هذه الفرصة ، اذ انه يهدي البشر الى السبل القويمة للمصالح والتي لا تتنافى مع الخير و الحق ، بل يتكامل معهما.

ثالثا : نصطدم في حياتنا بعدة مشاكل فمن صديق ينقلب علينا ومن قريب يشاكسنا ، ومن خسارة تفاجئنا وقد تصل بنا المشاكل الى حد الخروج عن محور الضبط.

و بالتالي الانهيار في هاوية اليأس والضياع.

ولكن القرآن الحكيم يضع الحلول الحاسمة للمشاكل جميعا بل واكثر من ذلك يصنع الانسان الذي هو قادر على وضع الحلول المناسبة في الوقت المناسب.

وهذا حول الاجابة عن السؤال التالي:

لماذا نحن اساسا ندعوا الى القرآن الحكيم ؟

ولكن الدعوة الى القرآن شيء . و الاستفادة منه شيء اخر ، نحن بالاضافة الى دعوتنا الى القرآن ، ندعوا الى التدبر فيه لماذا ؟ لان التدبر في القرآن هو الطريق المستقيم الى العمل به ، ولا يعمل بالقرآن غير ذلك الذي يتدبر في آياته الكريمة فيفهم محتواه.

ان التدبر في القرآن يعطي للانسان فرصة لفهم محتوى القرآن الحكيم ، لان الله سبحانه وتعالى اودع في كتابه الكريم نورا يهدي البشر الى ربه العظيم فيؤمن به ، وبعد الايمان يطبق شرائعه.

من هنا ليس على الانسان سوى امر واحد هو الانفتاح على القرآن و استعداد التفهم له وهذا يكون بالتدبر فيه.

يقول الله سبحانه وتعالى :

"قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام و يخرجهم من الظلمات الى النور بأذنه و يهديهم الى صراط مستقيم. "

ان القرآن ذاته نور وليس علينا امام النور ، الا ان نفتح أعيننا ، وان نستقبل امواج النور ، وان نرى بالنور كل الاشياء.

ان الكفار و الفاسقين ، اختاروا لانفسهم العمى فلم يفتحوا أعينهم على النور المبين ، وعملوا المستحيل في سبيل حجب النور الباهر عن التسرب الى قلوبهم خوفا من امكانية تأثرهم به و تنورهم بشعاعه الكبير.

لقد كان الكفار يتواصون بهذه المقولة التي نقلها القرآن الحكيم عنهم:

"وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه. "

انهم كانوا يحذرون من النور و يتهربون منه ولقد جاء احدهم الى الرسول يسأله عن قرآنه ، فلما تلى النبي بعض آيات الكتاب ضعف الرجل و شد على فم الرسول (ص (بيده قائلا : اناشدك الله و الرحم الا تسكت.

ثم تولى الى قومه قائلا أنه سحر يؤثر.

انه لم يستطيع الصبر على تيار النور الذي كاد يلف قلبه لذلك اسكت النبي وتولى هاربا.

ان المطلوب من الانسان هو الانفتاح على القرآن و استماع آياته بتدبر و تجرد.

اذن سوف يجد المرء كيف تحدث المعجزة.

لقد حاول رجل مجرم ان يتسلق جدارا لينهب المال و يغتصب النساء فسمع صوتا ينبعث من داخل البيت و يتلو هذه الاية الكريمة:

"الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله. "

فاستمع الى الاية بضع ثوان ثم انفجر باكيا وقال : بلى آن الوقت الذي يخشع قلبي القاسي لذكر الله . وما نزل من الحق ، بلى آن فهبط من الجدار و تولى بوجهه شطر المسجد و اعتكف فيه الى الابد ، ان تدبر هذا الرجل في آية واحدة حوله من مجرم متمرس بالجريمة الى معتكف في محراب العبادة ، فكيف اذا تدبر الانسان في كل القرآن افلا يتحول من رجل الى ملك ؟ بل والى من هو فوق درجات الملك.

نرجوا من الله ان يجعلنا من الذين يتدبرون في القرآن ، وفي آياته الكريمة و يحصلون منها على النور المبين انه ولي التوفيق.

لفصل الثاني
مسائل قرآنية

ضرورة التدبر في القرآن

هذه هي فوائد القرآن . وهي بالذات الاسباب التي تدعونا الى التدبر فيه . لان القرآن لا يفيد الا من عمل به .. ولا يعمل به سوى الذي يتدبر فيه فيفهم.

بل ان التدبر في القرآن هي الوسيلة الوحيدة للعمل به . اذ ان الله تعالى اودع كتابــه الكريم - نورا يهدي البشر الى ربه العظيم . فيؤمن به - وبعد الايمان يطبق شرائعه ، من هنا ليس على الانسان سوى امر واحد هو الانفتاح على القرآن . و استعداد التفهم له . وهذايكون بالتدبر فيه.

يقول الله سبحانه :

.. "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل الســـلام و يخــرجـــهم مـــن الظلمـــات الـــى الـــنور بأذنــه و يهديهم الى صراط مستقيم " (١٦ / ٥)ان القرآن ذاته نور ، وليس علينا امام النور الا ان نفتح ابصارنا لنراه ، و نرى به الاشياء جميعا.

و التــدبر فــي القرآن . لا يعني تحميل آياته الكريمة ، آراء و افكارا اضافية كلا . بل التسليم لعلوم القرآن ، و التأمل في معاني آياته و تبصر الحياة عبرها ، و السعي نحو فهم حقائق الطبيعة ، و آفاق النفس بها.

وهنا يكمن الفرق بين تفسير القرآن بالرأي الذي نهى عنه الدين أشد النهي . وبين التدبر في القرآن الذي أكد عليه الدين أشد تأكيد.

وقد اختلط على البعض هذان الامران . فحجب عن نفسه نور الفرقان زاعما انه فوق مستواه.

بلى ان البشر لا يرقى الى مستوى القرآن ، ولكن شعاعه كما الشمس لا تزال تشرق على العيون البصيرة . فمن احتجب عنه باتباع هوى . او تفسير برأي ، فقد ضل عنه ومن سلم له ، و فرغ قلبه من كل فكرة سابقة حين يقرأه ، فان الله يهديه سواء السبيل.

يقــول العلامــة الطبرسي وهو يشرح الفرق بين التفسير بالرأي و التدبر في الذكر.

و اعلم ان الخبر قد صح عن النبي (ص) وعن الائمة القائمين مقامه (ع) ان تفسير القرآن لا يجوز الا بالاثر الصحيح ، والنص الصريح ، و روت العامة ايضا عن النبي (ص) انه قال من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ ، قالوا و كره جماعة من التابعين القول في القرآن بالرأي كسعيد بن المسيب و عبيدة السلماني و نافع و سالم بن عبد الله و غيرهم والقول في ذلك ان الله سبحانه ندب الى الاستنباط و أوضح السبيل اليه و مدح أقواما عليه فقال لعلمه الذين يستنبطونه منهم و ذم اخرين على ترك تدبره و الاضراب عن التفكر فيه فقال افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها و ذكر ان القرآن منزل بلسان العرب فقال انا جعلناه قرآنا عربيا ، وقال النبي (ص) اذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فاقبلوه وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط فبين أن الكتاب حجة و معروض عليه وكيف يمكن العرض عليه

وهو غير مفهوم المعنى فهذا وأمثاله يدل على ان الخبر متروك الظاهر فيكون معناه ان صح ان من حمل القرآن على رأيه ولم يعمل بشواهد الفاظه فأصاب الحق فقد أخطأ الدليل وقد روي عن النبي (ص) انه قال القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه و روي عن عبد الله بن عباس انه قسم وجوه التفسير على اربعة اقسام تفسير لا يعذر احد بجهالته و تفسير تعرفه العرب بكلامها وتفسير يعلمه العلماء و تفسير لا يعرفه الا الله عز وجل ، فأما الذي لا يعذر أحد بجهالته فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن و جمل دلائل التوحيد ، وأما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة و موضوع كلامهم ، وأما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الاحكام ، وأما الذي لا يعلمه الا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب وقيام الساعة . (١)(١) مجمع البيان في تفسير القرآن / ج ١ / ص ١٣

القرآن و التفسير بالرأي

يزعم فريق من المسلمين ان التدبر في القرآن ، غير مسموح به الا للذي اوتي نصيبا كبيرا من العلم ويستندون - في زعمهم هذا - الى بعض الروايات المأثورة التي نهت الناس عن تفسير القرآن بالرأي.

ولكن هذا الزعم غير منطقي ابدا .اذ ان الله كان أعلم بكتابه ، و بخلقه حيث امرهم بالتدبر في آيات القرآن .بل حيث خاطب بالقرآن كل انسان وفي كل ارض وفي كل عصر.

يقول الله سبحانه في كتابه:

"هذا بيان للناس * و هدى و موعظة للمتقين " (١٣٨ / ٣)و هل يمكن ان يبعث الله بيانا للناس جميعا ، ثم ينهاهم عن التفهم له ، او التدبر فيه ، اذا فما فائدة البيان ؟

ان خطابات القرآن - تهتف بالناس كافة وتقول يا أيها الناس - أو بالمؤمنين جميعا . وتقول يا أيها الذين آمنوا ، وهذا يعني ان الله يريدهم أن يسمعوا كلامه . و يتفهموه . فهل نستطيع أن نزعم أنه لا يجوز التدبر فيه ؟

ولا يمكن ان نقول ان الروايات تنهى عن التدبر الذي أمر به الله . بل الاكثر منطقية القول بأن الروايات نهت عن شيء ، و الاية أمرت بشيء اخر ، او ان الروايات بينت حدود التدبر التي لا يجوز التجاوز عنها.

فأي شيء نهت عنه الروايات ؟

الواقع ان على الانسان ان يتبع الحق الذي يعرفه و يدع الذي لا يعرفه ، ان الله سبحانه يقول:

"ولا تقف ما ليس لك به علم * ان السمع و البصر و الفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا " (٣٦ / ١٧)وكذلك لا يجوز على الانسان - في شريعة الاسلام - ان يقول شيئا لا يعلم به . قال الله سبحانه:

"وان تقولوا على الله مالا تعلمون " (١٦٩ / ٢. (

وقد اعتبر القرآن القول بغير علم كبيرة يعظمها الله و يستحقرها العباد ، فقال تعالى:

"وتقــولون بأفواهكــم ما ليـــس لكـــم بــه علـــم و تحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . (24 - 15) "

ومن هنا لا يجوز ان ننسب فكرة او عملا لاحد ، ما لم نتأكد يقينا انتسابهما اليه . كذلك لا يجوز تفسير كلام أي فرد الا بعد التأكد من ارادته فعلا لما نفسره ، والا اعتبر ذلك نوعا من التحريف في كلامه و ضربا من التهمة.

و تشتد خطورة الامر بالنسبة الى الله العظيم ، فأي قول ينسب اليه يجب ان نتأكد بالعلم اليقين انه قاله والا كنا قد أفترينا على الله كذبا.

"ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون " (١١٦ / ١٦. (

وكذلك اي تفسير لكلام الله المجيد لا نعلم يقينا مطابقته للواقع يعد نوعا من الافتراء على الله . لانه يعتبر ضربا من نسبة القول اليه دون التأكد من ذلك.

وكان في الامة الاسلامية - ولم يزل - فريق يريدون ان يستغلوا الدين لمصالحهم الشخصية - او يستخدموه لاثبات اهوائهم المضلة - وهكذا يبدأون بتفسير الآيات القرآنية حسب آرائهم الخاصة . ان هؤلاء - يريدون ان يجعلوا كتاب الله - تابعا لافكارهم فيحملونها مالا تحتمل.

وقد اراد الاسلام -تطويق هذا الفريق ، فجاء في الكتاب:

"هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات واخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة - وابتغاء تأويله . وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم . يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب " (٧ /٣) (١(

هكذا وضح القرآن نوايا هذا الفريق الفاسد و نهى - بشكل قاطع - عن تأويل القرآن للوصول الى الاغراض الفاسدة.

(1)سنتحدث - باذن الله - عن المحكم والمتشابه في بعض الصفحات القادمةو جاءت الروايـات تنهـى عمـا نهت عنه الاية أيضا . ولكن بتعبير آخر وهو) التفسير بالرأي) والذي يعني القول حسب الهوى الشخصي . وهو يقابل التفسير وفق الحق و الواقع . بالرغم من ان القول بالرأي - بصفة عامة او تفسير أي كلام منسوب الى احد حسب الرأي - هوالاخر محرم - فان كل ذلك بالنسبة الى كلام الله - الحكيم يعتبر اشد حرمة ، لذلك خصت الروايات هذا الامر بالذكر -وهو غير خارج عن القواعد العامة.

واليك بعض تلك الروايات.

عن الامام الصادق (ع) : " من فسر القرآن برأيه ان أصاب لم يؤجر ، وان اخطأ فهوى - أبعد من السماء "

(١)وروي عن النبي (ص) : " من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد اخطأ " (٢)و روي عنه ايضا أنه قال : " من فسر القرآن برأيه بوء مقعده من النار. "

اذا فهناك حقيقة لا ريب فيها هي ان القول بالرأي - خصوصا في تفسير القرآن الحكيم - حرام أشد ما تكون الحرمة.

ولكن لا يرتبط ذلك بالتدبر في القرآن اذ التدبر - هو التفكير المركز في الآية لمعرفة الحقيقة التي تذكر بها معرفة تعيينية.

فالتدبر - انما هو لتحصيل العلم بالقرآن ، حتى لا يقول الانسان برأيه في تفسير القرآن وانما بالعلم.

(1)تفسير الصافي / الجزء الاول / ص ٢١.

(2)المصدر.

القرآن بين التزكية والتعليم

القرآن الحكيم بين الظاهر و الباطن

بعد ان تعرفنا على خطي القرآن المتشابكين خط التزكية و خط التعليم ، و عرفنا ان الهدف الاهم الذي يبدو من سياق آيات القرآن هي التزكية ، بعد ذلك نستطيع ان نهتدي الى الظاهر و الباطن.

فالظاهر هي التزكية ، بينما الباطن هو التعليم.

وقد جاء في حيث مأثور : " ان ظاهر القرآن حكم و باطنه علم " و الحكم هي الشريعة مع موجبات تنفيذها من ترغيب و ترهيب و قصص وامثال . بينما العلم - هي السنن الفطرية التي بينها القرآن المجيد . و القوانين العلمية التي اشار اليها.

وجاء في حديث اخر " :ظهر القرآن الذي نزل فيهم و بطنه الذين عملوا بمثل اعمالهم " (١)(١ (تفسير الصافي /الجزء الاول / ص ١٧

ومن المعروف ان قصة الذين نزل فيهم القرآن تعتبر الجانب التربوي منه ، ولكنه حينما ينتزع القرآن من القصص سننا عامة تشمل الذين نزل فيهم وتسع الذين عملوا بمثل اعمالهم . تعتبر - انئذ - تلك السنن علما بالتاريخ او الاجتماع او ما اشبه.

وجاء في حديث اخر : ان رجلا قال : سألت الامام عما يعني بقوله : للقرآن ظهر و بطن ؟ قال : " ظهره تنزيله و بطنه تأويله ، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد يجري كما يجري الشمس و القمر ، كلما جاء

منه شيء وقع. "

وهذا الحديث يؤكد معنى الحديث الاول - و يتظافران على ان تنزيل القرآن هو الظاهر الذي يدل على اللفظ بينما التأويل وهو ايضا بطن القرآن - انما هو الواقع العلمي الذي يهدي اليه الظاهر و ينطبق على كل من يشارك مع اولئك في اعمالهم.

وقد عبرت بعض الاحاديث عن علوم القرآن بـ (البطن) لانها تخفي على الناس ، ثم تظهر بالتدبر ، وحسب اختلاف الناس - من النواحي العقلية و العلمية تختلف درجات الخفاء - حتى يعتبرالواقع الواحد ، ظهرا بالنسبة الى فريق ، و بطنا بالنسبة الى فريق اخر . لذلك تعددت البطون والاظهر بقدر تعدد درجات الناس في العقل و العلم . وجاء في حديث : ان رجلا قال : سألت ابا جعفر (ع) ، عن شيء من تفسير القرآن ، فأجابني . ثم سألته ثانية فأجابني بجواب اخر فقلت : جعلت فداك ، كنت اجبت في هذه المسألة بجواب اخر غير هذا قبل اليوم . فقال لي : " يا جابر ، ان للقرآن بطنا و للبطن بطنا و ظهرا و للظهر ظهرا. "

وهكذا فسر الامام (ع) آية واحدة عدة تفاسير حسب درجات السائل - اذ انه حينما عرف تفسيرا يشرح ظاهر القرآن استعد علميا ، لمعرفة تفسير يشرح بطنه.

بهذا نعرف معنى عدة احاديث مأثورة تقول ان للقرآن سبعة ابطن او سبعون بطنا . وبهذا ايضا نعرف قيمة التدبر باعتباره الكاشف لبطون القـرآن كلـما تدبرت كلما ازددت علما.

القرآن الحكيم بين المحكم و المتشابه

لان القرآن المجيد خطاب مباشر من الله خالق كل انسان والى كل انسان فلابد ان يكون مفهوما لهم جميعا . بقدر ما يكون مهيمنا عليهم يكون مفهوما ، لانه خطاب ويكونه مهيمنا لانه من الله.

ولان الناس درجات في العلم و الايمان ، فلابد ان تكون آيات القرآن درجـات فتنشأ المشكلة ، حيث تكون الدرجة العالية غير مفهومة لمن هم في الدرجات الدنيا.

وهنا يتدخل القرآن ذاته لحل هذه المشكلة بأن يوقف هؤلاء الناس عند حدهم و يامرهم بترك الاية غير المفهومة لهم . تركها لمن يفهمونها ممن تتناسب درجاتهم معها بينما يكون عليهم ان يستوحوا من تلك الايات التي تنالها افكارهم و تتفق مع مستوى نضجهم ، والقرآن الحكيم . يسمى الاية المفهومة بـ (المحكم) بينما يدعو الآية التي هي اعلى من مستوى فهم القارىء بـ (المتشابه) و يأمر الناس بأتباع المحكم و ترك المتشابه.

ومن هنا نعرف ان ليس الناس سواء في المحكم و المتشابه . اذ ان المحكم الذي يبدو واضحا عند فرد - لانه في مستوى فهمه - يكون متشابها عند فرد اخر ، لانه اعلى من مستواه.

من هنا جاء في الحديث في تفسير المتشابه بأنه : " ما اشبه على جاهله " وعليه يجب على من لم يؤت فهم آية عليه امران:

- 1ان يقف عند الاية . ولا يصيبه الغرور فيزعم انه قادر على فهم الاية ، فيفسرها برأيه فيضل و يضل الاخرين.

- 2ان يلتمس من هو اعلى درجة منه لعله يتعلم منه معنى الاية . ولو لم يفهم - حتى مع التعليم - فعليه ان يدع علمه الى اهله.

هذه الحقائق هي التي تذكر بها الاية الكريمة التي تقول:

"هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات - هن ام الكتاب - واخر متشابهات -فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله " (٧ /٣)وجاء في الحديث : عن الامام الصادق (ع) : " ان القرآن فيه محكم ومتشابه ، فأما المحكم فنؤمن به و نعمل به و ندين به ، واما المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به " (١)(١) تفسير الصافي / ج٢ / ص ١٨

القرآن الحكيم و الاحرف السبعة

القرآن الحكيم و اثباتات معانيه

ما هي الاثباتات اللغوية التي يمكننا الاعتماد عليها في فهم القرآن الحكيم نرى ثلاثة اثباتات رئيسية لمعنى القرآن : اللغة ، و السياق ، و التفسير المضمون.

(أ) اللغة

)ب) السياق

لو بحثنا عن اول يوم تعلمنا فيه اللغة لعرفنا ان السياق كان اول سبيل لهذا التعليم . فالوالد استعمل لفظ العصى عندما كان يتكلم عن الضرب فعرفنا انه وسيلة الضرب و الوالدة اطلقت لفظة الولاعة حينما تكلمت عن الطبخ فعرفنا انها وسيلة النار . و.و.

ولا ريب ان وجود اللفظ في اطاره المتناسب يوحي بمعناه ربما اكثر من تفسير اللفظ بدون سياق يحده.

و القرآن الحكيم ، ذلك الكتاب البليغ الذي يناسب بين المفردات في اطار السياق بحيث يصعب عليك تبديل لفظة باخرى دون ان تضر بتناسب الكلمات.

لذلك يهدينا السياق ذاته الى المعاني الدقيقة للكلمات لانها وضعت في موقع متناسب جدا مع تلك المعاني ، فاذا اردنا ان نعرف بالدقة معنى اللفظ كان علينا مراجعة ما قبلها وما بعدها ، لمعرفة ما يتناسب معهما من معنى لهذه الكلمة ، فمثلا لو اردنا ، ان نكتشف معنى " قصد "

في هذه الاية.

"وعلـى الله قصـد السـبيل ومنـها جائـر ولـو شـاء لهـداكـم اجمعيـن) " النحل / ٩. (

لو اردنا ذلك قارنا بين القصد ، و الجائر ، و الهداية ، نعرف معنى القصد . لانه جاء في مقابل الجائر الذي يعني المائل ، فالقصد هو المستقيم ، و الجائر هو الظالم فالقصد هو العادل.

او اذا اردنا التعرف على معنى " نفش " في هذه الاية:

"و داود و سليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين " (الانبياء / ٧٨. (

لو اردنا ذلك لم يكن علينا الا قياس كلمة نفشت بالحرث و الغنم و الحكم . مما نعرف انه اتلاف الحرث ، وهكذا.

وقـد جاء رجل الى صحابي فسأله عن معنى " الاب " الذي جاء في الآية الكريمة ، وفاكهة وأبا ، فلم يعرفه . وجاء علي عليه السلام وقال : ما مفاده ان معنى اللفظ موجود في الاية ذاتها لان الله سبحانه يقول:

"و فاكهة وأبا متاعا لكم و لانعامكم " (٣١- ٣٢ /٨٠. (

فالفاكهة لكم و الاب لانعامكم.

)ج) التفسير

معرفة الاطار التاريخي الذي شاهد نزول الوحي ومعرفة المورد الخاص الذي نزلت فيـه والموقف الاجتماعي الذي وجهته الاية . ذو اثر كبير في تفهم المعنى الدقيق للآية.

ومعرفة تفاسير ائمة الوحي (ع) للاية قاطعة في معانيها . بيد ان تفاسير الائمة (ع) قد تختلف بينها او تبين تطبيقا واحدا للاية . وهنا لابد ان نتخذ منها سبيلا لفهم المعنى العام الذي يحل مشكلة الاختلاف - من جهة - و يعطي الاية تطبيقات اشمل من جهة ثانية . ولذلك يجب ان لا نجمد في النصوص الواردة في تفسير الايات على انها المعاني الوحيدة التي تحملها بل نتخذ منها وسيلة لفهم المعنى الاشمل للاية . و ندرس كيف ولماذا انطبقت الآية على المورد الذي يعينه التفسير لنعرف انه هل يمكن تطبيق الاية ايضا على مورد متشابه املا ؟

فمثلا جاء في بعض النصوص التفسيريه ان الآية الكريمة:

"الا من اكره و قلبه مطمئن بالايمان " (١٠٦/ ٦٦. (

نزلـت فـي حق عمار بن ياسر حسنا فهل من الممكن تجميد الاية في عمار ؟ كلا . بل يجب

ان نفكر كيف جاءت الاية تطبيقا على حالة عمار أليس لانه كان قد اكره على الشرك فاعطاهم بلسانه ما احبوه أوليس ذات الموقف لو تكرر لرجل اليوم وصنع مثل ما صنعه عمار تنطبق عليه.

ان هذا الاسلوب من التفكير يجعل القرآن حيا في اذهاننا ابدا . وقد امر به الدين - فجاء في الحديث " : لو ان القرآن كان يذهب بموت من نزل فيهم لذهب القرآن كله ، وانما مثله كمثل الشمس كل يوم جديد. "

بهذا نعرف ضرورة الاستفادة من التفسير الصحيح بالفهم الواعي لحدود تطبيق التفسير لعموم الآية.

الفصل الثالث
منهج التدبر في القرآن
التدبر و الصفات النفسية

عدة صفات نفسية ينبغي ان يتحلى بها المتدبر في القرآن ليستطيع فهم آياته المجيدة حتى يتسنى له بعد تطبيق طرق التدبر على نفسه - معرفة الحقائق التي تنطوي عليها الايات ، واليك بعض هذه الصفات.

- 1الايمان بالقرآن على انه كتاب اوحى به الله رب السموات ليكون لعباده مبشرا و نذيرا ، و هاديا الى الحق بأذنه و سراجا منيرا.

لابــد ان نقــرأ القرآن بوصفه خطابا موجها الينا من الله العظيم ، فقد جاء في الحديث : " ان في القرآن المناجاة مع الرب بلا واسطة فأنظر كيف تقرأ كتاب ربك و منشور ولايتك ، وكيف تجيب أوامره و نواهيه وكيف تمثل حدوده " (١ (انه وثيقة ارتباطنا بالمبدىء المعيد ، بالله.

(1)تفسير الصافي / ج ١ / ص ٤٧

انه المنقذ من كل ضلال و شقاء . جاء في الحديث " : القرآن عهد الله الى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم ان ينظر الى عهده. "

ان القرآن قد يخاطب رسوله في نصوصه ولكنه لا يعنيه فقط : بل ويعني معه كل شخص تال له - جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام ان القرآن نزل على لغة : " اياك اعني و اسمعي يا جارة " اي انه خطاب موجه الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه شامل ايضا لك ولي ولكل التابعين له.

حينما يقول القرآن:

"فأعلم انه لا اله الا الله و استغفر لذنبك. (47 - 19) "

يجب ان أبادر بالاستغفار لانه خاطبني شخصيا بذلك.

وحينما يقول الله:

"يا أيها الذين آمنوا. "

يجب ان استعد لتلبية أمره . وأقول : لبيك - اللهم - لبيك ماذا تأمرني ؟.

وحينما يقول:

"يا أيها الناس"

اقول نعم . ماذا نعمل ؟ وهكذا.

لقد كان اولياء الله العارفين يتلون القرآن بهذه الصفة - فكانت جلودهم تقشعر و قلوبهم ترتجف حين يقرأون آية ، بل كانوا يصعقون لعظمة وقع الآية في نفوسهم .

لقد تلى الامام الصادق عليه السلام آية في صلاته و رددها مرات . فصعق صعقة و وقع مغشيا عليه . فلما افاق سئل عن ذلك منه قال " : لقد رددتها حتى كأني سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته - 2(1) " و تنشأ من صفة الايمان بالقرآن - صفة كريمة اخرى هي الاستعداد لتطبيق آياته . ان هذه الصفة شرط هام في فهم آيات الله اذ ان التسليم المسبق لنتائج البحث عن الحق يساعد النفس على البحث المجرد ، كما ان الاستكبار و التردد في قبول نتائج البحث العلمي يقللمن قيمة هذا البحث عند الانسان وبالتالي يصرفه عنه.

من هنا كان على الانسان ان يجعل القرآن امامه و يسلم اليه زمام أمره . قبل ان يبدأ بتلاوة آياته حسبما يصف الامام علي عليه السلام المؤمن الصادق فيقول : " قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده و امامه يحل حيث حل ثقله و ينزل حيث كان منزله. "

وان فريقا من الناس يتلون القرآن فيأولون آياته حسب اهوائهم ابتعادا عن العمل بها ان هؤلاء لا يؤتون فهم القرآن ابدا . بل ان تلاوة القرآن ستزيدهم وزرا و وبالا.

انما يؤتي علم القرآن من تواضع للحق وسلم لله و فتش عن الواقع . و استعد سلفا لاتباع

الحقيقة لو انكشفت له.

(1)الصافي / ج ١ / ص ٤٧

لتدبر و الصفات العقلية
التدبر والسياق القرآني

و للسياق دور كبير في بيان الواقع العلمي للقرآن والسبب ان القرآن ، يلاحظ ارتباط آية بأخرى ملاحظة دقيقة . ولا تتلاحق الايات ولا الكلمات داخل آية واحدة الا بأحدى علاقتين : علاقة علمية او تربوية.

-العلاقة العلمية

القرآن يعكس واقع ارتباط حقيقة باخرى فيذكرهما مع بعض فمثلا : يقول الله سبحانه:

"و اعلم بانه لا اله الا الله و استغفر لذنبك "ان علاقة الاستغفار من الذنب بتوحيد الله علاقة واقعية تفرضها حقيقة الربانية من جهة و العبودة من جهة ثانية . اذ ان العقيدة بأحدية الله توجب العقيدة بعبودية الفرد . و واضح ان العبد يجب ان يخضع لله.

و تماما مثل هذه العلاقة موجودة في قوله تعالى:

"وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون " (٢٥/ ٢١. (

فعلاقة عبادة الله بتوحيده ، امر واقعي من جهة ان على العبد مسؤولية العبادة لله الواحد.

وكذلك علاقة آيتين ببعضهما في مثل قوله سبحانه:

"ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا * و يشهد الله على ما في قلبه * وهو ألد الخصام * واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها و يهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد " (٢٠٥ / ٢. (

فعلاقة الاية الاولى بالثانية ناشئة من وجود ارتباط بين صفات المنافقين . فهم من جهة ينمقون كلامهم وهم من جهة ثانية يفسدون في الارض.

ان القرآن يتحدث الينا عن نموذج من الناس . لذلك يذكر كل صفاتهم ولا تنمو صفة فيهم دون وجود اخرى.

ان هذه العلاقة نجدها في اواخر الايات التي تنتهي في كثير من الاحيان بذكر صفة او صفتين لله سبحانه . ترتبط بنوع المضمون المذكور في الاية ، فمثلا نجد في هذه الايات الكريمة مدى ارتباط اخر الاية بمضمونها : " ارتباطا واقعيا " يقول الله سبحانه:

"وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا و ينشر رحمته وهو الولي الحميد " (الشورى / ٢٨ . (

فالولي الذي يحب عباده ينزل عليهم الغيث ، و الحميد ينشر عليهم رحمته ، فهناك علاقة وثيقة بين الولاية و نزول الغيث و الحمد و نشر الرحمة.

وكانت العرب ترى وجود هذه العلاقة و تستنبط منها أشياء و أشياء.

فمرة سمع اعرابي رجلا يتلو آية هكذا:

"و السارق و السارقة فأقطعوا ايديهما جزاءا بما كسبا نكالا من الله و الله غفور رحيم "فقال له : أخطأت ! قال : وكيف ؟ قال : ان المغفرة و الرحمة لا تناسبان قطع يد السارق ! فتذكر الرجل الاية وقال:

"و الله عزيز حكيم "

فقال الاعرابي : نعم ، بعزته اخذها و بحكمته قطعها.

انه عرف كيف يجب ان تكون نهاية الاية متناسبة مع بدايتها ، من ناحية العلاقة الواقعية.

العلاقة التربوية
التدبر و الواقع الخارجي
التدبر و التطبيق القرآني

اكبر فائدة يغتنمها المتدبر في كتاب الله هي تزكية نفسه و بناء شخصيته . حقا اننا لا نكون ذوي شخصية مثالية من الولادة ، و حقا ان تربيتنا كانت منطوية على الكثير من السلبيات ، فمن يا ترى مسؤول عنا بعد ان كبرنا ؟ ومن ذا يخسر ان بقينا هكذا ؟ من المؤكد اننا بحاجة الى تربية ، ولكن من الذي يربينا ؟ القرآن افضل وسيلة لتربية نفوسنا ؟ لذلك وجب ان يعرض كل شخص نفسه على القرآن ، ليعرف انحرافاته.

و العقبة التي تعترض طريق التربية الذاتية ، قد تكون عدم اقتناع الفرد بانه المعني بالتوجيه ، بل يزعم كل شخص ان غيره فقط هو المقصود ، اما هو فيجعل نفسه مقدسا عن شمول

التعاليم له ، هنا لابد ان يتجاوز الفرد هذه العقبة بالايحاء الذاتي بأنه معني مباشرة بهذه التعاليم ، وان كل قصة يجد مثالها في نفسه اذا عمل ما عمله بطل القصة ، وان كل مثل يجد تطبيقه في ذاته اذا جسد مغزاه ، وان كل ثواب سوف يناله هو ، ان عمل الخير وان كل عقوبة ستحيط به ان اقترف خطيئته وهكذا يجعل نفسه تدور عليه آيات الكتاب ليتمكن من تربية ذاته و تزكيتها.

من هنا جاء في الحديث ، عن الامام الصادق عليه السلام كان اصحاب محمد صلى الله عليه واله وسلم . " يقرأ احدهم القرآن في شهر واحد او اقل ان القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلا واذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها و أسأل الله تعالى الجنة ، واذامررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار " (١)هذا عن الثواب والعقاب ، اما عن القصص التأريخية فكيف يمكن تزكية النفس في ضوئها.

يقول الامام الصادق (ع: (

"عليكم بالقرآن فما وجدتم اية نجا بها من كان قبلكم فخذوه وما وجدتموه مما هلك بها من كان قبلكم فاجتنبوه " (٢)بهذه الكيفية نستطيع كشف الانحرافات التي تنطوي عليها نفوسنا ، لكي نستعد لتقويمها بالقرآن . كما نقدر على فهم الايات بصورة اشمل واعمق اذ ان ازدواج القانون (الموجود في القرآن (بتطبيقه على النفس (باعتبارها الموضوع الخارجي للقانون) انه افضل وسيلة لفهمهما معا.

(1)المصدر / ص ٤٤

(2)المصدر / ص ١٠

موجز لمنهج التدبر في القرآن
سورة الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة
الحمد مجمل معارف القرآن
تفسير البسملة
][1]بسم الله الرحمن الرحيم[

بماذا نفكر و نصمم و نعمل ؟ اليس بقوى و طاقات ؟ من يملك تلك القوى ومن يمدنا بتلك

الطاقات او ليس هو الله ؟ اذا فكل قوة نفكر او نصمم او نعمل بها ، هي آية من آيات الله و اسم من اسمائه الحسنى ، يجب علينا ان نقول : بأسم الله قبل كل موجة تفكير و ومضة ارادة و حركة عمل . انه الله الذي خلقنا و هدانا ، فبأسمه نبتدىء كل شيء لان كل شيء هو في الواقع اسم من اسمائه وآية من آياته الكبيرة.

و اسماء الله كلها مظاهر رحمته ، و رحمته واسعة و مستمرة . و نعبر عن الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء بـ (الرحمن) كما نعبر عن الرحمة الدائمة ، التي لم تزل ولا تزال ولن تزول في المستقبل بـ) الرحيم. (

وسوف تتجسد رحمة الله الدائمة في اليوم الاخر بجنات واسعة يختص بها المؤمنون . اما في الدنيا فهو يرحم الجميع ، المؤمنين و الكافرين . ولا بد ان نخلص له العبادة و نتوجه اليه وحده في كل صغيرة و كبيرة و نستعين به.

وارد الحمد

[2]حين نحمد الله و نذكره بالصفات الحسنى التي فيه والتي تتجسد عمليا في نعمه الكبيرة و الكثيرة علينا و ابرزها نعمة العناية الجسدية و الروحية ، التي جعل الله بها الانسان اكرم و افضل من كثير ممن خلق ، ولكن هذه التربية لا تخص الانسان وحده ، اذ ان كلالاحياء ينعمون بتربية الله ورعايته لهم ، منذ نشوئهم وحتى الممات .. فالنبات يتلقى نعمة العناية من قبل الله . متجسدة في اشعة الشمس التي لا تنقطع عنه ، وماء السماء الذي يصب عليه صبا ، واملاح الارض ، والرياح اللواقح .. و..

و البر و البحر و الجبال و الكواكب و النجوم و المجرات و. و . كلها تنعم بعناية الله و رعايته الدائمة .

اذا لنقف خاشعين امام الله ، الذي شملنا بعنايته نحن و العالم الذي من حولنا ، ونقول:

]الحمد لله رب العالمين[

[3]و الصفة الثانية التي نحمد الله عليها و نذكره بها هي الرحمة الواسعة و الدائمة فهو.

]الرحمن الرحيم[

[4]بيد ان نعم الله ليست عبثا و بلا حكمة . انها تهدف تربية الانسان و اختباره . ومن ثم جزاءه على الحسنى او السوء . فهو بالاضافة الى رحمته الواسعة و الدائمة ، حكيم سريع الحساب شديد العقاب لابد ان نخشاه ونتقي عذابه و نعمل بجد من اجل الحصول على مرضاته، لانه.

]مالك يوم الدين[

يوم الجزاء الاكبر . وحين يملك الله يوم الدين ، يملك الجنة و النار و الميزان و الحكم بالجنة او

النار . وهذا التعبير يبدو افضل من التعبير بـ (مالك يوم الدين) ، ذلك لان الملك قد لا يملك في دولته الا شيئا واحدا فقط هو الحكم و السلطة . بينما الله يملك السلطة و يملك كل الاشياء حتى الاشخاص الذين يحكم عليهم.

[5]واذا كان الله رب العالمين ، و الرحمن الرحيم ، و مالك يوم الدين . فلابد ان نخلص له العبادة و نتوجه اليه في كل صغيرة و كبيرة و تستعين به..

]اياك نعبد وإياك نستعين[

اي نعبدك وحدك و نستعين بك وحدك . وهذه الفكرة ذات اتجاهين (ايجابا و سلبا. (

الاول :اننا نتوسل بالله و نوثق معه علاقاتنا ومن ابرزها الاهتداء الى تنفيذ اوامره وتنفيذها ، مما يساعدنا على تجاوز كل محنة و تحقيق التطلعات.

الثاني : اننا لا نتوسل بغير الله ، حتى لا نصبح اتكاليين و ذيولا لاخرين تفرض علينا وصايتهم ، وبالتالي يستعبدوننا.

وعندما نتعمق قليلا في معنى هذه الاية نجدها تلخص فلسفة الحرية الانسانية بصورة متينة.

مادام لله الاسماء الحسنى والتي منها ضمان حرية الانسان دعنا نترك اذا الاصنام التي تعبد من دون الله لانها لا تتصف بشيء من تلك الصفات ، فلا هي رب ولا رحمان ولا تملك جزاء.

[6]و حين نترك الاصنام الصامتة (كالحجارة) او الناطقة (كالذين يعبدون من دون الله) آنئذ نكون على الصراط المستقيم.

ولكن ليس بهذه السهولة نستطيع ان نحقق الاستقامة ، لان التخلص من الاصنام مهمة صعبة للغاية . وعلى الانسان ان يضع امامه هدفا صعبا ليحققه في الحياة هو) الاستقامة) ويسعى من اجل تحقيقه بجد و مثابرة ، وذلك عبر ثلاثة مراحل:

المرحلة الاولى : التصميم على الاستقامة . ولن يكون التصميم على الاستقامة جادا الا اذا عرف الانسان ان في الحياة طرقا شتى لا تؤدي به الى اهدافه المنشودة . وان هناك طريقا واحدا فقط هو الذي يوصله اليها . و عرف ان التعرف على هذا الطريق و السير فيه هو منواجباته التي عليه ان يسعى لتأديتها ، وليست من نعم الله الطبيعية عليه ، ليست مثلا كنعمة البصر ، حيث يولد الطفل بصيرا . ولهذا فاننا ندعو الله ان يمنحنا الاستقامة ونقول.

]اهدنا الصراط المستقيم[

وهذا الدعاء دليل على ان الله لا يمنح الاستقامة الا لمن يطلبها منه.

[7]وقد لا تكون الاستقامة ابدية ، اذ ان عواصف الشهوات و امواج الضغوط الاجتماعية والحواجز النفسية ، و وساوس الشيطان ، تلعب بقلب الانسان كما تلعب الاعاصير بريشة طائرة . من هنا على الانسان ان ينتظر نعمة الله حتى تظل الاستقامة دائمة ومن هنا قال الله:

]صراط الذين انعمت عليهم[

اي بنعمة الهداية التي تؤدي طبيعيا الى الانتفاع بسائر نعم الله.

وما دامت الاستقامة نعمة توهب وقد لا توهب للانسان ، فعليه ان يظل يقظا كلما ابعدته عوامل الانحراف عن الخط ، عاد اليه بفضل وعيه و ثقته بالله ، و بتصميمه على الاستقامة في الحياة حتى يأتيه اليقين.

وعلينا ان نعرف ان الله يجسد الصراط المستقيم في اشخاص ، اذ ان الايمان لا بد ان يكون له رصيد واقعي لئلا يتحول الى افكار مجردة ، ربما لا تكون قابلة للتطبيق.

]صراط الذين انعمت عليهم[

من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن اولئك رفيقا.

اما المرحلة الثانية فهي تحديد دواعي الانحراف التي تضغط على الانسان باتجاه الانحراف او تضغط عليه لكي يختار بوعي و عمد طريق الانحراف.

مثل حب الشهوات من النساء و البنين و الكماليات و التفاخر و حب السلطة.

ان اكثر الناس ينحرفون عن الاستقامة بشهواتهم لانهم يستسلمون لضغوط الشهوات . هؤلاء يغضب الله عليهم ، و يسلب منهم نور الفطرة و وهج العقل فاذا بهم في ظلمات لا يبصرون ، لذلك يدعو المؤمنون ان تدوم لهم نعمة الهداية فيكونوا مستقيمين.

]غير المغضوب عليهم[

ممن تعمدوا الانحراف فسلب الله منهم نعمة الهداية فظلوا منحرفين الى الابد.

المرحلة الثالثة : التخلص من عوامل الانحراف الجبرية التي تدفع الانسان الى الانحراف من دون وعي ولا تصميم ، وذلك مثل الجهل والغفلة و النسيان ، حيث انها من عوامل الضلالة التي يجب التخلص منها هي الاخرى حتى تتم الاستقامة.

و كثير من الناس ينحرفون لجهلهم بالدين وبما فيه من سعادة وخير . مثل اكثر الشبيبة الذين ابتعدوا عن قيم الله ، يمينا او يسارا ، و ضحوا من اجل مبادىء فاسدة تضحية صادقة ، هؤلاء هم الجهلاء لانهم لو عرفوا الدين الصحيح لما توانوا عن التضحية من اجل المبادىء. كذلك المؤمنون الذين يقعون في الذنوب في ظروف معينة ثم يتوبون من قريب . هؤلاء تقودهم الغفلة و النسيان .لذلك يدعو المؤمنون الصادقون ان يهديهم الله الى الصراط المستقيم ولا يجعلهم من (الضالين. (

]ولا الضالين[

ان التخلـص مـن الضلالة اللاواعية لا يكون ال ابعد التخلص من الانحراف الواعي ، اذ ان نور الله لا يدخل قلبا متكبرا معاندا مصمما على الانحراف ، لذلك نجد القرآن يأمر بالتخلص من غضب الله اولا ، ثم يأمر بالتخلص من الضلالة.

وكلمة اخيرة .. ان سورة الحمد بآياتها السبعة ، هي خلاصة لرؤى الاسلام و بصائره في الحياة .واما التفصيل فنجده في القرآن كله.

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الله الى رسوله (ص: (

"اعطيـت لك ولامـتك كـنزا مـن كنـوز عرشـي فاتحـة الكـتاب وخاتمة سورة البقرة "(بح / ج٨٩ / ص ٢٦٣(

وقال الصادق (ع: (

"من قرأ البقرة وآل عمران جاءتا يوم القيامة تظلانه على رأسه ، مثل الغمامتين ، أو مثل العباءتين "(بح / ج ٨٩ / ص ٢٦٥(

لاطار العام

الاسم اولا

الف :ماذا تعني كلمة السور ؟ انها تعني الاطار المحدد للشيء ، و السورة تعني واحدة من الاطارات التي تحدد مجموعة افكار معينة ، و تعطينا في المجموع شخصية متفاعلة ، و ربما نستطيع ان نعبر عنها بـ (وحدة فكرية) قياسا على تعبيرنا بوحدة حرارية ، وحدة ضوئية، او أية

وحدة كمية اخرى.

وهذا اللفظ افضل من التعبير بـ (الفصل .. القسم .. البحث الاول و. . و (. .لان لفظ السورة لايدل على فصل القرآن بعضه عن بعض وتقسيمه أقساما مختلفة مما قد توحي بأفكار بعيدة عن حقيقة القرآن بل يدل على مدى التفاعل بين أفكار مجموعة آيات قرآنية تشكلها السورة الواحدة ، حتى اننا نستطيع ان نحددها باطار و نعتبـرها كوحدة فكرية مستقلة.

باء : البقـرة .. ذكـرت فـي هذه السورة ضمن قصة طريفة ذات عبرة اساسية (الآيات / ٦٧ - 74)من الطاعة و الثقة بالقيادة في حل المشاكل . وهي تنسجم مع الخط العام لهذه السورة.

الاطار العام للسورة

عم تتحدث سورة البقرة ؟

قد تواجهنا صعوبة في الاجابة على هذا السؤال ، ولكن يمكن ان نقول بما ان مطلع السورة يقسم الناس ثلاثة : المسلم ، و الكافر ، و المنافق ، و تتحدث السورة بعدئذ عن هذه الانواع باسهاب ، ثم مع التركيز على صفات المؤمن ، نستطيع القول بأن الخط العام للسورة هوارساء قواعد الشخصية الايمانية ، سواء في مستوى الفرد المؤمن او الامة المؤمنة.

ومن هذا المنطلق تتحدث السورة عن بني اسرائيل ، وعن قصة البقرة ، وعن الانحرافات التي وقعت في هذه الامة المؤمنة . حيث جاء القرآن يحذر المؤمنين منها . ومن هذا المنطلق ايضا تتحدث السورة بعدئذ عن واجبات المؤمن (الفرد ، الامة (مبتدء اياها بالقبلة (رمزالوحدة و صبغة الشخصية المؤمنة) ثم الحج (رمز الوحدة و العبادة) ثم القصاص ، ثم الصيام و.. و ..

و ذكرت في هذه السورة كلمة تستطيع ان تعبر بوضوح عن الخط العام لهذه السورة هي كلمة (صبغة) في قوله سبحانه وتعالى : {صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ} فهذه السورة تحدد الصبغة الايمانية في كافة انشطة المؤمن.

و بالرغم من ان سور القرآن الاخرى تتحدث عن صبغة الله ايضا ، ولكن تلك السور تركز في الحديث عن جوانب من هذه الصبغة ، بينما تتحدث هذه السورة عنها بوجه عام وبشكل يترابط فيه ظلال هذه الصبغة لتكون صورة متكاملة امامنا.

كيف يقسم القرآن البشر ؟

هدى من الآيات

تتحدث هذه الايات عن ثلاثة نماذج بشرية ، و تعطي رؤية واضحة عنها : ليختار القارىء واحدا من النماذج عن بصيرة نافذة وعلم.

وهذا التقسيم طبيعي للاسلام باعتباره فكرة جديدة لا تعترف بالتقسيمات الموجودة بين الناس (الاقليم و اللون و اللغة و العشيرة و العنصر) التي أتت بها المبادىء الوضعية.

ان الدين الجديد يطرح تقسيمات جديدة ليتخذ الناس مواقفهم حسب هذه التقسيمات.

ولا تزال الامة بحاجة الى الايمان بهذه التقسيمات و تجاوز سائر التقسيمات الخاطئة ، حتى تستطيع ان تكون اكثر قدرة على تطبيق مبادىء الدين الحنيف.

بينات من الآيات

[1]الم[

ما هي هذه الاحرف التي نراها في أوائل كثير من السور القرآنية ؟ وهل هي مفهومة لدينا ، أم انها كالمتشابه في القرآن ، لا يعلمه الا الراسخون في العلم . ام ان سرها مكنون عند الله ومن يطلعه على غيبه من رسول.

لقد اختلفوا في ذلك اختلافا كبيرا . ففي الوقت الذي زعم المتحكمون ؟ انه قبيح عند العقل ان ينزل الله سبحانه وتعالى آية لا نعرف معناها . و احتجوا على ذلك بان القرآن هدى ، و لسانه عربي مبين وقد أمر بالتدبر في آياته.

فـي ذات الوقـت نراهم يختلفون في معاني هذه الاحرف على احد و عشرين رأيا.

فهل الاختلاف دليل العلم ؟

ويبدو لي ان حال هذه الاحرف حال المتشابه ، وارى ان المتشابه من آيات الله مفهوم للراسخين في العلم ، وان درجات الناس في العلم مختلفة و درجات فهمهم كذلك للايات متباينة ، وكل من حوى علما بدرجة ، كان فيها راسخا وفي الاعلى منها غير راسخ وعليه ان يراجع الراسخين.

وعليه فان الاحاطة علما بكل معاني الكتاب وبكل ابعاد علم آية قرآنية ، غير ممكن . وعلينا ان نسلم لما نعلم وفيما لا نعلم نسلم لمن يعلم.

وفي هذه الاحرف لا يمكننا ان ندعي اننا سنعلم كل اسرارها ، كما لا يسعنا ان ننكر معرفة بعض الحقائق منها.

و نتساءل : اذا ما هي تلك الحقائق ؟

قبل الاجابة نذكر بأن للقرآن ظهرا و بطنا ، وان لتفسير آياته اوجها لا يرى الواحد منا الا بعضها فيزعم ان الاخرين على خطأ ، وقد يكون الجميع على صواب نسبي.

وهكذا قد تكون الكثير من الاقوال هنا صحيحة ، دون ان يعني ان غيرها باطل.

قالوا : الاحرف هذه اسماء للسورة التي فيها.

قالوا : انها اداة تنبه تشجع المستمعين لمتابعة الانتباه ، و التفكير فيها وفيما بعدها.

و قالوا : انها تدل على انقطاع معنى ما و استئناف كلام جديد.

و قالوا : ان الله اثنى على نفسه بها ، وانها اشارة الى اسمائه الحسنى ، حتى روي في الادعية مناجاة الرب بها حيث جاء (يا كهيعص) (يا حم عسق. (

و قالوا : انها احتجاج على العرب حيث ان القرآن تحداهم بكتاب الف من هذه الاحرف فلم يستطيعوا ان يأتوا بمثله.

و قالوا : انها قسم لانها مباني كتبه ، و وسائل النطق بين العباد ، او لم يقل ربنا : " نون و القلم وما يسطرون. "

وقالوا :انها معجزة البلاغة حيث لم يقصد العرب الاستفادة من هذه الاحرف هكذا من قبل وقالوا غير ذلك مما يرجع جزئيا الى بعض ما ذكرت.

ونقول بلى ولكن لا يعني اثبات رأي و نفي ما عداه.

كذلك لا بأس ان تكون الاحرف اسماء للسور ، وفي ذات الوقت تشعر بانتهاء فصل قرآني وبداية فصل اخر ، وتكون ايضا تذكرة وتنبها تحرض الفكر و تثير دفينة العقل وسبات الضمير وتكون اشارات لاسماء الله ، اذ ان اظهر شيء في السماوات و الارض هي اسماء الله ، و الاحرف تشير اليها قبل غيرها . فإشارة الالف الى لفظ الجلالة (الله) اوضح من اشارته الى الاسد مثلا . واذا كانت اشارة الى اسماء الله الحسنى فان القسم بها مناسب جدا . ومع ذلك فانها اعجاز قرآني ، بدأ العرب بشيء جديد لم يعهدوا مثله.

و فوق ذلك ان فيها اسرارا سوف يكتشف الانسان بعضها مع تقدم المعرفة.

وهكذا تكون هذه الاحرف اشارات بين الرب وبين من ارتضاه لغيبة.

وجاء في الاثر:

- 1في تفسير الامام ان معنى الم : " ان هذا الكتاب الذي انزلته هو الحروف المقطعة التي منها الف لام ميم ، وهو بلغتكم و حروف هجائكم فاتوا بمثله ان كنتم صادقين " (١)٢ - القمي عن الباقر (ع) : " هو حرف من اسم الله الاعظم المقطوع يؤلفة الرسول و الامام عليهما السلام فيكون الاسم الاعظم الذي اذا دعي الله به اجاب " (٢)(١) تفسير الصافي ، المولى محسن

الفيض الكاشياني / ج١ / ص ٩١(٢) المصدر / ج٤ / ص ٣٦٦

- 3روي عن الامام علي (ع (انه قال : " ان لكل كتاب صفوة و صفوة هذا الكتاب حروف التهجي " (١)٤ - وفي حديث شريف عن الامام ابي جعفر الباقر (ع) انه قال : " يا أبا لبيد ان لي في حروف القرآن المقطعة لعلما جما " (٢(

القرآن هدى

اركان الايمان

هدى من الآيات

بعــد ان قسم القرآن الناس الى ثلاث فئات ، عاد ليتحدث لنا بالتفصيل عن صفات المؤمنين ، و يميزها تفصيليا عن صفات المنافقين ، ولكن قبل ذلك فانه لابد من التذكير بأركان الايمان وهي الايمان بالله و بالرسالات و باليوم الاخر ، وهو ما نجده في هذه المجموعة منالآيات.

بينات من الآيات

[21]الايمان بالله يتجسد في عبادته ، و عبــادة الله تنــتهي بالانسان الى درجة المتقين (الذين استهل القرآن هذه السورة بذكرهم) ولكن لماذا نعبد الله ، ولا نعبد اباءنا ؟

الجواب : لانه خلقنا و خلقهم فهو ربنا جميعا . فلماذا نجعــل الابــاء واسطة بيننا وبين ربنا ، مادامت علاقتنا نحن به هي ذاتها علاقة ابائنا به سبحانه اذا لا خضوع للاباء.

]يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون][٢٢] و سؤال آخر لماذا نعبد الله و نخضع لاوامره ، ولا نعبد الحياة وهي التي تتصل بنا مباشرة . فهي تعطينا الرزق و الروعة و القوة ؟

الجواب : لانه هو

]الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم]هو اولا خلق الحياة بشكل استطعنا ان نستفيد منها . فلو كانت الارض كلها من الحديد كيف كنا نعيش عليها ، وكيف نبني و نزرع و نفتح الطرق ..و.. و .. ولو كانت السماء متهاوية تسقط علينا من هذه النيازك الكثيرة التي تجول في ارجائها . هل كنا نعيش ؟!

ثــم جعل السماء تنزل علينا الماء ، وجعل الارض تنبت الوانا من الزرع رزقا لنا ، ثم بعد كل ذلك نذهب ونعبد غير الله ؟! حاشا!

]فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون[

[23]كيف نعبد الله ؟

باتباع رسله ، وهذا الرسول بالذات لانه جاء بمعجزة القرآن . ويسألنا : هل تستطيعون ان تأتو بمثله اذا يجب اتباعه لان اتباعه تجسيد لعبادة الله.

]وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين]و بالطبع سوف يشهد الجميع حتى اولئك الشهداء البعيدون عن الله ، سوف يشهدون على ان القرآن افضل مما اوتي به من قبله . وآنئذ دعوا الشك جانبا و اخضعوا للرسول .

وهذه هي الرسالة ثانية العقائد الاسلامية و الحلقة المتصلة بالتوحيد العقيدة الاسلامية الاولى .

] [24]فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي و قودها الناس و الحجارة اعدت للكافرين]هناك الجزاء الاول حيث يعاقب الكافرون بهذه النار العظيمة التي تلهب الناس و الحجارة.

[25]اما المـؤمنـون بالله و برسالاته فانهم في جنات فيها كل نعم الحياة و زيادة.

]و بشـــر الذيـــن آمنوا و عملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار]فهي منطقة مزروعة فيها روعة الاشجار و جمال الانهار وفيها نعم الحياة.

]كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل و اتوا به متشابها. [

فهي من جهة - رزق رزقوا به في الدنيا - وهي من جهة ثانية تشبه الى حد بعيد ما رزقوا به هناك في الاخرة لانها كلها عظيمة اللذة فهم لا يكادون يكتشفوا الفرق بين رزق و رزق.

وهم هناك منعمون نفسيا.

]ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون[

فلا يخشون الفناء و يتمتعون بلذة حب البقاء وهذه هي العقيدة الثالثة بعد الايمان بالله و رسوله

الشخصية الانسانية كيف يجب ان تكون ؟

هدى من الايات

حدثنا القرآن الحكيم عن فئات الناس . ثم ذكرنا بالايمان و اركانه الثلاثة . والان دخل صلب الموضوع وهو تحليل شخصية الانسان وما ينبغي ان تكون عليه شخصية الانسان الفرد و الانسان الجماعة (الامة. (

قصة الخلق الاول

يبدأ القرآن بالحديث عن الانسان الفرد في هذه المجموعة من الآيات ولكنه لا يتحدث عنه

بصورة مرتبطة بالمفاهيم العامة ، بل بصورة رمزية مستوحاة من قصة حقيقية مرتبطة بالواقع الحي . انها قصة الخلق الاول التي يفصلها الله في ثلاث مراحل:

اولا : يتحدث عن منهج التفكير الايماني وعن الاسباب الواقعية التي تدعوا الى الكفر بالله (الآيات / ٢٦ - ٢٧. (

ثانيا :عن خلق الله للحياة و للعالم . و خلق الله للانسان تزويده بالعلم و تحميله مسؤولية الاختيار بعد ان زوده بالارادة ايضا . ثم قصة الخطيئة الاولى حيث يوجزها القرآن هنا و العوامل المؤدية اليها..

ثالثا : عن ان الانسان الـيوم مزود ايضا بالعلم والارادة وعليه ان يتحمل مسؤولية اعماله.

وهذه بالطبع عبرة القصة السابقة . وخلال عرض القرآن هذه المراحل ، يكشف لنا عن حقائق كبيرة اخرى.

بينات من الآيات

[26]اخطر شـيء يهـدد قدرة الانسان على التفكير السليم هو الاستياء وهو حالة نفسية . تسجن العقل في زنزانة الذات و تصور له ان الفكر الصحيح و الرأي السليم هو ما يصنعه خيال الانسان نفسه ، وان الحياة لا عبرة فيها ولا معرفة . وهناك يستكبر الانسان على تعلم التجارب الجديدة وعلى الاستفادة من تجارب الاخرين او الانفتاح على معارفهم و علومـهم . ولكـي يصور لنا هذه الحالة و اثرها السلبي في قدرة الانسان على التفكر السليم ، يحدثنا عن قصة البعوضة انها صغيرة و متواضعة ولكنها قد تعلمنا اشياء كثيرة .

فاذا استكبرنا وقلنا ما قيمة البعوضة حتى نتعلم منها ، فأننا سوف لا نفهم شيئا الى الابد واذا طرحنا المسألة بشكل اخر و قلنا نحن جهلاء و العلم ينفعنا وما يضرنا لو اخذنا العلم من هذه البعوضة.

ولكن كيف ولماذا يستكبر البعض فيضلون وينحرفون ؟

الجواب ..ان سبب الضلال ، هو الفسق ، فالفاسق الذي لا يراعي حقوق الاخرين بل يحاول عبادة ذاته ، و التطواف حول مصالحه يدور معها اينما دارت ، هذا الفاسق هو الوحيد الذي يستكبر ، لانه لا يستطيع ان يرى الاخرين . لا يرى الا نفسه فقط وكأنها الوحيدة في العالم . فكيف يقدر على الانتفاع بتجارب الاخرين وهو لا يؤمن اساسا بوجودهم.

من هنا يربط منهج القرآن في العلم بين طائفة من الاخلاق وبين العلم - حسبما نشرحها في الآية التالية.

اما هذه الاية فتقول:

]ان الله لا يستحي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها]فمادام الله يحترم البعوضة ولا يستحي ان يضرب مثلا بها ، لانها تمثل جانبا من الحق ، و الله لا يستحي من الحق . فمادام الله ربنا لا يستحي ، فلماذا نستكبر - نحن البشر - على الاستفادة من البعوضة فما فوقها.

]فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم[

لانهم آمنوا ، ولانهم يقدسون الحق انى وجدوه حتى لو وجدوه في البعوضة الصغيرة.

]وأما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا]وكأنهم يستهزؤون بالبعوضة و يستصغرون شأنها ، يقول الله : كلا ان هذه البعوضة يمكن ان تكون موضع ابتلاء فتشكل خطا فاصلا بين طائفتين كبيرتين من الناس.

]يضل به كثيرا و يهدي به كثيرا[

الذين يؤمنون يستفيدون من البعوضة لانهم يقدرون الحق و يقدسونه . واما الكافرون فيستكبرون فيتوغلون في الكفر.

]وما يضل به الا الفاسقين[

من هم الفاسقون ؟ في الآية التالية شرح لذلك.

[27]للفاسقين صفة نفسية واحدة . هي عبادة الذات . ولها مظاهر عملية كثيرة ابرزها ثلاثة:

الف : نقض العهد:

]الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه[

فهم لا يحترمون عهد الله و يضعون انفسهم فوق العهد المقدس.

باء : [و يقطعون ما امر الله به ان يوصل[

فلا يؤدون حقوق الناس من القربى و اليتامى و المساكين وغيرهم ، ولا يحترمون حرمات الناس التي يجب ان تراعى ، بل يدوسون عليها سعيا وراء مصالح ذواتهم و شهوات انفسهم.

جيم : [و يفسدون في الارض[

فلا يحترمون الحياة ابدا . فقد يحرق حقلا كاملا لكي يتمتع لحظة واحدة بمنظر النار تلتهم رزق الملايين . ان هذه الفئة لا تحترم الله ولا الانسان ولا الطبيعة .لانها لا ترى قدرا يغير ذاتها . وهؤلاء هم الذين يضلهم الله ، لانهم وضعوا انفسهم في معتقل انفسهمفلم يبصروا الا مصالحها . فكيف يمكن ان يفهموا الحياة ، هل يستطيعون ان يخدموا انفسهم بهذه الطريقة كلا ، بل:

]اولئك هم الخاسرون[

سرعان ما يلعنهم الله و الناس و تلفظهم الطبيعة لفظا.

[28]عبادة الذات خطأ . لانها تؤدي ببساطة الى الجهل و الخسران ، بينما كان يجب ان ينطلق الانسان في تقييمه للحياة ، وفي عمله فيها من نقطة اخرى هي الايمان بالله . لان الله في الواقع هو الذي خلق الذات ، و خلق الحياة ، وهو ربهما الاعلى.

]كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم[

متى وكيف وبماذا احيانا الله لايهمنا ذلك انما الذي يهمنا الان اننا كنا في التراب الميت . في الماء وفي الهواء فاصبحنا الان احياء.

]ثم يميتكم ثم يحييكم[

عند البعث الاكبر.

]ثم اليه ترجعون[

للحساب.

[29]ولم يتركنا بعد الحياة عبثا انما شملت رحمته كافة جوانب حياتنا.

]هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا[

خلقــها و خلقــنا بشكل نستطيع ان نسخرها في خدمتنا . اوجد المعادن في الجبال ، و اعطانا القدرة علــى تحويلــها الى ادوات في سبيل راحتنا . و خلق ينابيع الماء ، و منابع النفط ، و مناجم الفحم ، ومعادن الذهب و النحاس في باطن الارض ، و اعطانا القدرة على استخدامها .. فكيف نعبد انفسنا ولا نعبد الله .دعنا نخرج من ذواتنا ، و نعيش مع ما خلق لنا الله في الارض.

]ثم استوى الى السماء[

و توجه اليها بقدراته الواسعة.

]فسواهن سبع سماوات[

سماوات عديدة لا نعرف عنها الا قليلا..

]وهو بكل شيء عليم[

فانــه قديــر و عليم ونحن ضعفاء و جهلاء ، دعنا اذا نعبده لنكتسب القدرة و العلم .هذه القدرة و العلم هما الميزتان الرئيسيتان للانسان.

كيف كان ذلك ؟

في الآيات التالية قصة ذلك.

كيف خضعت الطبيعة للانسان ؟

هدى من الآيات

في حوار جرى بين الله وبين ملائكته ، نجد ان الملائكة اعترضوا على الله و تساءلوا لماذا يخلق الانسان ، وقالوا انه سوف يقوم بالخطيئة فعرفهم الله الحقيقة وكيف يحمل الانسان العلم و القدرة ، وهما ميزتان كافيتان حكمة و هدفا لخلق الانسان.

بينات من الآيات

[30]لنستمع الى ذلك الحوار الملهم:

]واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك و نقدس لك. [

ماذا تعني كلمة الخليفة ؟ يبدو ان الارض كانت مسكونة فأبيد سكانها فأراد الله ان يجعل فيها من يسكنها من خلفهم ، اي من بعدهم وكذلك فان الكلمة لا تعني ان الانسان خليفة الله اي نائب الله و وكيله في الارض ، اذ ان الله لم يمت حتى يخلفه احد.

ولكن كيف عرف الملائكة : ان الانسان سيفسد في الارض ، هل عرفوا ذلك بالقياس الى سكان الارض من قبل الانسان ؟ ام لانهم اكتشفوا ذلك بعد ان عرفوا طبيعة الانسان المزودة بالعقل و الشهوات ، لا ندري المهم انهم اعترضوا على الله ، لانهم زعموا ان الله لا يخلق الخلق الا لكي يقدسوه و يسبحوا بحمده . فقال لهم الله : كلا.

]قال اني اعلم مالا تعلمون[

] [31]و علم ادم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين][٣٢] [قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم][٣٣] [قال يا ادم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات و الارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون]خلق الله ادم و حمله علما ، فعرف الملائكة ان حكمة الخلق ليست هنا الطاعة وحدها ، بل الطاعة بعلم و وعي فسحبوا اعتراضهم.

ولكــن ما هي الاسماء التي علمها الله لادم ؟ هل هي اسماء مجموعة من الناس ، ام مجموعة من الاشياء ؟ ربما تكون الاسماء في التعبير القرآني هي العلوم ، لان العلم لا يصل الى الحقيقة الاشياء بل يكشف خصائصها و علائمها) اسمائها) فقط لذلك عبر القرآن عن العلوم بالاسماء . ولكن لماذا قال الله اسماء هؤلاء ولم يقل اسمائها او اسماء هذه ، اشارة الى اشياء الطبيعة ؟ في بعض النصوص : ان كلمة هؤلاء اشارة الى النبي محمد وآله ، عليه وعليهم صلوات الله و سلامه ، باعتبار ان الرسول و خلفاءه هم الصفوة المختارة من ابناء آدم (ع) وبالتالي موضع تجلي حكمة الله من الخلق . اوليس رسولنا الاكرم آية عظمة الله وهكذا خلفاؤه المعصومون وهناك رأي آخر هو ان الآية تشير الى الملائكة انفسهم - و الملائكة بدورها مهيمنة على قوى الطبيعة - و معرفة اسماء الملائكة تعني العلم بخصائص الاشياء وعلامات قوى الطبيعة.

وحين قال الملائكة سبحانك ، عبروا عن مدى تقديسهم لله وانه وحده الكامل اما هم فضعفاء ولا علم لهم.

ولعل في الآية الآخيرة دلالة على ان الملائكة كانوا قد اضمروا اشياء اخر وراء اعتراضهم . ربما اضمروا نوعا من الحسد - تجسد بعدئذ في ابليس حين استكبر عن السجود - ولذلك قال الله سبحانه:

]و اعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون[

وفي القصة كلها رمز آخر لابد ان نفصل القول فيه:

ان الملائكة هي المخلوقات الموكلة بالحياة فهناك ملائكة الرحمة وهناك ملائكة الغضب و ملائكة المطر و البحر و السحاب . و سجودهم لآدم (عليه السلام (هو رمز تسخير الطبيعة له .

وهناك احاديث تدل على وجود ملائكة موكلين بالطبيعة نذكر فيما يلي طائفة منها:

- 1في المناقب و تفسير القمي يروي صاحب تفسير الصافي عنهما في تفسير هذه الاية " له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله " فيقول : من ان يقع في ركي (ركي : البئر و جمعه ركايا) او يقع عليه حائط ، او يصيبه شيء حتى اذا جاء القدر خلوا بينه ، و بينه يدفعونه الى المقادير ، وهما ملكان يحفظانه بالليل و ملكان بالنهار يتعقبانه (١)٢ - في قوله : "

و يسبح الرعد بحمده (الرعد / ١٣) روي عن النبي (ص) انه سئل عن الرعد ، فقال " : ملك موكل بالسحاب " (٢)٣ - القمي عن الصادق (ع) : " ان أمير المؤمنين (ع (سئل عن : الذاريات ذروا ، قال : الريح ، وعن الحاملات وقرا ، قال : السحاب ، وعن الجاريات يسرا ، قال : هي السفن ، وعن المقسمات امرا ، قال : الملائكة " (٣)٤ - عن الرضا (ع) في قوله فالمقسمات امرا ، قال " : الملائكة تقسم ارزاق العباد بين بني آدم ، ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، فمن نام فيما بينهما نام عن رزقه " (٤)٥ - عن أمير المؤمنين (ع) في حديث طويل يصف الملائكة ويعدد الحجب قال : " كل حجاب منها سبعون الف ملك ، قوة كل ملك قوة الثقلين ، منها ظلمة ، ومنها نور ، و منها نار ، ومنها دخان ، ومنها سحاب ، ومنها برق ، ومنها مطر ، ومنها رعد ، ومنها ضوء ، ومنها رمل ، ومنها جبل ، ومنها عجاج ، ومنها ماء ، ومنها انهار .." (٥)وهناك احاديث كثيرة تتحدث عن الحفظة ، ملائكة الليل و النهار ، ملك الموت ،(١) تفسير الصافي / ج ٣ / ص ٦١

(2)نفس المصدر / ج ٥ / ص ٦٧

(3)المصدر / ج٥ / ص ٦٧

(4)المصدر

(5)المصدر

الرسل الذين يرسلون لنصرة المؤمنين ، و انزال السكينة عليهم . وهي تدل على ان الطبيعة وكل بها الملائكة . وهكذا سخر الله الطبيعة للبشر بعد ان زوده بالعلم و اسجد الملائكة لادم عليه السلام بسببه.

] [34]واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم[

السجود هنا رمز الخضوع كما كانت الملائكة موكلة بالقوى الطبيعية في الحياة . و امر الطبيعة ان تسخر للانسان فاستجابت كلها ، ولكن بعضها لم يستجب فما هو ذلك البعض يقول الله سبحانه:

]فسجدوا الا ابليس ابى و استكبر وكان من الكافرين]من هو ابليس ، ولماذا لم يسجد ، ولماذا استكبر ؟ في الايات التالية اجابة لهذه الاسئلة ولكننا نستبق السياق لنقول : ان لكل جانب من قوى الطبيعة ملكا موكلا به ، و الملائكة كلهم سجدوا لادم ، ومن خلالهم سخرت قوى الطبيعة كلها للانسان (بالعلم) ، ولكن هنالك ما وكل بقوة طبيعية لم يسجد للانسان ، وعلى الانسان ان يخضعه و ليضمن سجوده فمن هو ؟ وماذا يمثل من الطبيعة ؟

انه ابليس ، الموكل بطبيعة الانسان ذاته (النفس الامارة بالسوء. (

فاذا اخضع الانسان طبيعته التي وكل بها ابليس ، وجعلها تسجد له انئذ استطاع ان يسخر الحياة كلها.

بيد ان اكثر الناس يغفلون عن هذه الحقيقة فتصرعهم طبيعتهم ، ومنهم بالطبع ابونا آدم في قصة الخطيئة الاولى فلننظر كيف صرعته طبيعته ، و خدعه ابليسه ؟

] [35]وقلنا يا ادم اسكن انت و زوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين][٣٦] [فازلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه]ان ابليس ازل أبانا آدم و زوجه ، ولكن بماذا ، بتلك الطبيعة الموجودة عندهما ، فأخرجا من الجنة و ابعدا عن الطبيعة المسخرة لهما . وهكذا سوف يزل ابليس ابناء آدم ، و يبعدهم عن الجنة في الاخرة ، وعما سخر الله للانسان في الحياة من النعم . اذا اطاعوه.

ما هي هذه الشجرة التي نهى الله آدم عن الاقتراب اليها ، هل كانت شجرة التفاح ، ام العنب ، ام كانت الحنطة ، ام ماذا ؟ ليس المهم ان نفهم ذلك بل المهم ان نعرف العبرة من وراء القصة ، وهي : ان في الطبيعة اشياء تضر الانسان وقد نهى الله عنها ، وعلى الانسانان يبتعد عنها حتى يتمكن من الاستمرار في تسخير الحياة . ولكن ابليس يثير النفـس الامـارة بالسوء ، ولا يدع الانسان حتى يدفعه الى تلك الاشياء المنهي عنها الضارة . وهنا يطرح هذا السؤال:

كيف يخرج الانسان من جنة النعم حين يرتكب الخطيئة و يتبع الشيطان و النفس الامارة بالسوء ؟

الجواب هناك طرق شتى : ولكن ابرزها هبوط الانسان الى مستنقع الخلافات البشرية حيث يبدأ الناس بظلم بعضهم البعض.

]وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين][٣٧ [وفي مواجهة الصراع بين البشر بعضه مع البعض ، وفي مواجهة الطبيعة الشريرة المدعومة بأبليس في داخل النفس البشرية ، يصاب الانسان بالضعف و الجهل . وهنا تسعفه رسالات الله بالهدى ، فمن تمسك بهذا الهدى نجى ، ومن لم يتمسك ضل ضلالا مبينا.

اما ابونا آدم - عليه السلام - فقد تمسك به جيدا مما يثير بان المطاف سينتهي بانتصار الانسان على طبيعته الشريرة بفضل هدى الرب سبحانه.

]فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم]ماذا كانت تلك الكلمات لعلها كانت رسالة الله الى آدم حسب حاجاته و حاجات مجتمعه الناشيء ، وفي النصوص المأثورة : انها كانت اسماء النبي محمد (ص) وآله حيث دعا بهم آدم ربه فاستجاب له دعاءه.

[38]و اصبحت تلك سنة الله تعالى انه يبعث رسالته الى الناس لينقذهم من طبيعتهم الشريرة ومن صراعهم مع بعضهم..

]قلنا اهبطوا منها جميعا فأما يأتينكم مني هدى[

فعلى الجميع اتباع ذلك الهدى.

]فمن تبع هداي فلا خوف عليهم[

من المستقبل.

]ولا هم يحزنون[

للماضي.

] [39]و الذين كفروا و كذبوا بآيتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون [وهذه هي عبرة القصة كلها .. ان الله سخر للانسان ما في الارض بالعلم ، ثم سلط عليه ابليس ، و المنقذ من ابليس هو هدى الله فمن تبعه نجى ، ومن كفر و كذب به فان مصيره الى النار خالدا فيها . الا ان يتوب الى الله قبل فوات الاوان.

هل نكون من الشاكرين ؟

هدى من الآيات

بينات من الآيات

[40]اذا كان لابد من انقاذ الانسان من ضلاله قبل توجيه طاقاته الى الحياة ، وهذا الانقاذ هو اكبر نعمة لله عليه . من هنا قال الله لبني اسرائيل:

]يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم[

انها نعمة الهدى التي تؤدي بالطبع الى سائر نعم الحياة ، ولكن نعمة الهدى ومن ثم سائر النعم لا تبقى الا بعد التمسك بها ، و الوفاء بالتزاماتها . من هنا قال ربنا لبني اسرائيل:

]و اوفوا بعهدي اوف بعهدكم[

اي تمسكوا بالهدى ، اعطيكم سائر النعم.

ولكن الانسان قد يتنازل عن نعمة الهدى تحت طائلة الخوف من الطبيعة ، الخوف من الطواغيت . الخشية من ضياع الشهوات وهكذا..

ولكنه لا يعلم ان ابتعاده عن الهدى سوف يجره الى مصاعب اكبر مما يخشى منه ، ولذلك يذكرهم القرآن بالقول:

]و اياي فأرهبون[

لا تخشوا الطبيعة او الناس او الشهوات بل اخشون وحدي ، واذا زالت الخشية من الناس وتحرر الانسان من الخوف ، زالت العقبة الاساسية التي تعترض طريق الايمان ، ولكن تبقى عقبة العادة التي لابد من تجاوزها.

[41]اصعب ما يتعرض له المؤمنون من امتحان هو مقاومة العادة . المؤمن متعود على طريقة معينة من السلوك ، استنادا الى نصوص دينية جاءت في مرحلة معينة من مراحل الحياة ، ولكن تتبدل تلك المرحلة وتتبدل النصوص وفقا لذلك ، ولكن الفرد قد يظل اسير عاداته السابقة ، فعليه ان يبذل المزيد من الجهد حتى يقاوم عاداته السابقة و يلتزم بطاعة الله.

من هنا اخذ الله عهدا قاطعا من جميع الانبياء ، ان يصدقوا النبي الذي يأتيهم لاحقا و يتبعوه ، ولا تأخذهم في اتباعه انفة او عادة او عزة بالاثم . حاشاهم.

وفي هذه الاية يذكر الله بني اسرائيل بذلك ويقول:

]و آمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم[

اذ مادامت الرسالة واحدة و الهدف ليس تحقيق مصالح ذاتية ، بل طموحات انسانية عامة ، فلابد ان يسارع المؤمنون بالرسالات السابقة ، الى الايمان بالرسالة الجديدة ، والا فسوف يدفعهم التنافس الى ان يكونوا اول كافر بهذه الرسالة ، سعيا وراء كسب شارع المتدينين، و خوفا من فقدان قاعدتهم الايمانية . كذا حذر الله بني اسرائيل قائلا:

]ولا تكونوا اول كافر به[

وبين ان سبب الكفر المبكر بالرسالة قد يكون المصالح الذاتية فقال:

]ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا[

وقد يكون السبب الخوف من بعض اصحابهم من ذوي العقول المتحجرة لذلك قال الله لهم:

]واياي فاتقون[

اي اجعلوا تقواكم و خوفكم فقط مني ومن عذابي و بطشي.

[42]وبعد الكفر تبدأ سلسلة من عمليات التزوير و التحريف ، اولها خلط الحق بالباطل ، و كتمان جانب من الحق واظهار جانب آخر ، بحيث يثبت حجة اهل الباطل.

ان صاحب الرسالة يجب الا يخدع الناس فيظهر لهم الجوانب التي تبرر سلوكياته . و يخفي عنهم الجوانب التي تدين تصرفاته . وهذا ما سوف يقع فيه من لا يسارع الى اتباع الحق ، حيث حذر القرآن قائلا:

]ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون][٤٢] ولكي لا يفعل صاحب الرسالة هذه الجرائم ، عليه ان يتوكل على الله ، و يستعين به عن طريق الصلاة و الانفاق . ذلك لان التنازل عن المصالح الشخصية و الاستسلام المطلق للحق المتمثل في الرسالة الجديدة ليس سهلا ابدا ، بل هي بحاجة الى ما يدعمها من الصلاةو الزكاة . من هنا قال الله سبحانه:

]و اقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و اركعوا مع الراكعين]واذا كانت الصلاة لله فلماذا تختلف صلاة عن صلاة ، و معبد عن معبد ليجتمع الكل في صف واحد . ليركعوا لله الواحد الاحد ، و ليمنعوا عن رسالة الله كل مظاهر المادية المقيتة.

[44]اذا لم يسارع المؤمن بالرسالات السابقة الى الايمان برسالة الله الجديدة ، فانه يضطر الى ممارسة الرياء و النفاق ، و التظاهر بالتدين و التنسك و العمل بالاهواء ، ذلك لان الكفر بالرسالة الجديدة ، يجعله بلا دين حقيقي فيتظاهر بالتمسك ببعض القشورو ترك حقائق الدين من هنا حذر الله بني اسرائيل وقال:

]أتأمرون الناس بالبر و تنسون انفسكم[

بينما كان المفروض على هؤلاء اصحاب الرسالة ان يكونوا اكثر التزاما بالرسالة من غيرهم لانهم يعرفون الرسالة.

]وأنتم تتلون الكتاب[

وهل يكفي قراءة الكتاب .. بالطبع لا ، انما يجب التفكر فيه للاستفادة من جوهره ، وذلك هو العقل الذي ينبغي الوصول اليه.

]افلا تعقلون[

[45]كيف نحارب النفاق و التلون ؟ وكيف نقول بما نعمل و نعمل بما نقول و نتجاوز بالتالي المسافة بين الادعاء والواقع ؟ الجواب : بالارادة القوية ، ولكن كيف نقوي الارادة ؟ ان الارادة بحاجة الى تدريب حتى تقوى ، فهي كأي شيء في الانسان تنمو كلما استثمرها الانسان اكثر فأكثر ، العضلات تشتد بالرياضة و الاعصاب تقوى بمواجهة المشاكل ، و الفكر ينمو باستخدامه ، وهكذا الارادة تنمو كلما استفاد الانسان منها ، جرب ذلك وصمم على القيام

بعمل صعب ، انك سوف تجد صعوبة في ممارسته اول مرة ، ولكن كلما قمت به او قمت بامثاله قلت صعوبته.

و الصلاة افضل استثمار للارادة وبالتالي افضل وسيلة لتنميتها انك حين تصلي لله ، تقاوم الذاتية في نفسك و تحارب طبيعة التقوقع داخل زنزانة المصالح وبتعبير اوجز تحارب الشيطان بكل جنوده.

وحين الصلاة تهجم عليك وساوس الشيطان لتبعدك عن الاتصال بالله فتراك تركز نظرك في الله والشيطان يصرفك الى اي شيء اخر غير الله . الى الدراسة الى التجارة الى مشاكل البيت و..و.. ولا تزال في حالة حرب حتى تنتهي الصلاة وهكذا سمي محل اقامة الصلاة (محرابا)لانه فعلا موقع حرب.

وهكذا تكون الصلاة تجربة للارادة و ممارسة لها ، بالاضافة الى انها تقربك الى الله رب كل شيء مما يشيع في نفسك الثقة لمقاومة اسباب الضعف في الخوف و الرغبة.

و الصبر ومن مظاهره العملية الصيام وهو الاخر - تجربة للارادة - فهو يدع الانسان يتطلع للمستقبل ولا يفكر في حاضره فقط و الصبر بما يمثل من تطلع الى المستقبل بما فيها من ثقة بالله ، قوتان هائلتان يجب الاستعانة بهما.

]و استعينوا بالصبر و الصلاة[

لمقاومة ضعفنا الداخلي ، ولكن الاستعانة بالصبر و الصلاة ، صعبة هي الاخرى فكيف نصبر وكيف نصلي ؟ الجواب : علينا ان نخشع و نذلل غرور انفسنا و كبريائها الكاذب ، بالتفكر الدائم في الاخرة حيث نتصور انفسنا وقوفا امام الله في المحكمة الكبرى ، حيث " لاينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم . " ان الخشوع يدفعنا الى الصبر و الصلاة ، لذلك قال الله:

]وانها لكبيرة الا على الخاشعين[

[46]و الخشوع بدوره يأتي من (تصور) المعاد:

]الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون[

[47]لذلك يذكر الله بني اسرائيل بذلك اليوم الرهيب وبما انعم عليهم من الهدى ، والذي تسبب في ان يصبحوا افضل الناس اجمعين فيقول:

]يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين] [48][و اتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون]فاذا كانت الحياة الدنيا هي هدف الانسان ، فعليه ان يتذكر انه لن ينالها الا بالتمسك

بهدى الرسالة . واذا كانت الحياة الاخرة هي الهدف الاسمى ، فلابد ان نتقي يوما توضع فيه الموازين العادلة ، ليأخذ كل انسان جزاءه ، ولا يغني عنه احد شيئا ، ولا يشفع له) الا بإذن الله) ولا يقبل عنه بديل ، ولا يمكن ان ينصر الكافرون.

دور رسالات الله في بناء الحضارات

هدى من الآيات

لا تزال الايات تتحدث عن ذات الفكرة التي بدأها القرآن ، حين ذكر بان الذين يتمسكون بالرسالة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، و يقص علينا من حياة بني اسرائيل قصصا ، تدل على ان رسالات الله كيف تقوم بدور المنقذ للانسان المعذب و المحروم ، كبني اسرائيل في عهدفرعون ، ثم كيف يقود الانبياء هذا الانسان الى بر الامان.

ومن ثم كيف تربي الرسالة الانسان ، ثقافيا ، و اجتماعيا ، و علميا ، و عمرانيا ، ليتخلص من رواسب جاهليته ، ثم تنير امامه صراط المدنية ، و تزوده بوسائل الكلاء و الماء..

ثم كيف تهدد المدنية و الرخاء المجتمع الرسالي ، فتحوله الى مجتمع ضعيف متهاوي.

ابرز القرآن هنا دور الرسالة الالهية في تكوين الحضارة البشرية ومن خلالها ، وقد ذكرنا ببعض العوامل الاخرى التي نشير اليها انشاء الله فيما يلي.

بينات من الآيات

[49]اين كان بنوا اسرائيل ؟

ابوهم الكبير ابراهيم (عليه السلام) كان في العراق ثم هاجر الى فلسطين . ولكن حفيد إبراهيم يعقوب انتقل هو و أبناؤه الاثنى عشر الى مصر في قصة يوسف . و دارت الايام و تحولوا من شعب جاء مصر ملكا ، الى طوائف محرومة ، مستضعفة ، و مستثمرة من قبل فراعنة مصر. وكانوا بحاجة الى قائد و رسالة ، فأرسل الله موسى نبيا ، و انزل معه التوراة رسالة ، فجرت فيهم طاقاتهم ، و قادهم عبر البحر الى جزيرة سيناء ، ومن ثم الى فلسطين . هكذا استطاع الانسان ان ينتصر على المستغلين و الطواغيت بفضل الرسالة الالهية.

و يذكر القرآن بني اسرائيل بهذه القصة ، ليقول لهم : انهم لو تركوا رسالة الله ، لعادوا مرة اخرى ، امة مستضعفة محرومة . وهكذا يذكر الامة الاسلامية بهذه الحقيقة ايضا ، وهي : ان التمسك بالهدى الذي انزله الله ، و التمحور حوله ، هو الكفيل بضمان استقلالهم و حريتهم .. يقول الله سبحانه:

]واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب[

اي يذيقونكم عذابا اليما يتمثل فيما يلي

]يذبحون ابناءكم و يستحيون نساءكم[

انهم كانوا يقتلون ابناء النساء الخادمات لكي لا تنشغل النساء عن خدمتهم . او كانوا يفعلون ما هو اعظم و اشد ضررا على كرامة الانسان.

]وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم[

انه شر عظيم ، ولكنه - بالرغم من ذلك - اختبار (بلاء) يمكن ان يتمخض عن ارادة قوية في التحدي و الصمود ، وبالتالي في التحرر الحقيقي.

[50]ولكن لم يستطع بنوا اسرائيل الخلاص من كـل تلك المأساة الا بفضل الرسالة الالهية ، اذ جاءت ، و وحدتهم ، و انقذتهم من ويلات الطغاة.

]واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم و أغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون]وكم هي رائعة ان ينظر المحروم الى جلاده : تتقاذفه امواج البحر ، جزاء على جرائمه .

[51]الطاغوت انتهى ولكن آثار سيطرته لم تزل كامنة في النفوس ، و بارزة في التصرفات ، متمثلة في حالة الاستسلام والهزيمة النفسية و التعود على الخضوع . من هنا تركهم قائدهم ومنقذهم عدة ايام ، فلما عاد اليهم فاذا بهم يسجدون للعجل . لانهم لا يزالون عبيدافي نفوسهم بالرغم من تحررهم الظاهر . هؤلاء كانوا بحاجة الى ثورة ثقافية قوية تحرر نفوسهم من الذل و الخنوع . كما كانوا بحاجة الى ثورة اجتماعية تخلصهم من عبودية الرأسمالية العفنة التي كانت مرتبطة بنظام فرعون الطاغوتي . وكانوا ايضا بحاجة الى ثورة علمية ترفعهم عن حضيض الماديات الى عالم التوحيد الخالص . ثم انهم يحتاجون الى ثورة عمرانية تهديهم الى بناء المدن و زراعة الارض.

وفيما يلي نجد كيف ان رسالة الله فجرت هذه الثورات في واقع بني اسرائيل حتى استطاعوا بناء امة مجيدة.

الف : ذهب موسى الى طور سيناء ، ليتلقى الوحي فلمـا عـاد وجد قومه في نكسة جاهلية .

]واذ و اعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون]هذه كانت مشكلة عقائدية (ايدلوجية) حلها موسى (ع) باذن الله وقال الله تعالى :

] [52]ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون[

] [53]واذ آتينا موسى الكتاب و الفرقان لعلكم تهتدون]ماذا فعل موسى (ع) عفا عنهم بامر

الله ثم تلا عليهم الكتاب (وفيه الرؤى العقائدية العامة) و الفرقان (وفيه التعاليم التفصيلية للحياة) فصحح بذلك رؤاهم و علمهم كيف يقتلعون من انفسهم جذور الاستعباد حتى لا يعودوا الى عبادة المال (العجل)مرة اخرى هذه كانت ثورة ثقافية.

[54]باء : ولكن انتهاء عبادة المال ، من قبل اكثر الامة ، لم تدل على انتهاء دور الثروة في تهديد تحرر الامة اجتماعيا . اذ كانت هناك طبقة قد اشربت قلوبهم بحب العجل . وكانت الامة بحاجة الى عملية تطهير ، لتصفية العناصر الخبيثة منها .

]واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم][٥٥] جيم : وبقيت المشكلة الثالثة هي التي نسميها بالمشكلة الايدلوجية حيث كان لابد من ثورة علمية توحيدية ، تخلص الامة من رواسب الجاهلية المادية ، المتمثلة في تصور الله في شيء مادي ، وبالتالي تقديس الاشياء ، انطلاقا من الباسها ثوب الالهوية . والامة لا تصبح متحررة بالكامل ، الا اذا تحررت من تقديس اي شيء او شخص من دون الله سبحانه . اذ لولا ذلك لكانت الامة معرضة للاستعباد.

فالامة التي تقدس الاصنام ، لابد ان تستعبدها الاصنام او كهنة الاصنام . و الامة التي تؤله عيسى (ع (لابد ان يستعبدها كهنة الكنيسة . و الامة التي تقدس الاولياء على انهم قد دخلتهم روح من الله ، لابد ان يستعبدها المنتسبون الى اولئك الاولياء.

من هنا حرصت الرسالة الالهية على إنقاذ البشرية من جاهلية الشرك ، لتصبح حرة كريمة لا تقدس الا الله سبحانه . ولا تطيع الا من امر الله بطاعته.

]واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون]اختار موسى من قومه سبعين رجلا ليرافقوه الى الطور ، ولكنهم سرعان ما استبدت بهم جاهليتهم الاولى وقالوا : ارنا الله والا سوف نعود كفارا . فاذا بصاعقة من السماء تحرقهم جزاء كفرهم الصريح.

] [56]ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون[

وكانت هذه الهزة كافية لتصفية نفوس هؤلاء من رواسب الشرك و تسبيح الله وحده.

[57]دال : وبعد ان انقذ الله بني اسرائيل برسالته الكريمة عن مشاكلهم (استعباد فرعون ، عبودية العجل ، طبقة اصحاب العجل ، رواسب الشرك (اسبغ عليهم مختلف النعم المادية وقال سبحانه:

]و ظللنا عليكم الغمام و انزلنا عليكم المن والسلوى]فهناك نعمة السكن و نعمة الغذاء . و المن هو الحلوى . و السلوى هو طير معروف.

]كلوا من طيبات ما رزقناكم[

ولكنهم كفروا بانعم الله .. مثلما يحدثنا القرآن بعدئذ.

]وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون[

انهم ارادوا الدخول في المدينة ، وكانت تلك نكسة لهم . اذ الاستقرار كان سيفقدهم الكثير من مزاياهم ، ومنها بالطبع حريتهم وقدرتهم على مواجهة اعدائهم . ولكنهم تعبوا من حياة البدو ، و اسلموا انفسهم للخفض و الدعة . فقال لهم الله : اهبطو مصرا.

] [58]واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا]ولكي يضمن لكم الاستقرار في المدينة فعليكم التزام الطاعة لله ، و التضرع و حسن السلوك.

]و ادخلوا الباب سجدا[

لله

]و قولوا حطة[

اي توبة الى الله.

]نغفر لكم خطاياكم و سنزيد المحسنين[

[59]ولكن ، يبدو انهم لم يطبقوا تعاليم الله ، فأخذوا يتكبرون و يسرفون و يقولون حنطة خير لنا من حطة..

]فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون]متمثلا في نقص في الثمرات ، و خلاف عريض بينهم على مغانم المدينة . حسبما يذكره القرآن في آية اتية . والسبب في ذلك الرجز هو فسقهم ، و ابتعادهم عن تعاليم الله.

[60]تلك كانت نعمة الاستقرار التي اسبغها الله عليهم ، ولكنهم كفروا بها . وهذه نعمة الماء الاشد ضرورة للعمران يسبغها عليهم ربنا ويقول:

]واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فأنفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم]لانهم كانوا اثنتي عشرة قبيلة مختلفين . وكان من المفروض الا تتداخل حياتهم مع بعضهم لوجود الحساسيات القديمة بينهم.

]كلوا و اشربوا من رزق الله[

ولكن مع توافر النعم تنمو عند الانسان حالة الطغيان ويقوم بالاعتداء على الاخرين ، او الاسراف في استهلاك المواد . من هنا حذرهم الله فقال:

]ولا تعثوا في الارض مفسدين[

[61]كان بنوا اسرائيل امة بدوية ثم تحضرت . ولكنها لم تستطع ان تقاوم سلبيات التحضر فأستعبدها فرعون في مصر ، و تجذرت بذلك حالة العبودية في نفوسهم . فاصبحوا ضعفاء جبناء مختلفين لا يثق بعضهم ببعض . ثم قادهم النبي موسى (عليه السلام) الى سيناء . و تربى في الصحراء جيل منهم استعادوا بعضا من خصائصهم الاولى التي تميزوا بها حين كانوا بدوا . ولكن كثيرا من آثار مرحلة العبودية لم تزل في نفوسهم وحين طلبوا من نبيهم ان يإذن لهم بالعودة الى فلسطين و الاستقرار في المدن ، لم يكن في صالحهم ذلك اذ ان آثار العبودية والتي منها الاختلافات المتجذرة في نفوسهم ، كانت تهددهم بالانحراف مرة اخرى و تحطيم حضارتهم.

بيد انهم اصروا على ذلك فلما (هبطوا مصرا) عادت اليهم سلبيات الحضارة كما يحدثنا عنها القرآن..

]واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فأدع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم]فهبطوا مصرا وشاعت في انفسهم صفات الجبن و اللاثقة و الفردية ، و فقدوا الروح العسكرية التي اكتسبوها في الصحراء وكانت النتيجة..

]و ضربت عليهم الذلة[

ومع العبودية السياسية تأتي العبودية الاقتصادية . اذ لا يستعبد الطغاة الناس الا لكي يستثمروا طاقاتهم ، و يستفيدوا من خيراتهم . فضربت عليهم المسكنة ايضا.

]و المسكنة و باؤوا بغضب من الله[

حتى كادوا يفقدوا قوتهم اليومي . ولكن لماذا ؟ لانهم كفروا بمنهج الله في الحياة و تركوا الالتفاف حول رسالتهم ، و الانتماء اليها ، دون الانتماء الى العنصريات المقيتة . و تركوا الاهتمام بتعاليم الدين في العمل الصالح و التعاون عليه ، و الجهاد من اجل الدين .

و زادوا ضعفا واستسلاما حين حولوا عنفهم الى الداخل ، فاخذوا يصفون العناصر الخيرة فيهم ، و يقتلون الانبياء لانهم يامرونهم بالعودة الى رسالتهم.

ولم يكونوا يكفرون بآيات الله ، و يقتلون النبيين لو لم يعصوا الله سبحانه منذ البدء ، في تنفيذ تعاليمه . اذ ان العصيان لابد ان ينتهي بالكفر ، كما ان الاعتداءات البسيطة ضد بعضهم تعاظمت حتى اعتدوا على المصلحين الكبار في مجتمعهم وهم الانبياء عليهم السلام . يقول الله سبحانه:

]ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون]ان كل امة تنتهي بانتشار روح العصيان و الاعتداء فيها ، اذ تنمو هذه الروح الخبيثة حتى تقضي على قيم الامة وعلى الصفوة الصالحة فيها .وماذا تبقى من الامة لو انتهت قيمها و رجالها الصالحون ؟

و كلمة اخيرة

ان تعبير القرآن في هذه الايات يوحي الينا بإن الله هو مصدر كل نعمة ظاهرة و باطنة ، وهو كذلك مصدر الوحي . وعلينا ان نقبل بهما معا (النعم والوحي (ولا يمكن ان نقبل بواحدة دون اخرى.

[62]كيف اعتدى هؤلاء على بعضهم ؟ و عصوا ربهم في ظلم بعضهم ، وبالتالي في الكفر بالله و قتل انبياء الله ؟ انهم حتى الامس القريب كانوا امة صالحة ؟

الجواب:

ان الاعتداء يبدأ فرديا و ينشأ من نوازع ذاتية شيطانية (كاعتداء قابيل على هابيل) ولكن مع تطور الظروف ، يتحول الاعتداء الى حالة اجتماعية ، وذلك عن طريق تقولب الاعتداء في ايديولوجية عنصرية مقيتة ، توحي الى كل طائفة انها هي شعب الله المختار ، وان اللهاعطاها صلاحية استعباد الاخرين.

وقد انتشرت هذه الايدلوجية الفاسدة ، في بني اسرائيل (كما يحدثنا القرآن الكريم في اكثر من مناسبة) و اتخذت دعما لها من القشرية الدينية ، بالاعتماد على بعض النصوص المجملة وتفسيرها بما يتناسب مع العنصرية.

و جاء القرآن لينسف اسس العنصرية ، و بالتالي : اسس الاعتداء المنظم على الاخرين فقال:

]ان الذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين من آمن بالله و اليوم الاخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون]ان الله يريد الايمان و العمل الصالح ولا شيء وراءه ، اذا دعنا نتنافس على هاتين القيمتين دون غيرهما . و يوم القيامة سيحكم الله بحكمه العادل.

الميوعة في تطبيق الاحكام

هدى من الآيات

يحدثنا القرآن الكريم عن حالة الضعف التي تنتشر في الامة ، و اساليب معالجتها . و تتمثل هذه الحالة في عدة مظاهر:

اولها : العنصرية التي تحدثت عنها الايتان السابقتان.

و الثاني : اللامبالاة و عدم الجدية في التمسك بهدى الله .

و الثالث : قسوة القلب و عدم التأثر بنصيحة الصالحين.

و سوف يحدثنا القرآن الحكيم طويلا عن مرض الميوعة و قلة الالتزام بالقيم و يضرب عدة امثلة من قصص بني اسرائيل:

اولا :قصة الطور ثم قصة انتهاك حرمة السبت ، ثم قصة البقرة التي توانوا في ذبحها . ثم يربط بين الميوعة وبين قسوة القلب في اخر هذه المجموعة من الايات.

بينات من الايات

و الامة الاسلامية اليوم تشبه الى حد بعيد بني اسرائيل في مرحلتهم تلك حين انتشرت فيهم المظاهر السلبية من الميوعة و الل امبالات وانتهاك حرمات الدين وعلينا ان نعتبر بقصص بني اسرائيل حتى لا ندفع الثمن مضاعفا.

[63]في ضحى نهار ، وجد بنوا اسرائيل قطعة هائلة من الجبل فوق رؤوسهم ، تكاد تسقط عليهم ، فهرعوا الى نبيهم ، فقال لهم نبيهم : انه العذاب نازل عليكم هل تؤمنون بالله و تتمسكون بتعاليمه بجد . قالوا : بلى ، فرفع عنهم العذاب ، ولكنهم عادوا الى اهمالهم الاول في تنفيذ التعاليم.

]واذا اخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور خذوا ما اتيناكم بقوة و اذكروا ما فيه]ولا تكونوا مائعين في تلقي التعاليم او في تطبيقها.

]لعلكم تتقون[

[64]ولكن بني اسرائيل كانوا كأكثر الامم حين يهبط عليهم العذاب من ربهم ، يجأرون الى الله و يعودون الى قيمهم و تعاليم دينهم . وما ان يرفع عنهم العذاب حتى يعودوا الى سابق عاداتهم.

]ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم و رحمته لكنتم من الخاسرين]ولكن الله لا يهمل الانسان الى الابد فقد يأخذه بشدة وهو غافل.

[65]ومن قصص بني اسرائيل في اللامبالات و الميوعة في تنفيذ القرارات .. قصة انتهاكم

حرمــة السبت ، حيث حرم عليهم الصيد فيه ولكنهم اعتدوا فيه بغيا على انفسهم ، فاخذهم الله اخذا شديدا وقال:

]ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين]اذلاء.

[66]انها سنة الله في الحياة انه يمهل البشر مرة بعد اخرى ، فان لم يتب يأخذه ليصبح عبرة لغيره.

]فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها[

حيث انها اصبحت عذابا لمن سبق و عذابا لمن لحق بهم.

ان اي عذاب الهي سيكون قويا بالنسبة الى من ينزل عليهم مباشرة و ستبقى آثاره في المستقبل . و العذاب الالهي تعبير صادق عن عمل الانسان نفسه و ترجمة لواقعه الفاسد لا اكثر.

وكل عمل يقوم به الانسان سيخلف اثاره السلبية على مجتمعه الحاضر وعلى مستقبل الاجيال ولذلك على الانسان ان يفكر مرتين قبل ان يقدم على اي عمل حتى لا يؤثر عمله في الاخرين سلبيا . كما ان على الناس ان يعرفوا ان اي عمل يقوم به فريق منهم سوف تنعكس اثاره عليهم جميعا .. فيأخذوا على ايديهم بشدة و جدية.

اما المتقون فانهم المستفيدون الوحيدون من عذاب هذا الفريق لانهم يعتبرون به و يحولونه الى جزء صالح في سلوكهم و تفكيرهم لا ان يكرروه مرة اخرى.

]و موعظة للمتقين[

قصة البقرة دروس و عبر هدى من الايات

عندما تنتشر في الامة روح التكاسل ، تبدأ بالالتفاف على الاحكام الشرعية ، لتنفلت منها انى استطاعت . فتراها تتشبث بطائفة من القشريات و تجعلها بديلة عن الحقائق الواقعية . و قصة بني اسرائيل مع البقرة تمثل هذه الحالة فيهم.

و قصة البقرة تدل على ان بني اسرائيل لم يصبحوا آنئذ كفارا بالرسالة جملة واحدة ، بل بالعكس كانوا يريدون تطبيق تعاليم الله . بيد ان التردد و الضعف واضح في تصــرفاتهم مما يجعلهم يؤخرون تنفيذ الواجبات ، تحت غطاء التشبث بقشور التعاليم . فهم كانوا يتساءلون عن لون البقرة ، و طبيعتها ، و مقدار عمرها ، وسائر خصائصها .. بينما تركوا الجوهر - وهو ذبح البقرة - كذلك الامة الاسلامية في بعض مراحلها المتأخرة من تاريخها ، كانت تتوغل في التفاصيل و تترك روح التعاليم و الاهداف المتوخاة من ورائها.

بينات من الايات

] [67]و اذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة[

في البداية استغربوا من الطلب و زعموا انها هزو لمجرد انهم لم يعرفوا فلسفة الحكم.

]قالوا اتتخذنا هزوا[

بالرغم من ان موسى (عليه السلام) كان جديا مع قومه و صارما ، ولكن بني اسرائيل كانوا قد اصيبوا بضعف في الايمان . الايمان الذي يريد من صاحبه التنفيذ من دون سؤال و دون البحث عن العلل و الاهداف ، لذلك قال لهم موسى:

]قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين[

[68]وهنا بدأت سلسلة التساؤلات التي استهدفت معرفة خلفيات الحكم و اهدافه البعيدة المختلفة.

]قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي[

هل هي بقرة كسائر الابقار ؟ ام هي بقرة معينة ؟ وهنا شدد الله عليهم وقال لهم موسى:

]انه يقول انها بقرة لا فارض[

قد اكلتها السنون و انهكتها الحياة.

]ولا بكر[

صغيرة السن . انما هي بين البكر و الفارض مما عبر عنه القرآن بـ.

]عوان بين ذلك[

ثم شدد عليهم بتطبيق الامر بحزم و قال:

]فافعلوا ما تؤمرون[

[69]ولكنهم عادوا يتساءلون انطلاقا من تشبثهم بالقشور .

]قالــوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها]شديدة الصفار ثم زاد عليهم شرطا اخر وقال:

]تسر الناظرين[

بسب اكتمالها وسلامة بنيتها.

[70]عادوا مرة ثانية يسألون عن ذات البقرة.

]قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا]وهنا انتبهوا الى ان اسئلتهم قد تعني عند موسى (ع) انهم لا يريدون تنفيذ الامر وكان هذا هو الواقع بالرغم من ادعائهم غير ذلك فقالوا:

]وانا ان شاء الله لمهتدون[

] [71]قال انه يقــول انهــا بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مسلمة]في لون واحد.

]لاشية فيها[

لا يكون فيها لون غير لونها الاصلي.

]فذبحوها وما كادوا يفعلون[

لانهم تحولوا من مجتمع الايمان الذي ينطلق من واقع الثقة بالقيادة و تنفيــذ اوامــرها فورا ، الى مجتمع الجدل و محاولة فهم علل الاحكام و اسبابها و طريقة تنفيذها.

[72]وبعد ان ذبحوها بين لهم الله سر الامر ، وان تساؤلاتهم لم تكن صحيحة ابدا ، وان القضية كانت ترتبط بقصة القتيل الذي لم يعرف قاتله و الذي يقول عنه ربنا:

]واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون]لقد اصبح مجتمعهم فاسدا ، وقد برعوا في تنفيذ الجرائم حتى انهم لا يخلفون اثرا يدل على فاعلها ، وقد ابتعدوا عن مسؤولية المحافظة على الامن ، فاخذوا يكتمون عن السلطات الشرعية اخبار البلد بيد ان الله يقول لهم و بصراحة:

]و الله مخرج ما كنتم تكتمون[

] [73]فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى و يريكم آياته لعلكم تعقلون]فلما ضربوا عضوا من اعضاء القتيل ببعض لحم البقرة الذبيحة ، احيى الله القتيل ، وبين من قتله و انتهت المشكلة.

الخلاصة

ان قصة البقرة تبين لنا جانبا من جوانب الضعف الايماني الذي اصاب بني اسرائيل ولكن هذا الضعف لا يزال هينا بالنسبة الى ما ينتظرهم في المستقبل حيث يكادون يفقدوا الايمان رأسا.

و القرآن يحذرنا - بذلك - من ان الضعف الايماني المتمثل في التواني عن تطبيق الاوامر قد ينتهي بصاحبه الى مرحلة اخطر هي الابتعاد كليا عن الايمان ، وذلك في المجموعة التالية من الايات.

اليهود بين تضليل الاحبار و أماني الجهلة

هدى من الآيات

تجاوزت بنو اسرائيل مرحلتين حتى الان ، مرحلة الثورات الاربع ، ثم مرحلة الضعف الايماني . وها هم يدخلون في المرحلة الثالثة و الاخيرة وهي مرحلة قسوة القلب التي تأتي نتيجة لضعف الايمان وهي متصلة بالعنصرية التي سوف يتحدث عنها القرآن في المجموعة التالية من الايات.

ان قسوة القلب تنشأ من عبادة الذات ، وقد يكون قساة القلب علماء بالدين ، الا ان العلم وحــده لا يكفي ، بل من الضروري ان يدعم العلم ايمان صادق و احساس عميق بالمســؤولية . بل من الممكن ان يكون العلم واحدا من الاسباب التي تساعد على قسوة القلب ، اذا توجهبصاحبه الى الاستكبار و الترفع عن سماع النصيحة .العلم جيد اذا كان له بعدان ، بعد في الداخل هدفه اصلاح الذات . وبعد في الخارج هدفه اصلاح المجتمع . و العلم ذو البعد الواحد يذهب بصاحبه بعيدا عن الله بعيدا عن الالتزام بمسؤوليته.

من هنا يركز القرآن الحكيم في هذه المجموعة من الآيات على ان مشكلة بني اسرائيل في هذه المرحلة لم تكن متمثلة في قلة علمهم بالدين ، بل في استثمار هذا العلم في سبيل مصالحهم الذاتية و توجيهه حسب اهوائهم.

صحيــح ان بعضهم ايضا اميون ، ولكن البعض الاخر كان يتعمد تحريف الكتاب بكل صلافة . و القرآن يركز الضوء على هؤلاء لانهم هم السبب المباشر لتضليل الاميين.

بينات من الآيات

قسوة القلب

[74]ان قسوة القلب جاءت بعد مرحلة الاستخفاف بتعاليم الدين ، و الالتفاف حولها ، و التشبث بقشورها . ولذلك قال الله سبحانه:

]ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة]كيف اصبحت قلوبهم اشد قسوة من الحجارة ؟

لان الحجارة قد تفيض بالعطاء كثيرا ام قليلا وتؤدي بذلك دورا في الحياة اما الانسان الذي يقسو قلبه فأنه (والعياذ بالله) لا يعترف لنفسه بأي دور ايجابي في الحياة ولا يلتزم باية مسؤولية فيها.

]وان من الحجـارة لما يتفجـر منه الانهار وان منها لما يشـقق فيخرج منه الماء]كما ان الحجارة قد تخشع لله و لسننه في الحياة.

]وان منها لما يهبط من خشية الله[

بيد ان القلب القاسي لا يخشع للـه ابـدا . ثم يهدد الله اصحاب هذه القلوب القاسية ويقول:

]وما الله بغافل عما تعملون[

[75]ثم يحدثنا القرآن عن ان مشكلة هؤلاء ليست في انهم لا يعلمون ، بل في انهم لا يؤمنون و يقول:

]افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه و هم يعلمون]ان كل شروط العلم متوفرة في هؤلاء . السماع للعلم المتمثل في الوحي ، ثم التعقل ثم العلم ولكنهم مع كل ذلك يحرفون كلام الله بغية الحصول على بعض المكاسب المادية.

[76]و اخطر من ذلك نفاقهم الذي يبدو من تصرفهم الماكر مع المؤمنين الصادقين ، حيث انهم يرفضون الايمان في الواقع ، اما في الظاهر فيدعون انهم مؤمنون.

]واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا[

وذلك كسبا لبعض المغانم من هؤلاء المؤمنين الذين غالبا ما يكونون من البسطاء من اتباع موسى (عليه السلام) ، الذين يفرض عليهم الاحبار و الرهبان اتاوات باسم الدين.

و الغريب في تصرف هؤلاء انهم عندما يختلون الى بعضهم ينفتحون على بعضهم و يعترفون على انفسهم بانهم يحرفون كلام الله عمدا ، مع العلم المسبق بأنه كلام الله وان تحريفه يضربهم ، ولكنهم يحاولون منع اية حقيقة عن الناس حتى لا تصبح مادة احتجـاج عليهـم في الواقع ، ولكي لا تكتشف فضائحهم . ولكن القرآن يفضحهم ويقول:

]واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم]من العلم.

]ليحاجوكم به عند ربكم افلا تعقلون[

] [77]اولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون]و انه سوف يفضحهم عاجلا ام اجلا.

ان هذه هي حالة الطائفة الذين من المفروض ان يكونوا الموجه الديني لبني اسرائيل ، انها تتردى الى الحضيض السافل ، حيث تتفق كلمتهم على تجهيل الناس للسيطرة عليهم و ابتزازهم و استغلال سذاجتهم . وهذه اخطر ما يمكن ان يهبط اليه مستوى امة رسالية كبني اسرائيل ، حيث تتحول مراكز توجيههم و هدايتهم الى بؤر لنشر الجهل و الضلالة.

ويبدو من الاية الكريمة . و آيات قرآنية اخرى : ان تحريف الكتاب قد تم عند اليهود بصورة منظمة وواعية ، و بتخطيط شامل . وهكذا يحدثنا التأريخ ان علماءهم حين لم يجدوا - من جهة - اقبال الناس على دينهم . و ازداد - من جهة ثانية - ضغط السلطات عليهم ، حرفوا الدين بما يتناسب و الخرافات المنتشرة بين الناس . و حذفوا منه البنود التي تعارض السلطات ، و اضافوا اليه افكارا استسلامية مثل ما لله لله . وما لقيصر لقيصـر . وانما ارادوا - بذلك - تكثير عدد الانصار حولهم ، و رفع غائلة الظلم عن انفسهم.

و نرى علماء اليهود و النصارى يحرفون حتى اليوم دينهم ، ليكيفوه مع ثقافات العصر و اتجاهات السياسة ، حتى ان التقارير الاخيرة ذكرت ان الكنيسة الكاثوليكية دعت بعثاتها التبشيرية في افريقيا الى خلط الدين المسيحي بثقافات الوثنية الافريقية ، لضمان اقبال الشعوب الافريقية على الدخول في كنائسهم.

[78]اما بقية الناس فهم اميون ، تحول الكتاب في واقعهم الى آماني و تقليد الاحبار و الرهبان ترى ما هي الاماني . وما هو الظن.

الكتاب بين الحلم و التقليد

بناء على ما سبق فان الكتاب عند هؤلاء مجرد أماني و احلام ، و ربما ظنون و تقاليد . انه حسب تعبير القرآن الدقيق ، مجرد اماني يتسلى بها الضعفاء ، و يتغنى بحروفه المكروبون و المحرومون . بدل ان يكون صاعقا يفجر طاقاتهم ، و حافزا يثير عقولهم و نظاما لتوجيههحياتهم و علاقاتهم.

انظر الى السياق كيف يعبر عن حالة هذه الطبقة السحيقة.

]ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني[

يعني ان الكتاب في نظرهم اصبح مجرد احلام يمنون انفسهم بها دون القيام باي نشاط حقيقي من اجل تحقيق اهداف الكتاب.

]وان هم الا يظنون[

وهؤلاء لا يستثيرون عقولهم ليفكروا او ليبدعوا ، انما يستثيرون بالكتاب خيالهم ليتصوروا و ليحلموا به . و يحتمل ان يكون المعنى من الظن هذا التقليد.

[79]ان هؤلاء الاميين مقصرون لا ريب في ذلك . الا ان وزرهم الاكبر يقع على عاتق اولئك الذين ضللوهم و حرفوا معاني الكتاب حتى حولوه الى مادة تخدير ، من بعد ان كان مادة تفجير . و حولوه الى مثير احلام ، من بعد ان كان مستثيرا للعقل و منهجــا للفكــر.
لذلك يحدثنا القرآن عن هؤلاء فور ما ينهي حديثه عن الاميين و يقول:

]فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا]وهؤلاء هم اولئك المحرفون الذين سبق الحديث عنهم ، انما يكرره القرآن ليلقي عليهم بمسؤولية ضلالة الاميين وليقول ان الهدف من التحريف انما هو الحصول على المكاسب المادية التافهة . تلك المكاسب التي لا تهنأ لهم وتلك الحرفة التي سرعان ما تتحول الى نقمة.

]فويل لهم مما كتبت ايديهم و ويل لهم مما يكسبون[

اي كسب مبارك تلك الحرفة التي تؤدي بانحراف الملايين من الناس ، و تجعلهم عرضة للاستغلال و الاستعباد ؟!

ان الطغاة يريدون ابدا ان يتحكموا في مصير الضعفاء . و الطريق الوحيد لحماية الضعفــاء من الطغــاة ، هو تسليحهم بفكرة ثورية تعلمهم كيف يجب ان يحافظوا على كرامتهم ، و يستردوا حريتهم . و الدين هو تلك الفكرة الثورية ، و العلماء هم امناء الله على هذه الفكرة . فاذا خان هؤلاء مسؤوليتهم ، فاي جريمة كبرى يقترفون ، حيث يجردون ملايين الضعفاء من سلاحهم الوحيد ، و يتركون الطغاة يستغلونهــم . بل انهــم يساهمون في هذا الاستغلال مباشرة عبر تفسيرهم التحريفي للدين.

بين الاماني و الظنون

قالوا عن الاماني : انها ما يتخيله الانسان فيقرر في نفسه وقوعه و يحدثها بكونه ، ومن هذا قولهم : فلان يعد فلانا و يمنيه . ومنه قوله تعالى : " و يعدهم و يمنيهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا "و حكــي عن الاعرابي انه قال لمن حدثه : اهذا شيء رويته ام تمنيته ام اختلقته.

وفي الكشاف (٢) في تفسير الاية:

"ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم " اي قوله لا يعلمون الكتاب الا اماني " ثم العوام الذين قلدوهم وبنى على ذلك انهم في الضلال سواء. "

وفي تفسير غريب القرآن اي لا يعلمون الكتاب الا ان يحدثهم كبراؤهم بشيء فيقبلون ، و يظنون انه الحق وهو كذب وقد قال احدهم : ما تفنيت ولا تمــنيت ، اي ما اختلقت الباطل.

ولكن يبدو ان الاية تتحدث اساسا عن الاميين وكيف انهم يعيشون على الاماني و الظن وعلى هذا يحتمل ان تكون الامنية من انفسهم و الظن بسبب التقليد اوان تكون الاماني بمعنى التلاوة عليهم ، كما نقل انه احد معاني هذه الكلمة و انشدوا.

تمنى كتاب الله اول ليلة و اخره لاقى حمام المقادر(٢) في الكشاف / ج ١ / ص ١٥٧

ولان القرآن يفسر بعضه بعضا ، فان السياق القرآني القادم اوضح بيان لهذه الكلمة .حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى : [و قالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ام تقولون على الله مالا تعلمون]ان تفسير الكتاب وفق ما يتمنونه ، او بتعبير اخر : حمل آيات الكتاب على ارائهم الموافقة لاهوائهم ، وبالذات فيما يرتبط بتبرير فسادهم و خداع انفسهم بإن العذاب لا يشملهم لانهم ابناء الله و احباؤه ، او لانهم من اولاد الانبياء الكرام او ما اشبه ؟ و الواقعيعتبر هذا اوضح معاني الامنية.

ومن هنا نعرف بلاغة التعبير القرآني ، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى : " لا يعلمون الكتاب الا اماني " و كانهم يعلمون فقط اماني الكتاب ، او هكذا يفسرونه حسب امانيهم . وفي معنى هذا ، آيات اخرى : قال الله سبحانه:

"و قالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك امانيهم " (البقرة /١١١)" ليس بأمانيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوء يجز به " (النساء /١٢٣)و الاماني التي يخدع بها هؤلاء انفسهم هي التي يفضحها السياق القرآني في الآيات الآتية.

الظن

اما الظن الذي يقول عنه ربنا سبحانه و تعالى : " وان هم الا يظنون " فلعله درجة اعلى من الاماني . حيث ان الفرد يحلم بشيء و يحلم ، حتى يخيل اليه صدق هذا الشيء بل يكاد يقنع نفسه به ، و يبدو ان نسبة الثقة بالفكرة ليست بذات اهمية ، فقد تكون اكثراو اقل من خمسين بالمائة . انما المهم جذر الفكرة و كيفية بروزها في النفس.

فاذا كان منشأها المصلحه و حب الذات و هوى النفس الذي يتحول الى اماني ويفسر الكتاب عليها ثم يتحول الى خيال و تصور و ظن ، فان درجة الثقة بها حتى ولو بلغت حد القطع فانها لا تسوى شيئا لانها ليست ناشئة من العلم ، و المنهج الصائب للمعرفة ، انما هي ناشئةمن التمنيات و الاحلام و التخيلات و الظنون.

يبقى ان نتساءل عن العلاقة بين الظن و التقليد حيث جاء في حديث شريف ان المراد من الظن هو التقليد.

و الجواب : ان الحديث انما هو عن الاميين الذين هم العوام الذين يقلدون كبراءهم ولعله لهذه المناسبة فسر الظن هنا بالتقليد ، كما ان السياق القرآني يحدثنا في ايات اخرى عن اولئك الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله.

وقد قوبل الظن بالعلم في القرآن قال سبحانه وتعالى : " قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون " (الانعام / ١٤٨)كما اكد القرآن : ان الظن لا يغني من الحق شيئا فقال سبحانه وتعالى : " وما يتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا ان الله عليم بما يفعلون " (يونس /٣٦ (بينما يمتدحه في سياق الحديث عن الاخرة . فيقول ربنا سبحانه وتعالى:

"الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون) "البقرة /١٥٦)فكيف يمدح الظن حينا و يذمه احيانا ؟

جاء في حديث شريف:

"الظن ظنان ، ظن شك و ظن يقين ، فما كان من امر المعاد فهو ظن يقين ، وما كان امر الدنيا فهو على الشك. "

ولعل تفسير هذه الرواية .. ان الظن بمعنى التصور فاذا كان التصور و التخيل قائما على اساس التمنيات و الاهواء ، فهو ظن شك . حتى ولو بلغت نسبة الثقة معه الى درجة كبيرة واذا كان التصور على اساس التفكير المنهجي كمن ايقن بالجنة ، ثم اخذ يتصور نعيمها ، و ايقن بالنار و طفق يتخيل عذابها ، فانه تصور يقين لانه قائم على اساس.

و اهل اللغة يقولون : الظن هو الاحتمال الراجح واذا كان قريب الوهم فانه يستخدم مع ان المخففة . مثل قوله سبحانه وتعالى :" " فظن ان لن نقدر عليه " . واذا كان قريب العلم فانه يذكر مع ان المشددة ، مثل قوله سبحانه وتعالى : " و ظنوا انهم مانعتهم حصونهم. "

تقديس الذات

هدى من الآيات

تابعنا في الدروس السابقة مراحل هبوط نجم بني اسرائيل ، و تركناهم في اخر مرحلة في مستنقع الجهل و الضلالة ، حيث تحول قادتهم الروحيون الى سراق الفكرة الرسالية ، و مجرمي حرب يساعدون الطغاة على استغلال الضعفاء ، بينما تحول الكتاب في نظر جماهيرهم العريضةالى احلام حلوة يمنون انفسهم بها ليبرروا واقعهم الفاسد.

اما الان فنحن امام مرحلة تالية اخطر من تلك وهي تحولهم الى امة عنصرية ، تقدس كيانها المادي ، و تحارب الناس و القيم على اساس ذلك الكيان.

ان تحول الامة الى تجمع عنصري ، يعتبر تغييرا شاملا في قيمها حيث تموت فيها كل جذور الصلاح ولا يرجى لها الخير ابدا . وقد تصبح - بمرور الزمان - تجمع يسعى نحو الفساد في المجتمعات و الاعتداء على الناس ولا ينتهي ذلك الا بالقضاء الجسدي عليها جميعا.

و يشرح لنا القرآن كيف تتحول الامة الرسالية الى تجمع عنصري ، وذلك بابعاد فكرة المسؤولية عن واقعهم ، حيث يتصورون انهم بعيدون عن الجزاء ، لانهم افضل من غيرهم ، ثم يبدأون بتقييم الحياة وفق هذا التصور الخاطىء . و يكذب القرآن هذه الفكرة و يضرب امثلة حيةعلى ذلك . ثم يبين زيف الفكرة العنصرية ، وذلك حين يحيلهم الى فطرتهم . انهم يحملون بعضهم مسؤولية جرائمهم فيما يخصهم و يتصل بحياتهم مباشرة ، فكيف لا يحملونه مسؤولية ذات الجريمة حين تقع على غيرهم هل هناك جريمة و جريمة او بشر و بشر.

بينات من الايات

[80]قبل كل شيء يجعل العنصري ذاته فوق المسؤولية ليبرر بعدئذ كل تصرفاته الشاذة ، و هذه العملية خطيرة لسببين:

الاول : انها تميت ضمير العنصري ، و تطفيء شعلة احساسه كانسان ، فلا يعدو يشعر بالاثم تجاه ما يرتكبه من موبقات و جرائم.

الثاني :انها تبرر تصرفاته امام الاخرين وهنا نرى القرآن الحكيم يعالج هذه المشكلة في بني اسرائيل ومن ثم في كل الامم التي قد تبتلي بها ، كالنازية و البيض في جنوب افريقيا فيقول:

]وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ام تقولون على الله مالا تعلمون]و بالطبع لم يكن هناك ميثاق من الله يتعهد لهم بالايأخذهم على تصرفاتهم ، انما هم تصوروا ذلك انطلاقا من حبهم لذاتهم ، و تقديسهم لها.

[81]ثم يؤكد القرآن الحكيم ، ان كل انسان مسؤول امام الله عن تصرفاته السيئة ، شاء ام ابى . وهذا وحده عهد الله و ميثاقه ، و سنته التي لا تتبدل . حيث يقول:

]بلى[

اي ان هناك عهدا ولكن من نوع اخر هو.

]من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاؤلئك اصحاب النار هم فيها خالدون]ربما التعبير بـ (و احاطت به خطيئته) يوحي بإن الانسان قد يذنب ذنبا ، ثم يستغفر الله ، فيتوب عليه ربه . ولكن اذا اكثر من الذنوب ولم يغسلها بالتوبة ، فان خطاياه تحيط به من كل جانب ، وانئذ لا تدع له مجالا للعودة الى الله . وهذه الاية تصدق على الكفار ومن يحكمهم ، حيث تحيط بهم خطاياهم وهذا الكلام يدل على ان العنصريين سوف يتوغلون في الذنوب انطلاقا من تصورهم انهم بعيدون عن مسؤولياتهم ، وهناك تاخذهم الذنوب ، و ترمي بهم الى النار خالدين فيها.

[82]و كما ان المسؤولية لا تعرف الفرق بين عنصر و عنصر ، كذلك الجزاء الصالح لا يختلف فيه قوم عن قوم.

]و الذين آمنوا و عملوا الصالحات اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون[

ميثاق الله لبني اسرائيل

[83]هذا ميثاق الله مع الناس جميعا ، وهناك ميثاق من قبل الله مع بني اسرائيل بالذات ، ولكن نصوصه تختلف كلية عن ميثاق العنصرية المزعوم الذي يزعم باعطاءهم صك الامان.

انما هو مسؤولية كاملة لو طبقوها لاصبحوا خير الناس ، والا فهم شر الناس جميعا . اما نصوص الميثاق فهي اولا:

]واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله]ولا تعتبرون قيمة العنصر او القرابة او اللغة او ما اشبه ، مقدسة عندكم الا بمقدار ما تتفق مع سنن الله و تعاليمه.

ثانيا:

]و بالوالدين احسانا و ذي القربى و اليتامى و المساكين]هؤلاء هم بشر و ليسوا بآلهة لذلك لا يجوز عبادتهم ..بل يجب الاحسان اليهم فقط . و فرق كبير بين الاحسان و العبادة اذ ان الاحسان هو العطاء من يد عالية ، و العبادة هي الخضوع لمن هو اعلى.

ثالثا:

]و قولوا للناس حسنا[

و حرام ان تعتدوا على الناس كلاميا فكيف بالاعتداء العملي.

رابعا:

]و اقيموا الصلاة و آتوا الزكاة[

ولا يجوز ترك الفرائض اعتمادا على انهم من عنصر بني اسرائيل ، او ان اباءهم كانوا انبياء او كانوا مقربين الى الله.

هذه هي نصوص الميثاق ، ولو كان بنو اسرائيل طبقوها ، اذا لكانوا مفضليــن على الناس ، ولكنهم لم يطبقوها لذلك لم يستحقوا من الله جزاء ولا كرامة.

]ثم توليتم الا قليلا منكم وانتم معرضون[

[84]خامسا : المحافظة الكاملة على حرمة الدم ، و حرية الانسان.

]واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم]هذه بعض نصوص الميثاق الذي شدد عليها ربنا و اخذ منهم اقرارا بها.

]ثم اقررتم وانتم تشهدون[

اي اقررتم اقرارا واعيا ، بعد علم و تصميم.

[85]بيد انكم لم تطبقوا نصوص الميثاق ، بل عكستم الحال تماما ، فليس لكم اي حق على الله ان يوفي من جانبه بعهده تجاهكم ، و بفضلكم على الناس تفضيلا.

]ثم انتم هؤلاء[

وليس غيركم ولا احد سواكم انتم بالذات تخالفون نصوص الميثاق.

]تقتلون انفسكم و تخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم]يتعاون بعضهم مع البعض الاخر ضدهم.

]بالاثم[

وهو العمل السيء الخاص بالشخص نفسه.

]و العدوان[

وهــو العمل الذي يضر الاخرين . اي ان اعمالكم تضركم انفسكم و تضر الاخرين.

ولكن هذه الاعتداءات لا تقع على هؤلاء عن جدارة ، بل عن تعصب قبلي ، او خلافات داخلية باطلة ، وذلك بدليل انهم يهبون لنجدة هؤلاء بالذات ، لو تعرضوا لعدوان خارجي . فلو كانوا مجرمين فعلا فلماذا يدافعون عنهم ؟

ان القرآن يدين الفكر العنصري الذي يقول : انا و اخي ضد ابن عمي ، و انا و اخي و ابن عمي ضد عدوي . ويقول:

]وان يأتوكم اسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم]ثم يبين ان هذا النوع من التفكير لا يعتمد على قيم ، بل على اهواء.

]افتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض[

ثم يحدثنا بالنتائج الطبيعية لهذا النوع من التفكير العنصري الانتقائي الذي يأخذ من الدين ما يوافق الهوى فقط ويقول:

]فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا و يوم القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون][٨٦] اما عذاب الدنيا فيتمثل في ابتعادهم عن هدى الله ، وما يوفره هذا الهدى من التقدم و الفلاح ، حسب ما يذكره القرآن في الايات التالية.

اما عذاب الاخرة فيذكره القرآن هنا لانه الاشد و الابقى ، ويبين لنا قبلئذ انهذا التبعيض و الانتقاء في اتخاذ احكام الدين ، انما هو نتيجة تعويض الاخرة بالدنيا ويقول:

]اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالاخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون]فلا يرحمهم من في السماء ولا ينفعهم اهل الارض.

العنصرية و الانغلاق الفكري

هدى من الآيات

لقد ادت العنصرية ببني اسرائيل الى نتائج سلبية شتى ، اولها العنف الداخلي الذي تمثل في قتل او اخراج جماعة منهم بالاثم و العدوان . و ثانيها - وهي الاخطر والتي يتناولها القرآن من جميع جوانبها - فهي الانغلاق . حيث وضعت العنصرية بني اسرائيل في زنزانة ضيقة ، منعت ان يتسرب اليهم اي نور و هدى .و تمثل ذلك في رفضهم الدائم اتباع اي نبي او اي افكار رسالية جديدة.

في هذه المجموعة من الايات يذكرنا القرآن بموقف بني اسرائيل من عيسى بن مريم ، الذي لم يكن ناشئا من تفكير منطقي بل من اهواء ضالة و مصالح خاصة.

ثم موقفهم من رسالة النبي التي كانوا يستعدون سلفا لتقبلها ، ولكنهم سرعان ما انقلبوا ضدها حين اكتشفوا انها نزلت في غيرهم . ويبين لنا القرآن ان عدم ايمانهم بهذه الرسالة ، نابع من عنصريتهم الضيقة . ثم يكشف القرآن عن جذر العنصرية ويقول ان جذرها هو عبادةالعجل (رمز المال والجاه. (

بينات من الايات

[87]كما انزل الله الكتاب على موسى انزله على سائر النبيين من بعده ، وعلى عيسى بن مريم ، فلماذا تجمد بنو اسرائيل على موسى عليه السلام ، هل لانه كان من بني اسرائيل فعيسى (ع) كان ايضا منهم . ام انه وحده انزل عليه الكتاب .. او لم ينزل ايضا على عيسى ؟

العلة ليست هذه او تلك انما هي : ان العنصرية تؤدي بصاحبها الى الانغلاق الفكري ، ومن ثم الى الرجعية و الجمود . ان بني اسرائيل اخذوا يقدسون آباءهم ، و يقدسون افكار اولئك و

عاداتهم ، انطلاقا من عنصريتهم الضيقة . فلم يستطيعوا ان يطوروا انفسهم وفق رسالةعيسى الجديدة ، لذلك انكروها .. يقول الله سبحانه:

]ولقد اتينا موسى الكتاب و قفينا من بعده بالرسل و آتينا عيسى ابن مريم البينات]التي دلت على رسالته بالقطع و اليقين ، و قطعت الطرق على كل مرتاب في رسالته.

]و ايدناه بروح القدس[

الذي ايد به سابقا النبي موسى عليه السلام . ولكنكم ، يا بني اسرائيل ، لم تؤمنوا بعيسى لما جاءكم.

]افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم]و تعاليتم عليه ، لانكم في رأيكم الشعب المختار لله ، و الله قد من عليكم بقيم و افكار و عادات لا يوجد مثيل لها في العالم ، وبالتالي ليس في الرسالة الجديدة اي شيء جديد يمكن ان يضاف الى رسالتكم .. انكم تعديتم الحد في تعاملكم مع رسل الله.

]ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون[

وسواء كذبتم او قتلتم فان الخاسر الوحيد هو انتم.

سبب التكذيب

[88]لماذا كذبتم بالرسل ؟

لانكم انغلقتم على عنصريتكم الضيقة ، ولكن أليس بامكانكم فك حصار العنصرية و التحرر من رجعيتها و جمودها ؟.. بلى ، فانتم اذا المسؤولون عن كفركم مباشرة ، ولا يجديكم ابدا : التبرير بأنكم منغلقون نفسيا في التملص من مسؤولية كفركم بالرسالة الجديدة.

]وقالوا قلوبنا غلف[

لا تدخلها نصائح جديدة اوتعاليم . كلا ، ان الله لم يخلق بعض القلوب منغلقة وبعضها منفتحة ، انما الناس بكفرهم او ايمانهم ينفتحون او ينغلقون امام التوجيهات الجديدة.

]بل لعنهم الله بكفرهم[

فكفرهم هو الذي سبب انغلاق قلوبهم.

]فقليلا ما يؤمنون[

اذ اصبح الايمان بالنسبة اليهم مهمة صعبة ، قلما يقوم بها الناس العنصريون الذين اختاروا الكفر على الايمان.

[89]ثم يضرب الله مثلا اخر من واقعهم العنصري ، انهم انغلقوا عن نور الرسالة الجديدة التي هبطت مع النبي محمد (ص) بالرغم من انهم كانوا ينتظرونها ، وذلك لانهم وجدوا انها نزلت في غيرهم.

]ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا [بهذا الكتاب الجديد ، و ينتظرون مقدمة حتى يحاربوا به كفار الجزيرة العربية.

]فلما جاءهم ما عرفوا[

انه من الله ، وانه رسالة جديدة يحتاج اليها العالم وبالذات محيطهم المتخلف من الشعب الجاهلي ،[كفروا به[

وماذا ينتظر من يكفر بهذه الرسالة التي يحتاج اليها الناس جميعا ، و يعترف هو بحاجة الناس اليها ، أوليس الابتعاد عن السعادة و الفلاح ؟

]فلعنة الله على الكافرين[

[90]لماذا وكيف تنشأ العنصرية ؟

تنشأ العنصرية اساسا من حب الدنيا و العمل من اجل المصالح المشتركة لمجموعة بشرية ، و تتضخم هذه المصالح في نفوسهم حتى تتحول الى عنصرية ، و السؤال الان : ماذا لو اصبحت العنصرية شرا على اصحابها ، هل عليهم التشبث بها الى الابد ؟

القرآن الحكيم يذكر هؤلاء العنصريين بمدى الخسارة التي تلحقهم في الدنيا بسبب هذا التفكير الارعن و يقول لهم بلغة فطرية مبسطة.

]بئسما اشتروا به انفسهم[

اي بئست الذاتية و العنصرية التي تعني ان يبيع الانسان كل شيء في الحياة ، و يشتري في مقابلها نفسه ، و بتعبير اخر : بئست العملية هذه التي يضحي الانسان بكل شيء في سبيل مصالحه الذاتية ، اذ ان ذلك سوف يسبب لهم الدمار لانه سوف يؤدي الى.

]ان يكفروا بما انزل الله بغيا[

بما انزل من الكتاب و الحكمة و النور و الهدى وكل خير ، لماذا ؟ بسبب التفكير العنصري وذلك

بالاحتجاج بـ..

]ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده[

فبما ان الله اختار لرسالته مهبطا اخر غير بني اسرائيل كفروا بالرسالة ، فمن هو الخاسر غيرهم . هل صحيح مثلا ان يمتنع احد المواطنين من اخذ ارض تقسمها الدولة لمجرد ان الموظف ليس ابن عمه ، وماذا يضره مادام انه يأخذ الارض و يحقق هدفه بها ، لذلك فان هؤلاءخسروا انفسهم.

]فباؤوا بغضب على غضب[

اذ كانوا في تخلف ، فاصبحوا اشد تخلفا بسبب تقدم غيرهم عليهم ، حين آمن الناس بالرسالة و كفروا هم بها . وكانوا كفارا فازدادوا كفرا.

]و للكافرين عذاب مهين[

وانهم سوف لا يحققون هدفهم من الاستكبار عن الايمان بالرسالة . اذ ان هدفهم العزة و التعالي ، بينما كفرهم بالرسالة سوف يسبب لهم التخلف و الجمود و ألوان المشاكل وبالتالي يسبب لهم الذل و العذاب المهين.

[91]ثم يكشف القرآن جانبا اخر من العنصرية ، وهو ان العنصرية ذاتها نتيجة وليست سببا ، وسبب العنصرية هو حب المال ، و رمزه المتمثل في عبادة العجل.

وهؤلاء يحبون المال حبا اعمى ، ويزعمون انه سوف يحقق كل طموحاتهم ، و يعطيهم العزة والسعادة . لذلك تجدهم لا يؤمنون بالرسالات الجديدة خشية ان يفقدهم الايمان بها بعضا من امتيازاتهم و مكاسبهم الخاصة ، ولكنهم لا يصرحون بذلك ، بل يقولون اننا نكتفي بما عندنا من كتاب و حكمة.

]واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا و يكفرون بما وراءه [ولكنهم يكذبون في ذلك ، ويدل على كذبهم ان هذا الكتاب لا يختلف عن كتاب الله الذي انزل عليهم.

]وهو الحق مصدقا لما معهم[

انما يكفرون بهذه الرسالة حتى لا يفقدوا زعامتهم و مكاسبهم ، والدليل على ذلك انهم كانوا يقتلون الانبياء الذين ارسلوا اليهم لذات السبب.

]قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين][٩٢] حتى موسى الذي تدعون انكم تتبعونه كفرتم به مع انه جاءكم بالبينات الواضحة.

]ولقد جاءكم موسى بالبينات[

ثم كفرتم به ، اذا فالتبرير بأن رسالة محمد (ص) نزلت على غيرنا ولذلك لا نؤمن بها تبرير خاطيء ، وان السبب الحقيقي هو المحافظة على المصالح الذاتية التي تعيش في لا وعيكم او حتى في وعيكم.

اما قصة عبادة العجل في اللاوعي ، حيث لم تزل جذور عبادة المال متأصلة في نفوسكم ، فكانت مع موسى اول مرة حيث انكم آمنتم به ظاهرا.

]ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون[

حيث خدعكم السامري بعد ان ذهب موسى لميقات ربه ، و دفعكم شعوركم السابق بقداسة العجل الى اتباعه.

[93]اما قصة عبادتكم العجل بشكل ظاهر فكانت بعد ان اخذ الله ميثاقكم.

]واذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا و عصينا]لماذا العصيان بعد السماع ؟ لانهم في الواقع لا يزالون يعبدون المال و رمزه العجل.

]و اشربوا في قلوبهم العجل[

حتى اصبح حب العجل في قلوبهم كالماء حين تشربه الارض اليابسة ، يمتزج مع كل ذرة من تراب الارض ، فكيف يمكن فصل الماء عن الارض . انه يشبه المستحيل ولكنه ليس مستحيلا لان الايمان يمكنه ان يطهر القلب من مزيج الكفر لو وجد هناك ايمان صادق ، وهؤلاء لم يشرب قلوبهم حب العجل الا.

]بكفرهم[

الحقيقي ، و ايمانهم الكاذب ، اذ ليس هنالك ايمان يتعايش مع الكفر ، و يامر بالكفر كلا.

]قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين[

الايمان الصادق يأمر صاحبه بالتضحية و تصديق الحق انى كان و بالتسليم لامر الله . وما عندكم ليس ايمانا بالمرة .. انما هو كفر ملبس بظاهر من الايمان.

العنصرية و الكفر بالملائكة

هدى من الآيات

في هذه المجموعة من الآيات ، لايزال القرآن يحدثنا عن العنصرية ، و مدى ارتباطها بحب الذات و الانانية ، وانها ليست في الواقع الا إطارا لممارسة الكفر ، بالرغم من ظاهر الايمان فيها . و الدليل على ذلك ، تشبث العنصريين بالحياة وعداؤهم لجبرائيل و ميكائيل ومن ثم عداؤهم لله و الرسل ، هذا العداء الذي يسبب الدمار عليهم.

بينات من الآيات

[94]العنصريون في التاريخ وفي عالمنا اليوم ، يغلفون انانيتهم المقيتة بغطاء من القيم الزائفة ، ليخدعوا الناس و البسطاء من اصحابهم . فالاسرائيليون قديما كانوا يدعون انهم حملة الرسالة ، و للمحافظة على هذه الرسالة لابد ان يدافعوا عن ذاتهم ويعملوا في سبيل دعم الذات بأية وسيلة ممكنة . وهم اليوم يدعون انهم حملة الحضارة للعرب ، (الحرية + التقدم (وعليهم ان يؤدبوا العرب الوحوش بأية وسيلة ممكنة حتى ولو كانت هذه الوسيلة اكثر وحشية من شرائع الغاب . و النازية كانت تدعي حمايتها للكنيسة ، وتقوم باعمالها تحتغطاء اسم الله ، و البيض في أفريقيا يقولون انهم طلائع الحضارة الغربية ، و الاستعمار قبلئذ كان يدعي انه يحمل العمارة والحضارة الى العالم.

ولكن هذا الخداع الذاتي سوف يذوب في وهج الحقيقة التي يذكرنا بها القرآن هنا ، حين يأمر هؤلاء بالموت في سبيل اهدافهم هذه .. فهل هم مستعدون لذلك ؟

كلا.

]قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس]وانكم تدافعون عن قيم الله في الارض اذا.

]فتمنوا الموت ان كنتم صادقين[

[95]ولكن هل يفعلون ذلك ؟ كلا.

]ولن يتمنوه ابدا[

لانهم يعرفون مدى الجرائم التي اقترفوها في حياتهم وانه ينتظرهم هنالك جزاؤهم العادل.

]بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين[

[96]وهؤلاء ليس فقط لا يتمنون الموت بل بالعكس يتشبثون بالحياة بعنف.

]و لتجدنهم احرص الناس على حياة[

انهم احرص على حياة ، اية حياة كانت ، بذل ام بعز ، بفقر ام بغنى ، بقيم او بدون قيم ، بل

انهم احرص من الكفار الذين لا يملكون اية قيم.

]ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة[

ولكن لو افترضنا انه عمر الف سنة فهل يتخلص من العذاب .. كلا.

]وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر والله بصير بما يعملون]من الجرائم وسوف يعاقبهم عليها عاجلا ام اجلا.

[97]ان عداء هؤلاء مع الرسالة الجديدة ناشيء في الواقع من عدائهم للحق ، فهم يعيشون حالــة التناقض بين الحق وبين مصالحهم الذاتية ، و الحق يمثله جبريل ملك الوحي ، ملك القضاء.

]قل من كان عدوا لجبريل[

فليعرف ان جبريل هو ملك الوحي وانه يهبط بالكتاب من السماء.

]فانه نزله على قلبك[

ولكن جبريل بدوره ليس الا مأمورا من قبل الله ، فهو لم ينزل الكتاب على النبي محمد (ص) من قبل نفسه ، بل.

]بإذن الله[

والدليل على انه من قبل الله كونه.

]مصدقا لما بين يديه[

من الكتب السابقة ثم انه هدى وبشرى لمن آمن به.

]و هدى و بشرى للمؤمنين[

[98]اذا فالعداء للحق يصعد الى العداء لجبريل ، ومن ثم لله ، وهل يستطيع ان يعادي البشر ربه ؟

]من كــان عـدوا لله و ملائكته و رسله و جبريل و ميكال فان الله عدو للكافرين]وسوف يعاقبهم الله اذ لا يمكن التفريق بين الله وبين ملائكته او رسله ، ولا بين رسله بعضهم عن بعض.

[99]و القضاء و القدر (السنن الثابتة و المتطورة في الحياة) متمثلة الان في رسالة محمد (ص. (

]ولقد انزلنا اليك ايات بينات[

والذين يخالفونها و يكفرون بالرسالة ، لا يستطيعون ان يؤمنوا بشيء.

]وما يكفر بها الا الفاسقون[

الذين يخالفون عهد الله.

[100]ولكن الى متى يخالف الانسان عهده مع الله.

]او كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم[

هو ذلك الفريق الذي يخالف العهد مصالحه ، مما يدل على انهم لا يتبعون الدين ولا يلتزمون بالعهود ، بل يتبعون - في الواقع - اهواءهم.

]بل اكثرهم لا يؤمنون[

بالحق انما بما تمليه مصالحهم الذاتية و شهواتهم و اهواؤهم.

السحر و الشعوذة .. نهاية المطاف

هدى من الآيات

بعد مرحلة القوة جاءت مرحلة الضعف في امة بني اسرائيل ، وبعدها كانت العنصرية ، ومن ثم تأتي مرحلة الخرافة المتمثلة في السحر و الشعوذة.

حيث ان الامة العنصرية تنغلق على ذاتها .. (وقالوا قلوبنا غلف) و تبتعد عن توجيهات الله ، وعن سنن التأريخ ، وتجارب الناس ، و تستكبر على الحق وليس امامها بعدئذ الا الهبوط الى حضيض السحر و الشعوذة.

فيتناول القرآن الحكيم هذه المرحلة بايجاز فيبدأ بالحديث عن ترك بني اسرائيل للكتاب ليبين الله انه السبب في تشبثهم بالسحر . لان من لا يمتلك تفسيرا صحيحا للحياة و رؤية علمية الى اهدافها ، يضطر الى البحث عن تفسيرات غيبية و رؤى باطلة.

وحيث يتحدث عن السحر ينفي القرآن قصة مختلقة من بني اسرائيل تزعم ان السحر من الله ، و ينهي الحديث ببيان ان التمسك بالكتاب افضل لهم من التشبث بالسحر.

بينات من الايات

] [101]ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون][١٠٢] وبسبب هذا النبذ وجد فراغ ثقافي في حياتهم فالتفتوا الى السحر و الشعوذة و الافكار الغيبية الباطلة فلم يجدوها الا عند الشياطين.

]و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان[

من السحر ، ذلك ان سليمان كان نبيا من بني اسرائيل و ملكا ، وكانت الشياطين تخدمه ، وقد خلفت وراءها مجموعة من الافكار الباطلة.

هؤلاء تركوا الكتاب المنزل من الله الذي كان هو الحق مصدقا لما بين ايديهم وما خلفهم ثم ذهبوا واتبعوا افكار الشياطين . هذه نهاية العنصرية انها لا تفرق بين افكار شياطين الملك ، ان كانت من نفس العنصر وبين الافكار الصحيحة التي يأتي بها نبي مرسل من الله.

والمشكلة انهم قالوا : مادامت هذه الافكار من بنات فكر الشياطين الذين كانوا حول سليمان ، وما دام سليمان نبي الله ، فاذا هذه الافكار هي من الله سبحانه ، ولكن الله نفى بشدة هذه المعادلة الباطلة.

وقال:

]وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر]و السحر هو الكفر لانه يربط الحياة بقوى غيبية غير الله سبحانه.

]وما أنزل[

السحر ابدا كما تدعي هذه الطائفة العنصرية.

]على الملكين ببابل هاروت و ماروت[

فهاروت و ماروت ما كانا ملكيــن ، ولذلك لا يمكن ان تنزل عليهما رسالة الهية.

]وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة[

و هل من المعقول ان يبعث الله نبيين يخدعان الناس ؟!

]فلا تكفر[

اذ ان نسبة السحر الى الله هو كفر بذاته.

و السحر لا يمكن ان يكون من قبل الله لانه يخالف مسيرة رسالاته و يتناقض معها تناقضا كليا ، اذ ان رسالات الله دعوة الى الترابط و الانتفاع في الحياة ، بينما هؤلاء يتعلمون من السحر التدابر و الضرر.

]فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه[

ولكن هذه التفرقة ليست حتمية اذ ان السحر لا يؤثر تأثيرا اكيدا في الحياة بل الله و سننه ، و ارادة الانسان هي التي تؤثر في الحياة.

]وما هم بضارين به من احد الا بإذن الله[

اي انهم لا يضرون اي احد بالسحر الا عبر قوانين الله ، فالله و رسالاته اجدر بالاتباع و عموما : السحر يضر ولا ينفع . بينما رسالات الله تنفع ولا تضر.

]و يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم[

و رسالات السماء تنفع الانسان في الاخرة بينما السحر لا ينفع هنالك شيئا.

]ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق[

اي ان اي نصيب لا يملكه الساحر في الاخرة لطبيعة اعماله المنافية للدين في الدنيا.

]ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون[

انه تفرقة و ضرر في الدنيا ، و خسارة في الاخرة.

] [103]ولو انهم آمنوا[

برسالات الله.

]واتقوا[

بتطبيقها على انفسهم تطبيقا سليما كان افضل لهم . اذ.

]لمثوبة[

و جزاء حسن.

]من عند الله خير لو كانوا يعلمون[

بيد ان العنصريين لا يفقدون هدى الرسالة وحدها بل يفقدون العلم ايضا ، و العلم بعيد عن السحر بعد الارض عن السماء.

هذه نهاية المطاف لبني اسرائيل ، وفي مراحل حياتهم عبر كثيرة لنا ، وللامم.

و خلاصة الدرس..

ان مخالفة رسالة السماء ومن ثم ضعف تطبق اوامر الله سيؤدي الى العنصرية ، ثم الى فقدان كل شيء ، وآخر ما يفقده الانسان بسبب العنصرية هو العلم.

نحن و الثقافات الدخيلة

هدى من الآيات

لا زلنا في اطار الحديث عن بني اسرائيل ، فبعد ان رافقناهم في مراحل تطورهم . نقف الان برهة نعتبر دروسا من حياتهم ، واهم ما يبين لنا القرآن في هذه الآيات ان يحذرنا من التأثر بالافكار الغريبة و الدخيلة.

و يعطينا القرآن اول درس من حياتهم من خلال النهي عن تكرار مقالتهم (راعنا) بتبديلها باخرى افضل منها وهي (انظرنا. (

ثم يؤكد للامة الاسلامية شخصيتها المتميزة عن الامم الاخرى يقول لهم ان اولئك يحسدونكم على فضل الله لكم ويقول : انكم تملكون افضل مما يملكون او لا اقل مثل ما يملكون من الهدى .

كما ينهي الامة الاسلامية ان تتورط في مشكلة تجسيم الله كما فعل بنو اسرائيل ، ويؤكد لنا ضرورة الحذر من التأثر بثقافتهم ، و يامرنا بالصلاة و الزكاة كقوة اساسية للامة ، و يحذرنا من استيراد انظمة الاخرين ، و الاعتماد على ثقافتهم.

بينات من الآيات

راعنا و انظرنا

اولا :دعنا نستمع الى المفسرين يذكرون لنا معنى راعنا و انظرنا ، يقول الشيخ الطبرسي (ره) : المراعاة ، و المحافظة ، و المراقبة ، نظائر . وعكس المراعاة : الاغفال ، ورعى الله فلانا اي حفظه و رعيت له حقه و عهده فيمن خلف ، و ارعيته سمعي اذا اصغيت اليه ، و راعيته يعني اذا لاحظته ، وجمع الراعي رعاء ، ورعاة ، ورعيان . وكل من ولي قوما فهو راعيهم وهم

رعيته ، و المرعي من الناس المسوس ، و الراعي السائس و استرعاه الله استخلفه ، اي ولاه امرهم يرعاهم ، و الارعاء الابقاء على اخيك والاسم الرعوي و الرعيا ،و راعني سمعك اي استمع (١. (

اقول : ويبدو من استخدامات الكلمة انها اشد من الحفظ اهتماما ، وألين من الرقابة جانبا ، فالراعي للغنم ، ليس يحفظه فقط بل ويهتم بشؤونه ، وهكذا السائس لبلده يهتم بشؤون رعيته ايما اهتمام . وبينما (الحفظ) هو منع الخطر عن الشيء او الشخص المحفوظ ، فان الرعاية تنطوي على معنى جلب المنفعة ايضا ، بل توحي لفظة المراعاة و الرعاية اذا استخدمت في العلاقة بين الامير و المأمور ، و الحاكم و المحكوم ، تخفيف القانون و تيسيره . اما كلمة انظرنا : فقال الشيخ الطبرسي عنها : و نظرت الرجل انظره نظرة بمعنى انتظرتهو ارتقبته (٢(

وقال الفخر الرازي : واما قول و انظرنا ففيه وجوه ، احدها : انه من نظره(١) مجمع البيان / ج ١ / ص ١٧٨

(2)مجمع البيان المصدر

أي انتظره . قال تعالى : (انظرونا نقتبس من نوركم) فأوهم تعالى بأن يسألوه الامهال ينقلوا عنه فلا يحتاجون الى الاستفادة (و اضاف) و ثانيها : انظرنا معناه انظر الينا ، الا انه حذف حرف الى ، ثم قال : وثالثها : قرأ أبي بن كعب (انظرنا) (أي بهمزة القطع) من النظرة اي امهلنا)١(

ثانيا : آراء المفسرين في معنى هذه الاية اختلفت اختلافا كبيرا ، و اذكر فيما يلي:

- 1ان هذه الكلمة كانت تستخدم عند اليهود ، فنهي المسلمون عن استخدامها . وسواء كانت تعتبر سبا عندهم اذا انهم كانوا يقصدون بها الرعونة او راعي الاغنام او لمجرد شياعها لديهم . اذ ان هذه الكلمة هي الشائعة سواء هذا او ذاك فان نهي القرآن عن استخدامها كان بسبب اليهود وقد جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر عليه السلام ان هذه الكلمة سب بالعبرانية (٢)و روي ان سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا اعداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لان سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لا ضربن عنقه . فقالوا : اولستم تقولونها ؟ فنزلت هذه الاية (٣)و جاء في حديث مأثور عن الامام موسى بن جعفر عليهما السلام و انزل:

")يا ايها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا " فانها لفظة يتوصل بها اعداؤكم من اليهود الى سب رسول الله وشنئكم " وقولوا انظرنا " اي قولوا بهذه اللفظة لا بلفظة(١ (الفخر الرازي / ج ٢ / ص ٢٢٤

(2)مجمع البيان / ج ١ / ص ١٧٨

(3)الفخر الرازي / ج ٢ / ص ٢٢٤

"راعنا " فانه ليس فيها ما في قولكم راعنا ولا يمكنهم ان يتوصلوا بها الى الشتم كما يمكنهم بقولهم راعنا و اسمعوا اذا قال لكم رسول الله قولا واطيعوا " و للكافرين " يعني اليهود الشاتمين لرسول الله " عذاب اليم " ان عادوا لشتمهم ، وفي الاخرة بالخلود في النار) (١(

و انطلاقا من هذا التفسير فان النهي عن استخدام كلمات متشابهة ، ربما يهدف الاستقلال الثقافي عنهم ، وكما يهدف عدم اعطاء ذريعة لهم للنيل من شخصية الرسول صلى الله عليه و آله.

- 2ان هذه الكلمة كانت تستخدم عند قريش في الاستهزاء او لا اقل عند تساوي المتخاطبين ، فجاء النهي عند استخدام مثل هذه الكلمات في حضرة الرسول كما يقول القرآن " لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضا "٣ - بالرغم من ان هذه التفاسير تبدو قريبة وربما كانت بعض ابعاد الاية الا ان هناك احتمالا اخرا هو ان يكون معنى المراعاة تخفيف الاحكام ، بينما يكون معنى " انظرنا " الامهال.

و بناء على ذلك فان المنهي عنه هو البحث عن تخفيف الاحكام الشرعية المأثورة - بدلا من ذلك - طلب المهلة و فرق كبير بينهما لما يلي:

لانه تختلف..

[104]تختلف المجتمعات القوية عن الضعيفة في ان الاولى طموحة ، يتطلع ابناؤها لتحقيق المزيد من الانجازات ، ولان طاقاتها محدودة فهي تبرمج اهدافها(١) البرهان / ج ١ / ص ١٣٩

لتحقيقها شيئا فشيئا ، بينما المجتمعات الضعيفة تحاول تحقيق واجباتها قدر الامكان ودون برمجة لانها تفقد تطلعاتها البعيدة .

ويبدو ان بني اسرائيل كانوا في اخريات حياتهم كأمة ، يطالبون بتخفيف واجباتهم ، و يكررون هذه الكلمة (راعنا) فهم يقولون : راعنا في الصلاة .. في الزكاة ..في الجهاد .. وفي كل شيء يأمرهم به انبياؤهم و قادتهم وهذه الكلمة تشبه كلمة اعفني من هذا.

ولعل الله ارادنا الا نكون ضعيفي الارادة ، فامرنا بأن نتطلب التدرج في تحقيق الواجبات لا الغاءها رأسا ، و اختار لنا كلمة انظرنا (اي امهلنا) بدل كلمة راعنا حتى تطبق الواجب وقال تعالى:

]يا ايها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا]ثم امرنا بإن نسمع و نؤمن لان الله اعد للكافرين عذابا اليما.

]و اسمعوا وللكافرين عذاب اليم[

[105]الامة الاسلامية متصلة بالله مباشرة ، وعليها ان تستقي قيمها و ثقافتها من رسالة الله التي اوحيت الى محمد (ص) ، و المشركون واهل الكتاب ليسوا بافضل من الامة الاسلامية ثقافة ، وليس هذا سبب ابتعادهم عن الثقافة الاسلامية .. بل السبب الوحيد هو انهمعنصريون وجهلاء ابتعدوا عن الاسلام لانه نزل على غيرهم ، ولو نزل في بيوتهم - فرضا - اذا لاحتضنوه.

]ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم]وهم يعتبرون الرسالة خيرا . فضل غيرهم به ، لذلك يتميزون غضبا وقال الله لهم ببساطة : الله اعلم حيث يجعل رسالته.

]و الله يختص برحمته من يشاء[

و الرسالة كأية رحمة اخرى ينزلها الله حسب ما يشاء لا حسبما يشاء الناس.

]و الله ذو الفضل العظيم[

يمكنه ان يعم الناس كلهم بفضله لو لم يتحاسدوا ، واذا اخلصوا لله عملهم فبامكان المشرك او اليهودي ان يصبح مسلما صادقا يتقدم على كثير من المؤمنين السابقين ذلك ان المجال مفتوح امام الجميع ، و رحمة الله واسعة تشمل الجميع.

رسالات الله و تطور الزمن

[106]ليست الثقافة الاسلامية اردى (حاشا لله) من ثقافة الاخرين ، واذا كان للاخرين كتاب فللمسلمين كتاب كريم ايضا . لان ينبوع فضل الله الذي انزل ذلك الكتاب انزل كتابا افضل من ذلك الكتاب لانه كتاب جديد فيه ما ينفع الحياة الحاضرة و المستقبل.

]ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير]النسخ هو : تطوير اسلوب الحكم بما يتناسب مع تطور الحياة بالرغم من وجود ذات الحكم ، مثل حكم الصلاة . كانت الى المسجد الاقصى في الشرايع السابقة ، فتحولت القبلة الى الكعبة . فالصلاة هي الصلاة ولكن تغيرت قبلتها . وقد يكون النسخ : هو بألغاء الحكم رأسا مثل المحرمات التي كانت على بني اسرائيل في الاكل فالغيت في الشريعة الاسلامية.

و الله حين ينسخ شريعة ينسخ قيادة تلك الشريعة ، او ذلك الشخص الذي يجسد تلك الشريعة ايضا . فموسى و عيسى) عليهما السلام) نسخت شرائعهما و انتهت فترة قيادتهما للناس ، و الاية بهذا المعنى تشمل الانسان القائد الذي يجسد آيات الله عمليا . اذا كلام الله يدل على ان لكل عصر قادته الذين يستمدون من الدين الاحكام المتصلة بظروفهم ، و الله قادر على ابداع آيات جديدة . و بعث قادة جدد . وقد جاء في النصوص تفسير هذه الاية بوفاة امام عادل و قيام امام اخر مقامه.

[107]ويجب ان لا يخشى الانسان من سلطة من يمثلون الافكار السابقة المنسوخة بفعل تطور الحياة ، بل يخشى الله سبحانه لانه هو المالك للسماوات و الارض ، وهو الولي النصير ، و ولي العالمين وحده.

]ألم تعلم ان الله له ملك السموات و الارض وما لكم من دون اله من ولي ولا نصير]وهذه الآيات والتي سبقت ، تأمر الامة بالتفكير جديا في التقدم المستمر ، وعدم الخوف من الجديد لمجرد ان الفكر الجديد قد لا يكون افضل من السابق ، وعدم الخشية من الناس المرتبطين بالاشياء القديمة ، بل الخشية من الله وحده.

و لقد وقعت هاتان الايتان في محيط الجزيرة العربية المحافظة و الراكدة وقع الصواعق . حيث استطاع الرسول ان يزلزل الاوضاع القديمة من الاساس ، ويبني مكانها كيانا جديدا بل صنع مجتمعا تقدميا يبحث عن الابداع و التطوير ، حتى احتاج هذا المجتمع الى ضوابط كابحة كالتي قالها الرسول (كل بدعة ضلالة. (

[108]ويأتي القرآن بمثل على طبيعة الثقافة القديمة ، كيف كانت ثقافة مشوبة بالشرك ، ويقول : ان اتباعكم او حتى استماعكم الى هذه الثقافات سوف يبعدكم عن الحق.

]ام تريدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل]اذ قالوا له (ارنا الله جهرة) ، هل تريدون ان تصبحوا كفارا بعد الايمان ، و مشركين بعد ان اصبحتم حنفاء.

]ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل[

[109]و اهتمام الكفار بكم ليس بهدف توجيهكم الى ما هو افضل لكم ، بل لاستلاب ما تملكون من هدى وخير ، وبالتالي من اجل تضعيفكم ، و خلخلة كيانكم ذلك لانهم اعداء لكم يحسدونكم على ايمانكم ، و يعرفون ان قوتكم كامنة في دينكم الجديد ، فيريدون القضاء على هذاالدين بكل وسيلة.

]ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم]تلك الانفس التي لا تحب الخير للاخرين ابدا.

]من بعد ما تبين لهم الحق[

وعرفوا انه بجانبكم ، وهنا امامكم موقف واحد هو تجاوز حسد هؤلاء ، وعدم الاعتناء به ، وعدم التفكير فيه لانه جدل.

]فاعفوا و اصفحوا[

لان الجدل الفكري مع هذا الطراز من الناس لا يجديكم نفعا ، فابتعدوا عن الجدل معهم.

]حتى يأتي الله بأمره[

و يظهركم عليهم و ينصركم.

]ان الله على كل شيء قدير[

[110]و خلال الفترة من الان وحتى يوم الانتصار يجب عليكم الاستعانة بنظامكم الصائب لانه خير ضمانة للمستقبل.

]و اقيموا الصلاة و اتوا الزكاة[

و اعملوا الخير الكثير.

]وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير]وهذا الدرس - يجب ان نضعه امام اعيننا في تعاملنا مع الثقافات الشرقية و الغربية اليوم ، و محاولات انصارهما من اجل اضلالنا عن ديننا بدافع حسدهم من قوتنا لو تمسكنا بديننا.

التسليم لله هو الميزان

هدى من الايات

ما هو موقف الامة الاسلامية من ثقافة اليهود و النصارى ؟

بين القرآن جانبا من هذا الموقف وفي هذه الايات يبين البقية:

لكي يدعم ايمان الامة بشخصيتها المتميزة يكرر القرآن القول بان المقياس عند الله ليس اسم اليهود او النصارى بل المقياس هو التسليم المطلق لله و تنفيذ اوامره.

وتوضيحا لهذه الفكرة يبين القرآن مدى التناقض الموجود و القائم بين اليهود و النصارى ، وكيف انهم اتخذوا دينهم وسيلة لتكريس تناقضاتهم ، حتى انهم اخذوا يوجهون عداءهم للدين ذاته و يحاربون مساجد الله . فهل هم مسلمون ؟

ثم انهم يتخذون لله ولدا فهل هم مؤمنون بالله ام مشركون ؟

وهم يجادلون الله في رسالاته فهل لهم الحق في ذلك ؟

اليهود والنصارى يريدون وبصراحة تصفية الرسالة الجديدة وعلى الامة ان تعرف انها تملك العلم و الهدى وعليها ان تدافع عنهما بقوة.

لان المؤمن الحقيقي هو الذي لا يحرف كتابه بل يتلوه حق تلاوته اما اولئك الذين يقرأون كتبهم ليحرفوها فهم الخاسرون.

واخر الدرس يعيد القرآن ذات الايتين اللتين بدأ بهما الحديث عن بني اسرائيل وفيهما ترغيب و ترهيب و خلاصة لحكمة تفضيل بني اسرائيل على العالمين في العصور السابقة.

بينات من الآيات

[111]هل ينخدع ربنا بالالفاظ ؟ وهل كل من قال انا مسلم ، او انا يهودي ، او نصراني يتقبله فورا و يدخله الجنة ؟ كلا انه يريد العمل الصالح.

ولكن لماذا يتصور بعض الناس ان الاسلام وحده كاف لربط احد الناس بالله ؟

الجواب :لان هؤلاء يتخذون الدين مجموعة اماني و احلام ، و يفسرون كلماته و احكامه بحيث تتمشى مع احلامهم الجميلة ، و امانيهم الطيبة ، انهم اتخذوا الدين مادة تخديرية تنسيهم لوقت ما مشاكلهم المعقدة ، و تؤملهم في حياة افضل ، تأتيهم بلا عمل ، بلا تضحيةوبلا عطاء .. اما الواقع فان هذا الدين موجود فقط في اذهانهم . اما عند الله فان الدين يتمثل في غير ذلك .. بل فيما يتناقض معه كليا لنستمع الى الله:

]و قالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك امانيهم]التي يخدعون انفسهم بها ، وليس هذا دينا من عند الله اذ فور ما تتعرض هذه الاماني الطفولية لوهج العقل تذوب.

]قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين[

[112]هل تريدون ان تعرفوا الدين الصادق ؟

]بلى من اسلم وجهه لله[

فلم يعبد في قلبه ولا في عمله غير الله ، هذا الشرط الاول ، و الشرط الثاني ان يعمل عملا صالحا.

]وهو محسن[

هذا الانسان قد تمسك بالدين الصحيح.

]فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[

اما من تمسك بالاماني فعله ان يخاف من المستقبل وسوف يحزن على ايامه التي قضاها في

الدنيا عاطلا عن العمل معتمدا على هذه الاماني الباطلة.

[113]ومثل هؤلاء مثل اليهود و النصارى الذين اتخذوا الدين اماني ، و طبقوه على احلامهم ، و كرسوا به تناقضاتهم التي ركبوها على دينهم الباطل.

]وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء [بينميا تجد ان كلا منهما يقرأ نفس الكتاب و يطبق ذات التعاليم.

]وهم يتلون الكتاب[

فلابد ان يوحدهم هذا الكتاب ، وهل من كتاب لله يفرق بين الناس ام انهم حرفوا معاني الكتاب و فسروه حسب اهوائهم ؟ وهذا يعني انهم لم يستفيدوا من كتابهم شيئا حيث ان الذين لا كتاب لهم ايضا يختلفون بعضهم على بعض.

]كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون][١١٤] لان هؤلاء يختلفون مع بعضهم في الدين فانهم يمنعون رفاقهم من دخول معابد اعدائهم ، و يشنون حربا دعائية ضدها ، ولكن السؤال الموجه لهم : انتم تخالفون بعضكم في قضايا مادية ، فلماذا تمدون هذا الخلاف الى الدين والى عبادة الله ؟!

]ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها]وبهذه الطريقة يشيعون حول المساجد جوا من الخوف و الريبة اذ يتهم كل فريق معبد الفريق الآخر مما يجعلون المساجد موضع التهم و الخلاف ولذلك:

]اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الاخرة عذاب عظيم]الخزي في الدنيا لطغيانهم على بعضهم ، و العذاب في الاخرة لتغييرهم الدين ، و تحريفهم مبادىء الوحدة و التضحية فيه.

تضخيم الاختلافات

[115]الخلافات القائمة بين الاديان ليست كبيرة ، وانما ضخمها اصحاب المصالح المادية من اجل الاكتساب منها . مثلا اختلاف القبلة . فالله هو الاله في السماء و الارض وفي المشرق و المغرب.

]و لله المشرق و المغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم]واسع ، تشمل قدرته كل الجهات ، وعليم بمن يعبده انى اتجه شرقا او غربا . المهم عند الله هو التسليم ، و مخالفة الشهوات العاجلة من اجله ، وليست الجهة التي يعبد الناس ربهم اليها . كل هذه من القضايا غير الاساسية التي يضخمها اصحاب الاختلافات ابتغاء الوصولالى مكاسب مادية من وراء الاختلاف.

[116]ومن السلبيات التي وقع فيها بنو اسرائيل ، وعلينا تجنبها : هو الشرك بالله.

]و قالوا اتخذ الله ولدا[

انطلاقا من تفكيرهم الضيق حيث لم يستطيعوا ان يفرقوا بين النبوة و البنوة ، و زعموا ان سمو درجة النبي و قيامه ببعض المعاجز يجعله ابنا لله.

]سبحانه بل له ما في السموات و الارض[

وليس هناك شيء اقرب الى الله من شيء في الخلق.

]كل له قانتون[

فليس هناك شيء او شخص يمكن ان يتعالى على الله باعتباره ولدا له بل كل شيء خاضع له لانه خلقه و يرزقه واليه مصير كل شيء.

[117]و الله حين خلق الاشياء لم يخلقها بشكل تنفصل منه الاشياء كما ينفصل المولود عن والدته بل وهب لها الخلق و ابدعها ابداعا ، فهو.

]بديع السموات و الارض واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون]فهو اذا لم يتخذ ولدا لابعد ان خلق الاشياء ولا حين خلقها.

[118]وقال الكفار اذا لم يكن عيسى ابنا لله ، واذا لم يكن موسى و عزير و هارون ابناء الله ، فلماذا خصهم الله سبحانه بالنبوة دوننا ؟

]وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله او تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم]اي ان كل الكفار على امتداد التاريخ اعتمدوا على هذه الحجة في تصورهم - شركاء لله - حيث شاهدوا بعض الاشياء اقوى من بعضها أو بعض الاشخاص اهم من غيرهم فقالوا : لو لم تكن هذه الاشياء انصاف الهة ، ولو لم يكن هؤلاء الهة فلماذا فضلوا على غيرهم ؟

]تشابهت قلوبهم[

و منطلقات تفكيرهم و الواقع ان المسيحية او اليهودية لم تتأثر فقط بالثقافة الاغريقية التي كانت تتصور ان للكون اربابا من دون الله ، بل وتأثرت ايضا بذات المنطلقات الفكرية التي كانت موجودة عند هؤلاء . اولئك لم يفهموا حكمة التفاضل في المخلوقات فزعموا انالحجر الكريم لم يفضل على الحجر العادي الا لانه يجسد جانبا من الالوهية ، وكذلك السلاطين لم يؤتوا الملك والقوة الا لان فيهم عرقا من الله (سبحانه. (

وهؤلاء ايضا لم يفهموا حكمة التفاضل وقالوا لو لم يكن عيسى الها فلماذا فضل علينا ، وكلمة

الله او اتاه البينات ولم يكلمنا او يؤتينا البينات يقول الله:

]قد بينا الايات لقوم يوقنون[

اي ان هنالك ادلة واسعة تنفي هذا التفكير ، ولكنها تحتاج الى عقول متفتحة و مثقفة و رفيعة المستوى.

[119]وكما ارسل الله الانبياء من قبل . دون ان يكونوا اولاد الله . ارسلك الله يا محمد (ص. (

]انا ارسلناك بالحق بشيرا و نذيرا[

ولكنك لست مسؤولا بعد اداء البلاغ عنهم.

]ولا تسأل عن اصحاب الجحيم[

فدورك اذا دور محدود ليس فيه ذرة من الالوهية ابدا.

مصدر الالهام

[120]وعليك يا محمد ان تستوحي افكارك و تفاصيلها من مصدر واحد هو الله ، ولا تخلطها بثقافات الديانات الاولى التي فسدت ودخلها الشرك والضلال ، ولا تفكر في ان اولئك سيرضون عنك لو اتبعتهم في شيء من افكارهم ، كلا.

]ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى]بالكامل وهذا يؤدي الى الغاء دورك.

]ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير [انهم لا يملكون الا اهواء ، وانت تملك العلم ومن يترك العلم الى الهوى فسوف يخسر المستقبل ، ولا ينصره الله.

[121]اليهود و النصارى حرفوا دينهم و فسروا نصوص كتابهم المقدس تفسيرا باطلا ولكن.

]الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به]ايمانا صادقا لانهم يتلون الكتاب ليفهموا ما فيه ثم يطبقوه ، ولا يتلونه لكي يركبوا عليه افكارهم الباطلة . اما الذين يتلون الكتاب ليجدوا فيه اية تؤيدهم فيأخذونها و يجلعونها شعارا يبررون بها تصرفاتهم الباطلة ، و يتركون سائر الايات ، فهم في الواقع يكفرون بالكتاب كفرا تاما.

]ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون[

لانهم سوف لا يستفيدون من هدى الكتاب ، ولا من تعاليمه الحياتية الصائبة.

[122]بنو اسرائيل كانوا يتلون الكتاب حق تلاوته ، ففضلهم الله على العالمين ، ثم تركوا ذلك ، فانتهى بهم المطاف الى الذل و المسكنة.

الان عليهم ان يتذكروا واقعهم السابق ، و يعودوا الى اسباب تقدمهم.

]يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم]من الكتاب و الرسول الذين بهما تقدمتم.

]و اني فضلتكم على العالمين[

بهذين العاملين الاساسيين للتقدم ، الكتاب و الرسول.

] [123]و اتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون]ولو ان بني اسرائيل تذكروا نعمة الله - وهي الرسالة - و اتقوا يوم الجزاء ، لاخذوا بجذور الدين واصوله الثلاث " التوحيد - الرسالة - الميعاد. "

هذه رؤية عامة يذكرها القرآن الحكيم في اخر حديثه عن بني اسرائيل ليبين ان جوهر الدين و جوهر تقدم الامم يتلخص في الايمان بالله و برسالاته و بيوم القيامة.

ابراهيم رمز الوحدة

هدى من الايات

انتهت الدروس التي استفدناها من تاريخ بني اسرائيل ، و اعطى القرآن من خلال سرده لقصصهم رؤية متكاملة لطراز من الامة التي انحرفت ، لكي تعرف المسار الصحيح الذي يجب ان تسير عبره الامة الاسلامية مستقبلا ، ويتجنبوا تلك الانحرافات الاسرائيلية.

وها هو القرآن يتحدث الينا عن ابراهيم لعدة اسباب:

اولا : ليعطي من خلال قصصه رؤية عن كفار قريش الذين يزعمون انهم ينتمون الى النبي ابراهيم (ع. (

ثانيا :ليركز على العامل المشترك بين بني اسرائيل و العرب و بالتالي بين الاديان السماوية الثلاث الرئيسية ، رسالة موسى فعيسى ثم محمد - عليهم السلام. -

فقبل كل شيء من هو ابراهيم وكيف اصبح نبيا ، رسولا و اماما للامم ..؟ ثم من هو الذي يستحق ان يكون اماما من بعده .. هل كل من انتمى نسبيا الى ابراهيم ؟

الكعبة التي يتوجه اليها المسلمون ليست من صنع العرب حتى يخالفها الاسرائيليون بل هي

بيت الله الذي بناه ابراهيم جد العرب وجد بني اسرائيل.

ولكن الكعبة هذه ليست محلا لتعليق الاصنام بل مقاما لعبادة الله وحده.

لان ابراهيم بناها وهو يردد كلمة التوحيد .. و يدعو الله ان يثبته عليها ، و ابراهيم دعا الله ان يبعث في ابنائه رسلا ، ولم يات النبي محمد صلى الله عليه و آله الا إستجابة لذلك الدعاء.

بينات من الآيات

كيف يختار الله رسله

والسؤال الذي يجيب عليه القرآن في بداية هذه المجموعة من الايات هو:

[124]هل يختار الله رسله عبثا .. ودون سابق اختيار ؟ كلا..

انه يعرضهم لاشد الاختبارات فان نجحوا فيها حملهم رسالته .. و ابراهيم عليه السلام ، مر بأختبارات صعبة فألقي في النار وصبر واخرج من بلده و صبر ، و ابتلي بأمر الله له ان يذبح ابنه فلبى الامر و..و.. وبعدئذ اختير اماما.

]واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات[

فيها اوامر صارمة وصعبة.

]فاتمهن قال اني جاعلك للناس اماما[

فابراهيم لم يحصل على الرسالة مجانا وبلا ثمن او لانه يملك عنصرا اجود من غيره او دما ازكى حتى يسري ذلك الدم في ابنائه بل اعطاه الله الرسالة بعد امتحان عسير .. ثم ان ابراهيم طلب النبوة لابنائه فرفض طلبه.

]قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين[

وفي ذريتك من هو ظالم يفشل في الاختبار و الامامة عهد الله و عهد الله لا يعطى للظالمين.

[125]هنالك حجتان تمسك بهما اهل مكة للدلالة على انهم اقرب الى الله من غيرهم وبالتالي فلهم الحق في السيادة على العرب.

الحجة الاولى : انهم ابناء ابراهيم و ورثة على البيت وقد ادحضها القرآن في الاية الاولى.

الحجة الثانية : ان الله من على بلدهم باليسار و الخير و كمثل كل الاغنياء في الارض يزعمون ان الله لم ينعم عليهم بالغنى الا لانهم اقرب الناس اليه سبحانه وفي الايتين التاليتين دحض

لهذه الحجة السخيفة يقول الله:

]واذ جعلنا البيت مثابة للناس[

مركزا للناس في الجزيرة يعودون اليه لما خرجوا منه.

]وأمنا[

حيث وفر الله فيه السلام حيث ينعدم السلام في سائر انحاء الجزيرة .. ولكن كيف وفر الله السلام في مكة .. لانه جعل فيها مقام ابراهيم .. و ابراهيم الجد الاعلى لاكثر العـرب ومـن ثـم رمـز الوحـدة بين الناس .. من هنا جاء الامر الالهي بتقديس مقام ابراهيم (وهو الحجر الوحيد الذي اعطي له قيمة بعد الحجر الاسود) وقال الله:

]و اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى[

اي اجعلوا صلاتكم عند مقام ابراهيم . بشرط ان تكون الصلاة لله .. ولكن مع تذكر فضل ابراهيم عليكم حيث اصبح وسيلة لهداية الله لكم.

الاسلام لا يقدس شيئا من دون الله ولكنه يعطي لكثير من الاشياء او الاشخاص قيمة التوسط بين العباد وبين فضل الله ، فالغني المنفق في سبيل الله واسطة لبلوغ نعمة الله " وهو المال الى الفقير " ويجب ان يشكر الفقير ربه قبل كل شيء و الامر بالخير و الداعي الى الله واسطة في هداية الناس ، و الانبياء هم وسائل يهدي بهم الله عباده صراطا مستقيما وحين نشكرهم او نقدرهم ليس شكرا ذاتيا ولا تقديرا الوهيا بل شكرا وتقديرا يسبقه شكرنا لله و تقديسنا له.

ومقام ابراهيم من ذلك النوع حيث اننا لا نقدسه بل نقف نصلي لله عنده تقديرا لمقام ابراهيم ومن ثم لابراهيم نفسه.

وما لبث ان ذكرنا القرآن الحكيم بهذه الحقيقة حيث نبهنا الى ان ابراهيم امر بأن يطهر بيت الله من الاصنام فكيف يمكن ان يتخذ مقامه صنما يعبد من دون الله.

]و عهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي[

من كل دنس ظاهرا او باطن و اعدوه..

]للطائفين و العاكفين و الركع السجود[

اذا ما نجده في البيت من وسائل الراحة و الامن فانما هي لتحقيق هدف البيت من الطواف و الاعتكاف و الركوع و السجـود وليست اكراما لعين ذرية ابراهيم الشرفاء.

[126]ويدل على ذلك ان ابراهيم دعا الله سبحانه ان يحدد نعمه في الصالحين فقط ، لانه تصور ان نعم الله في الدنيا دليل على حب الله و تقديره لصاحبها ولكن الله ابى.

]واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا امنا و ارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الاخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير]اذا النار تنتظر الكفار من ولد ابراهيم (ع) بالرغم من الثراء و الامن و السيادة التي يتمتعون بها الان .. لان كل هذه النعم اختبارات يتعرضون لها لتجربة مدى صمودهم امام ضغط الانحرافات التحريفية.

[127]كان البيت موجود و جاء ابراهيم ليرفع عليه البناء ولكنه امتزج بروح التوحيد و الامتثال الى الله ولم يكن بناء من اجل التفاخر او الرئاسة او بلوغ الشهوات " كما تصوره ذرية ابراهيم و سدنة البيت الحرام من قريش. "

]واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت و اسماعيل[

وهم يرددون هذا الابتهال:

]ربنا تقبل منا[

علمنا ، اذ العمل قد لا يتقبله الله اذا امتزج بالنية السيئة او تعدد هدفه فكان يهدف مرضاة الله ومرضاة الناس معا ، وقد جاء في اية كريمة " وانما يتقبل الله من المتقين. "

وحين كان يدعو ابراهيم وابنه بان يتقبل الله منهما - فانما كانا يخلصان عملهما لله.

]انك انت السميع[

لدعوات العباد.

]العليم[

لاهداف الناس التي ينوون تحقيقها من اعمالهم ، هل هي اهداف نقية لله خالصة لوجهه ام لا.

الاثار الايجابية للعمل الصالح

[128]وكان هدف ابراهيم وابنه هو ان يساهم عملهما في تعميق روح التوحيد في نفوسهم ، حتى يصبحا خاضعين كليه لله ، ذلك ان العمل الصالح الخالص يزيد الايمان و ينمي الارادة ، من هنا كان يسعى ابراهيم وابنه من خلال بناء البيت الى هذه الغاية ويقولان:

]ربنا واجعلنا مسلمين لك[

و العمل الصالح يساهم ايضا في صلاح ذرية الفرد وقد استهدف ابراهيم و اسماعيل من بناء البيت ان يصبح دليلا عينيا لاسلامهما ومركزا دينيا توحيديا لذريتهم وقالا:

]ومن ذريتنا امة مسلمة لك و ارنا مناسكنا و تب علينا انك انت التواب الرحيم]و العمل الصالح يزيد صاحبه هدى وعلما باسلوب العمل في المستقبل وقد جاء في آية قرآنية : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " وكذلك استهدف ابراهيم و اسماعيل من بناء البيت بلوغ المزيد من الهدى و معرفة المناسك ومن ثم استهدفا من و راء بناءالبيت ان يتوب الله عليهم وهو الهدف الاخر الذي يمكن تحقيقه بأي عمل صالح ان يغفر الله لصاحبه ما تقدم من تقصيره وذنوبه.

[129]المؤمن الصادق يعرف قيمة الايمان ومدى اهمية حياة الانسان ولذلك فهو يستهدف تعميم الايمان على الناس جميعا ليسعدوا به ، وكان ابراهيم و اسماعيل يدعوان الله بذلك ويقولان:

]ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم[

من انفسهم ، وليس غريبا عنهم كي يكونوا (اولاد ابراهيم (اول الناس ايمانا برسالته و الهدف من هذه الرسالة هو اولا:

]يتلو عليهم اياتك[

حتى يهتدي بها الناس اليك يا رب اذ ان اول الدين معرفة الله معرفة يزيدها النظر في آيات الله هدى:

ثانيا:

]و يعلمهم الكتاب[

نظاما لحياتهم و تشريعا لطقوس دينهم.

ثالثا : يعلمهم.

]و الحكمة[

وما يرتبط بالحياة العملية من دساتير خلقية و آداب اجتماعية.

رابعا:

]و يزكيهم[

ينمي فيهم روح الايمان و الارادة و يربيهم على مكارم الاخلاق و يحولهم الى طاقة هائلة لتعمير الحياة و بسط السلام و الرفاه في ارجاء الارض.

]انك انت العزيز الحكيم[

بعزتك قادر على استجابة دعائنا و بحكمتك تحقق لنا ذلك لانه يتناسب مع الهدف العام لخلقه الكون.

السبيل الى فض الخلاف

ابراهيم كان مسلما وقد بنى هو و ابنه البيت ، وكان جد العرب الاعلى لكي يكون مركزا للتوحيد وعلينا ان نتبع ملة ابراهيم وكل من يخالف هذه الملة سيكون سفيها لانه يبتعد عن الخير في الدنيا و الاخرة.

و ابناء ابراهيم كانوا موحدين ولم يكونوا يهودا او نصارى و المطلوب منا العودة الى توحيد ابراهيم حتى تنتهي خلافاتنا مع اليهود و النصارى و نؤمن في نفس الوقت بكل رسالات السماء ، وكل المرسلين من قبل الله هذا هو خط التوحيد والذي ينحرف عنه فهو المتمرد.

ان الله هو المقياس في تصرفاتنا ونحن لا ندعي اننا مسؤولون عنكم بل نحن وانتم سواء امام الله ، ولكل منا عمله الذي يجازى عليه عند الله.

ان خط الله وهو خط ابراهيم (ع) لم يكن الشرك كما لم يكن اليهودية و النصرانية اذا دعنا نتبع هذا الخط..

هذه خلاصة هذه الايات ولقد تكررت اية واحدة فيها (١٣٤ - ١٤١) لدلالة على ان لكل عهد شريعة ومنهاجا قد يكونان صحيحين لذلك العهد و لكنهما خاطئين لعهد اخر و لرجال اخرين ، وهذه اشارة الى ان بعض تفاصيل اليهودية و النصرانية لا تصلحان للمرحلة الجديدة التي ابتدأت مع رسالة النبي محمد (ص. (

ملة ابراهيم

[130]ابراهيم كان رمز التوحيد و طريقه هو طريق التوحيد في التأريخ ، وكانت ثمرات توحيده ظاهرة للناس ، فكره الحسن يلهج به كل لسان و يحاول كثير من الناس ان ينتموا اليه ، و يشرفهم هذا الانتماء امام الناس انه مصطفى في الارض ، اما عند الله فهو من الصالحين ، اذا ما يضر الانسان ان يسير على خط ابراهيم التوحيدي..

]ومن يرغب عن ملة ابراهيم[

و طريقته المتمثلة في التوحيد.

]الا من سفه نفسه[

و اراد لنفسه الخسارة.

]ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الاخرة لمن الصالحين [131][كيف اصطفى الله ابراهيم ولماذا ؟ ببساطة لانه اسلم كليا لله.

]اذ قال له ربه اسلم[

فلم يتردد لحظة بل استجاب بقناعة تامة.

]قال اسلمت لرب العالمين[

[132]قد تحول اسلام ابراهيم الى مسيرة توحيدية في التأريخ كما تحول شخص ابراهيم الى امة مسلمة ، وهذا هو فضل الله على ابراهيم وعلى كل من يسلم مخلصا وجهه لله.

]و وصى بها[

بهذه الطريقة (الملة. (

]ابراهيم بنيه[

وكما في ذرية ابراهيم الجد الاعلى لليهود وهو يعقوب الذي وصى هو الاخر اولاده وقال:

]يعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين[

وجعل هذا الدين هو الاسلام لله و اخلاص العبودية.

]فلا تموتن الا وانتم مسلمون[

اذ قد يسلم الانسان فترة من الوقت ولكنه ينهار امام مطارق الشرك والكفر فيأتيه الموت وهو كافر ، اسلامه ضعيف لا ينفعه في الدنيا ولا في الاخرة انما على الانسان ان يبقى مسلما في كل مراحل حياته حتى لو ادركه الموت غفلة يكون قد استعد للقاء ربه ولا يفاجيء بالعذاب الاليم

.

[133]وقد جسدت في يعقوب ذاته هذه الوصية اذ بقي مسلما رغم الصعاب حتى اذا حضره الموت وصى بالتوحيد ابناءه.

]ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله ابائك ابراهيم و اسماعيل و اسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون]كم كانت فرحة يعقوب وهو يودع الحياة و يرى ثمرات تربيته لاولاده على التوحيد امام عينيه اذ يجدهم يعاهدونه على الاستمرار في خط التوحيد.

[134]ولكن هل يعني اسلام ابراهيم وذريته الصالحين عنا شيئا حتى تكتفي بانتمائنا الجسدي اليهم (نحن العرب واليهود) كلا .. اذ اولئك قد ذهبوا باعمالهم الصالحة لانفسهم وعلينا ان نعمل لانفسنا.

]تلك امــة قــد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون]اذ لا تجزون بجرائم الطالح فيهم ولا تكافؤون بحسنات الصالحين.

[135]وبقي السؤال : ما هي ملة ابراهيم ؟ هل هي اليهودية ام النصرانية ام الشرك الذي يتجسد في العرب ؟ ان هذه الفرق الثلاث تدعي انتماءها الى ابراهيم فأيتها الصادقة ؟ يقول القرآن كل هذه كاذبة.

]و قالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا بل ملة ابراهيم حنيفا]رافضا للكفر و الشرك اللذين كانا في عصره.

]وما كان من المشركين[

كما تدعي العرب انه كان مستقيما يرفض كل انواع الشرك سواء الذي كان موجودا عند اليهود او النصارى او عند العرب.

[136]وحين نقول بالعودة الى ملة ابراهيم لا يعني حذف دور الانبياء العظام الذين جاؤوا من بعده بل نريد تكريس هذا الدور وتجاوز العقبات القشرية التي وضعت في طريقه و حصرت كل مجموعة من الناس نفسها على نبي ولم تنتفع من رسالة الاخرين بفعل العنصرية او التعصب الاعمى.

اذا عودوا الى جوهر رسالة الله المتمثلة في توحيد ابراهيم الرافض لكل انواع الشرك وفي الايمان بكل الانبياء.

]قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب و الاسباط]الانبياء من ولد يعقوب لقد انزل على هؤلاء رسالة التوحيد.

]وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم[

من تفاصيل الشرائع الاجتماعية و التعاليم الخلقية و ..و.. وقولوا.

]لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون[

مسلمون لله الواحد و خاضعون لكل من يرسله ربنا سواء كان عبريا ام عربيا من عائلتنا ام من الابعدين.

[137]هذه هي رسالة الله الحقيقية ، وغير هذه هراء وتمرد وانحراف .. اذ لم يرسل الله رسالة عنصرية الى الناس ، ولم يأمر بالعصبية الجاهلية ، ولم يفرق بين انبياءه و رسالاتهم.

]فان امنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا[

وسيكون حالهم حال المؤمنين السابقين بلا تمييز بينهم..

]وان تولوا فانما هم في شقاق[

فهم المنحرفون عن الخط العام المستقيم ، وليس انتم .. و الانحراف لا يقاس بالكثرة والقلة بل بمقياس اخر هو مدى الالتزام بخط الفطرة ، والحق و صراط الله المستقيم ، لذلك علينا الا تشككنا قلتنا ، ولا توحشنا عن الحق كثرة الناس حول الباطل .. و نبقى ننعتهمهم بالمتمردين الانفصاليين اهل الشقاق ، و نبقى نتحداهم وآنئذ..

]فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم[

يسمع دعاء من يدعوه و يعلم ضمير الصامتين.

التوحيد جوهر الوحدة

[138]انهم يدعون الى العنصرية او العصبية الجاهلية ، و يوحدون انفسهم تحت هذا اللواء او ذاك .. و يصبغون تحركاتهم و افكارهم و مجتمعهم بلون اليهودية او النصرانية وقد يتخذون لانفسهم اصناما رموزا لوحدتهم ولنوع من الثقافة او المصلحة اوالارض التي ينتمون اليها.

ولكننا نؤمن بصيغة واحدة ونرفض كل الالوان الاخرى ، نرفض كل الرموز كل الاصنام كل شيء يميزنا عن بعضنا و يهدد وحدتنا .. نحن نؤمن بصبغة الله صبغة التوحيد وكفى .. لاندع لحواجز اللغة او المصلحة او الاقليم او اللون او العنصر .. او ..او ..ان تفرقنا عن بعضنا تطلي كل جماعة

منا بلون مختلف كلا .. نحن نطلي انفسنا بصبغة واحدة وهي..

]صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون]لا نعبد هذه الالوان المختلفة التي فرقت الناس وجعلت منهم مجموعات متحاربة - يهود - نصارى - عرب - والى آخره..

[139]وحين نقول صبغة الله لا يستطيع احد ان ينكر علينا ذلك اذ ننتمي آنئذ الى الله فاطر السموات و الارض..

]قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم[

لا نقول لكم تعالوا اتبعونا .. بل ندعوكم و انفسنا الى الله .. الواحد ، دون تمييز بين عنصرنا و عنصركم..

]ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون[

كما ندعوكم انتم ان تكونوا مخلصين له .. اذا الدعوة هذه ليست كالدعوات السابقة مشوبة بالشرك او الضلالة .. او العنصرية او الاقليمية او غيرها .. انها دعوة خالصة لله رب كل الناس.

[140]وهذه الدعوة هي بالذات دعوة الانبياء .. اذ مستحيل ان تكون رسالة السماء موجهة لناس دون ناس .. لان الله رب كل الناس .. خلقهم جميعا .. من ذكر و انثى ، ولم يتخذ بعضهم ابناء له فكيف يفرق بينهم بل ان ما نجده في رسالات السماء من العنصرية و المصلحيةوغيرها .. انما هي من اضافة الناس انفسهم اضافوها الى الدين كذبا وظلما .. وقالوا : ان الانبياء هم الذين جاؤوا به من قبل الله..

]ام تقولون ان ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب و الاسباط كانوا هودا او نصارى قل ءانتم اعلم ام الله]الله يقول انهم لم يكونوا سوى انبياء لله .. وانتم تدعون انهم كانوا هكذا .. بل حتى هم يعرفون ان العنصرية والاقليمية وغيرها هي اضافات ذاتية افتروا على الله بها بعد علم بكذبها ، و حرفوا تعاليم الدين التي تنافيها..

]ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون]انهم حملوا رسالة الله .. و استؤمنوا عليها ولكنهم خانوا الامانة .. و غدا سوف يمثلون للمحاكمة امام الله العزيز الحكيم.

لقبلة رمز وحدة الامة

هدى من الآيات

سورة البقرة بينت شخصية الامة الاسلامية فبدأت تقسم الناس الى ثلاثة اقسام : (المتقون ثم الكافرون و المنافقون) ثم وضحت كثيرا من صفاتهم وبعئدئذ تناولت بني اسرائيل كمثل لامة مؤمنة و شرحت قصصهم والعبر التي يجب ان نستفيدها من حياتهم . وآخردرس اعطانا القرآن في هذا المجال هو :ضرورة التمسك بهدى القرآن وعدم التأثر ببني اسرائيل ؟

ذلك لانها امة قد انحرفت و لانها امة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

وبذلك ضمن القرآن الحكيم ، للامة الاسلامية (شخصيتها) الثقافية و استقلالها عن الامم السابقة . وها هو يبين لنا رمز هذا الاستقلال الظاهر ، و المتمثل في القبلة التي توحد بين ابناء الامة الاسلامية ، و تعطي لهم كيانا متماسكا ، ومن جهة ثانية تميزهم عن سائر الامم.

يبدأ القرآن هذا الدرس بتكرار الاية التي سبقت و اوضحت : بان تطور الزمان قد يؤثر في اختلاف التشريع ، وان على الامة ان تفكر تفكيرا مستقلا و دون التأثر بسلبيات الامم السابقة (تلك امة قد خلت. (

ثم يحدثنا عن ان القبلة ليست مقدسة بذاتها بل لان الله امر بتكريمها . واذا غير الله القبلة زالت قداسة القبلة الاولى ، وليس لله سبحانه حلول في القبلة حتى تقدس تقديسا دائما.

وبين مدى العلاقة بين القبلة وبين شخصية الامة التي جعلتها مهيمنة على سائر الامم و شاهدة عليها تراقب مدى تطبيقها لقيم الحق.

واما القبلة السابقة فكان تشريعها بهدف محدد ومحدود ، هو : اختبار مشركي قريش لمعرفة مدى صدقهم في قبول رسالة الله التي تدعوهم الى اتباع قبلة اعدائهم اليهود.

القبلة التي شرعت للامة هو المسجد الحرام ، الذي له كرامة يعرفها اهل الكتاب ولكنهم يكتمون الحق ، انطلاقا من اهوائهم وتفكيرهم العنصري الضيق.

ولقد كان الاحرى بهم ان يطبقوا كتابهم على انفسهم ، لا ان يحرفوا الكتاب حسب اهوائهم . وبالرغم من ان قبلتك حق لا ريب فيه ، فلا يعني ذلك ان تتورط الامة في العنـصرية ، و تزعم انها بمجرد التوجه الى القبلة الحق تكون هي اكرم عند الله من غيرها.

كلا ، ان هذه شعائر ظاهرية لا اكثر ، و مقياس الكرامة هو التسارع الى الخيرات ، فمن كان اسبق الناس الى الخير كان اكرم عند الله ، وبعد ان يؤكد القرآن التوجه الى المسجد الحرام يحذر الامة من الضعف امام الاعداء او الخشية منهم ، لان من كان مع الحق يجب ان لا يخشى احدا.

بينات من آيات

الانفصال نقطة الانطلاق

[141]وضمن هذا الاطار الفكري ، بين القرآن الحكيم حقيقة هامة هي اننا ومن اجل ان نبني حياة جديدة علينا ان ننفصل نفسيا من التأثر بالواقع المعاش ، بالرغم من ان للواقع القائم ثقلا هائلا ، وضغطا نفسيا واجتماعيا كبيرا ، و لكي يبين لنا القرآن انكم امة جديدة ذات قبلة جديدة ، ذكر لنا سلفا ان كل امة لها دورها التأريخي ، و واقعها الخاص بها ، وعلى الامم الاخرى ان تستقل عنها ، وان تبني حياتها وفق احتياجاتها و ظروفها ، ذلك ان الله لا يسألنا عما فعل

الاخرون بقدر ما يسألنا عما فعلنا نحن ، فان فعلوا خيرا فلانفسهم ، وعلينا ان نعمل الخير لانفسنا و وفق حاجات عصرنا ، وان فعلوا شرا فلانفسهم ، وعلينا الا نعمله و نبرر ذلك بانهم فعلوه ، اذ قد يكون الذي عملوه في عصرهم خيرا لانفسهم وهو شر بالنسبة الى واقعنا ، من هنا قال الله لنا بصراحة:

]تلك امة قد خلت لها ما كسبت[

من خير او شر.

]ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون[

بل انما تسألون عما تعملون انتم ، ولذلك يجب ان تستقلوا في تفكيركم ، وفي اعمالكم ، مادمتم انتم مجزيين بذلك دون غيركم.

[142]و السفهاء وحدهم يزعمون ان الواقع يجب ان يبقى بحجة انه الحق . كلا ، اذ قد يكون الواقع حقا بالنسبة الى عصر دون عصر ، و قداسة القبلة ليست بسبب ان الله موجود في مكان القبلة . بل لان الله امر بذلك ، يقول الله تعالى:

]سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها]زاعمين ان الواقع السابق للامة حيث كانوا على قبلة معينة ، يجب ان يظل قائما ، كلا.

]قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم]الصـراط المستقيم في العمل هو : وجه الله سبحانه ، وليس التوجه الى المشرق و المغرب.

[143]والتوجه الى الكعبة لم يشرع في الاسلام ، الا لكي يجعل الله من المسلمين امة متميزة عن الامم الاخرى ، و رقيبة على مدى تطبيق سائر الامم لتعاليم الله ، في الحق و الحرية ، و العدالة الاجتماعية ، ولو كانت الامة متجهة الى قبلة اهل الكتاب لم تكن قادرة على توجيه مشركي العرب المعتقدين بالكعبة ، كما أنها لم تكن تستطع توجيه اليهود و النصارى الذين كانوا يزعمون انفسهم - انئذ - اصحاب القبلة ، و يعتقدون ان المسلمين مجرد اتباع لهم ، لذلك قال الله تعالى:

]وكذلك جعلناكم امة وسطا[

هداكم الله الى صراط مستقيم هو : الصراط الوسط بين تطرف الناس ذات اليمين وذات الشمال ، بين تطرف اليهود الى المادية ، و تطرف النصارى الى الرهبانية ، بين الحرية الفوضوية وبين الاستبداد الغاشم ، بين ظلم الفرد للجماعة ، وبين ظلم الجماعة للفرد ، و الهدف من الامة الاسلامية ان تكون شاهدة على مسيرة الامم الاخرى.

]لتكونوا شهداء على الناس[

ماذا يعني الشهداء على الناس ؟

لعله يعني ان تكونوا موجهين لهم نحو مبادىء الرسالة ، بمثل ما يكون الرسول شهيدا عليكم.

]ويكون الرسول عليكم شهيدا[

فذات المسؤولية التي يتحملها الرسول تجاهكم ، يجب عليكم ان تتحملوها تجاه الامم الاخرى ، وفي مناسبات اخرى تحدث القرآن عن مسؤوليات الرسول تجاه امته وعلينا مراجعتها لنعرف مسؤولياتنا تجاه الامم الاخرى.

اما القبلة السابقة فلم تكن الا قبلة مرحلية ، و لهدف محدد هو اختبار الذين آمنوا من مشركي العرب ، ليعلم الله هل تركوا حساسياتهم الساذجة تجاه الرسالات الالهية السابقة ، وتجاه قبلتهم بيت المقدس ام لا.

]وما جعلنا القبلة التي كنت عليها[

التوجه الى بيت المقدس.

]الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه[

و يعود الى حساسياته العصبية التي كانت تنكر على الرسول الاشتراك مع اليهود و اعداء العرب السابقين ، في اي مظهر من المظاهر الاجتماعية ، او شعيرة من الشعائر الدينية.

و التخلص من الحساسية العصبية ليس سهلا.

]وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله[

و تركوا التقاليد البالية امتثالا لامر الله ، اما صلواتكم التي توجهتم بها الى بيت المقدس فهي محفوظة عند الله.

]وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم][١٤٤] كان الرسول يعلم : ان الكعبة هي قبلة المسلمين ، وانما كان بيت المقدس قبلة مؤقتة ، فكان ينتظر من الله امرا بالتوجه الى الكعبة ، ولكنه لم يكن يطلب ذلك صراحة ، لانه رسول ، عليه ان يبلغ رسالة الله ، دون ان يدخل فيها من ذاته شيئا ، فحقق الله للرسول ما احب وقال:

]قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام

وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره]اي باتجاه المسجد الحرام وبالتالي الكعبة ، اما اهل الكتاب فلا تفكروا فيهم ، اذ انهم يعلمون الحق ويخالفونه.

]وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم]ولكنهم يخالفون علمهم ، بيد ان الله سوف يجازيهم على ذلك .

]وما الله بغافل عما يعملون[

لماذا لا تتوحد القبلة ؟

[145]و يبقى السؤال : لماذا لا توجد قبلة واحدة لكل المنتمين الى رسالات الله ، أليس من الافضل ذلك ؟

بلى ولكن المشلكة ان كثيرا من هؤلاء ادخلوا اهواءهم في الدين ، فلذلك يغيرون الدين حسب هذه الاهواء:

]ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل ءاية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض]لانهـــم يحرفون رسالات السماء باهوائهم و مصالحهم ، وعليك - يا رسول الله - ان تتصلب في اتباع الحق ، ولا تستسلم لضغوط اهل الكتاب لانك صاحب الحق والعلم.

]ولئن اتبعت اهواءهم من بعدما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين]ومن اشد ظلما للناس و لنفسه من قائد يخالف علمه الى اتباع الهوى.

[146]وهؤلاء الذين يحرفون الكتاب و يفسرونه تفسيرا مخالفا للحقيقة لا ينقصهم العلم بالكتاب ، ولكن ينقصهم الايمان الكافي به ، و شجاعة مقاومة اهوائهم.

]الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون][١٤٧] لذلك يجـب الا نجعل هؤلاء المنحرفين ، قدوات لنا ، او نرتاب في الحق ، انطلاقا من عدم ايمان هؤلاء ، لانهم يخالفون علمهم ، وانما لكي نتبع عقولنا ، و لنتعرف على الحق الصادق الذي اوحى به الله.

]الحق من ربك فلا تكونن من الممترين[

الشاكين في الحق.

ان من يدعي انه رجل دين ، بشر قد تستهويه الشهوات فيحرف الدين ، بعد العلم به ، ولذلك يجب الا يكون اتباعنا لرجل الدين مطلقا ، بل في حدود هدى عقولنا ومعرفتنا بقيم الرسالة الالهية.

ان الرجل العادي لا يسعه ان يغلق منافذ العلم على نفسه ، و يتكل اتكالا كاملا على اصحاب العلم . لان هذا قد يورطه في المهالك ، وانما عليه ان يكشف بعقله و فطرته اي نوع من الرجال يتبعه ، اولئك الذين زهدوا في الدنيا ، و حددوا شهواتهم ، و خالفوا اهواءهم ،و اطاعوا الله طاعة تامة ، اولئك وحدهم جديرون بالاتباع.

كيف نضمن الفلاح ؟

[148]هل نستطيع ان نضمن الفلاح لانفسنا بمجرد ان نتوجه شطر المسجد الحرام ؟ وهل نستطيع ان نؤكد ان كل من يتوجه شطر بيت المقدس في النار ؟

كلا ..ان هذه مظاهر خارجية للعبادة ، اما العبادة الحقيقية فهي : التسليم لله ، و العمل الصالح ، وكلما كانت الامة اكثر عملا من بالصالحات كانت اقرب عند الله ، اما القبلة فهي مظهر خارجي لا اكثر.

]ولكل وجهه هو موليها[

بعضهم شطر المسجد الحرام والبعض الى القدس.

]فاستبقوا الخيرات[

هذا هدف رسالات الله ولا يكونن جدلكم في القبلة ، بديلا عن منافستكم لبعضكم في الخيرات.

]اين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير]وهناك في محكمة الله لا ينظر الله الى جدلياتكم بل الى مقدار الصالحات في ميزان اعمالكم.

[149]ولكن هذه الفكرة لا تدعونا الى تمييع الحدود ، والقول بإن المؤمن يمكنه ان يصلي الى اية جهة شاء ، كلا ، انما عليه ان يلتزم بحدود الشريعة ، ولكن دون ان يكتفي بها ، لذلك تجد القرآن يعود ويأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام ويقول:

]ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون]انه الحق ، بالرغم من مقاومة ائمة الضلال لك على ذلك ، وما دام الفرد على الحق ، فلابد الا يأبه بمعارضة الناس ، مهما كانوا كبارا عند انفسهم ، و عريقين في الدين.

[150]ثم يؤكد القرآن ضرورة الاستقلال الفكري و عدم الخوف من الناس في الحق ويقول:

]ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم]هؤلاء الظالمون سوف يحتجون عليكم ، سواء

اتبعتم الحق ، ام الضلال ، وعليه فلابد من اسقاط هؤلاء عن الحساب وعدم التفكير فيهم ، يبقى الناس فهم يعرفون مدى أهمية المسجد الحرام ، وكانوا يتساءلون لماذا انتم باقون على التوجه الى بيت المقدس بالرغم من أهميته الثانوية ، الان عودوا الى المسجد الحرام ، حتى لا تكون لهـؤلاء الناس حجــة عليكــم ، خصوصا وهم على الاغلب ممن يكرم المسجد الحرام.

ومادام الانسان على حق وقد استطاع ان يجلب اكثر الناس الى صفة عن طريق النهج السليم و العمل الصالح ، فعليه الا يخشى طائفة من الناس ، هم طبقة المحرفين للدين.

]فلا تخشوهم و

اخشون ولأتم نعمتي عليكم و لعلكم تهتدون [

التخلص من الظالمين نعمة ، و الاستقلال الفكري و الاجتماعي (بتميز القبلة) نعمة ، و هداية في ذات الوقت الى القبلة الافضل ، المسجد الحرام.

بشر الصابرين

هدى من الايات

للامة الاسلامية شخصية مميزة عن سائر الامم حتى تلك التي تحمل رسالة الله واهم ما يميز هذه الامة ، الرسالة التي هي نعمة من الله ، كما ان ابتعاث الرسول فيها نعمة اكبر سبقت نعمة القبلة و اعطت للعرب شخصية رسالية مستقلة.

و النعمة كلما ذكرت كلما دامت والسبب ان ذكر النعمة يؤدي الى الاعتزاز بها و الاهتمام بكل العوامل المساعدة لبقائها ، واما كفران النعمة فهو اقرب وسيلة لزوالها . ولذلك فعلينا ان نتذكر ابدا تلك الرسالة التي انعم الله بها على الانسان فأخرجه من الظلمات البالنور.

ولكن التذكر وحده لا يكفي ، اذ علينا ان نسعى من اجل الاحتفاظ بها ، وذلك عن طريق الصبر و الصلاة و الجهاد في سبيل الله و الاستهانة بالموت من اجل الرسالة ، و تحمل بعض التضحيات البشرية والامنية و الاقتصادية ، و الرضا بها نفسيا . كل ذلك سوف يستنزل علينا صلوات الله و رحمته.

ان هــذا الدرس اهم ما يجب على الامة ان تتعلمه من القرآن ، لكي تقاوم التخلف و الكبت.

علينا الاستقلال عن سائر الامم و لنجــعل رمز الاستقلال القبلة و نستعين بالصبر و الصلاة (لا بالمساعدات الخارجية) و نرخص في الله انفسنا ، ونستعد لحياة التقشف . آنئذ فقط يلهمنا الله الصلوات و ينزل علينا رحمته و ننتصر على الضعف و الهزيمة.

ان القبلة الجديدة اتمام لنعمة الرسالة ، ذلك ان الرسالة وضعت الامة في مصاف الامم ذات الرسالة الالهية ، ولكن اشتراكها مع تلك في القبلة كان ينقص استقلالها الثقافي و الاجتماعي

و السياسي ، والان تم ذلك ، لذلك قال الله تعالى : " ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون " يعني ان يتذكر المسلمون هذا الاستقلال وان يلتفوا حول رسالة الله اكثر فأكثر ، اذ كلما التفوا حولها اكثر كلما اثبتوا استقلالهم و جمعوا صفوفهم.

بينات من الايات

لذلك يذكرهم الله برسالته و يقول:

[151] [كما ارسلنا فيكم رسولا منكم]

وليس من بني اسرائيل حيث كانوا يترقبون ان تنزل الرسالة فيهم ، ويقوم هذا الرسول بعدة امور هي اهداف كل رسالة:

[يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم و يعلمكم الكتاب و الحكمة و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون] هذه الرسالة هي التي فجرت طاقاتكم ، و وحدت كلمتكم ، وكانت نواة حضارتكم.

ان كل امة بحاجة الى رسالة ، وكلما كانت هذه الرسالة اقرب الى الحقيقة كانت الامة اقوى و اجدر بالنهوض ، و رسالة الامة الاسلامية فيها تلاوة آيات الله التي تعني تنبيه الانسان الى الله ، و تعميق روح الايمان فيه كقاعدة ثابتة لبناء كيان الامة التوحيدي.

و بعد التوحيد عن طريق توجيه الانسان الى آيات الله ، تأتي مرحلة التربية الرسالية (و يزكيكم) لتصفية النفس من سلبياتها ، من الفردية ، من الجهل ، من العجلة ، من الجبن ، من ضعف الارادة .. و ضعف الهمة و.. و.

ان الامة التي لا تستطيع ان تتغلب على سلبياتها الخلقية ، لا تستطيع ان تنتفع بالشرائع و النظـم ، وان تفوق الامة في الارادة ، و التزامها الواعي شرط اساسي لتطبيق اي نظام او قانون.

وفي المرحلة الثالثة تحتاج الامة الى نوعين من الانظمة . نوع ثابت يسميه القرآن بكتاب ، و نوع يتطور وفق الزمان يسميه بالحكمة حسب ما يبدو لي.

هذه هي الشروط الثابتة لبناء اية امة ، وقد استوفت الرسالة الالهية كل هذه الشروط و زيادة ، حيث فتحت امام الامة آفاقا جديدة من العلم.

[و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون] وعلينا ان نتذكر هذه الرسالة باستمرار ، و نتذكر حاجتنا اليها و فائدتها لنا.

[152] [ولذلك علينا ان نشكر الله على نعمة الرسالة حتى ينفعنا الله بها ، و نشكر الله عليها

ليزيدنا نورا فيها ، ولا نكفر بهذه النعمة التي من الله بها علينا ، فالنعمة التي تكفـر تزول.

]فاذكروني اذكركم و اشكروا لي ولا تكفرون[

اي لا تكفروا بي و بنعمتي.

بماذا نستعين ؟

] [153]يا أيها الذيــن آمنــوا استعينوا بالصبر و الصلاة ان الله مع الصابرين[

الفكرة الحضارية او الرسالة هي نواة تكوين الامة ، و مسؤولية الامة تجاه هذه الفكرة هو التذكر و الشكر ، ولكن الامة بحاجة الى طائفة من الصفات الضرورية و ابرزها الاستعانة بالصبر و الصلاة ، تلك الاستعانة التي امر الله بني اسرائيل بها حين امرهم بالواجباتالصعبة.

و الصلاة هي الانقطاع عن الحياة ، والتوجه الى الله ، بحيث لا يتكل الانسان على اي شيء في الدنيا ، بل على الله و العمل الصالح ، واية امة ارادت ان تتقدم فعليها ان تستمد القوة من الله ، من الايمان به ، و العمل بتعاليمه ، و الاستفادة من نعمه علــى الانسان . ومن دون هذا الانقطاع تفقد الامة تعاليم رسالتها ، و قواها الذاتية ، و تتكل على القوى الخارجية ، و تكتب بذلك نهايتها المحتومة.

و الصبر هو التطلع الى المستقبل و التضحية ببعض النعم في الحاضر من اجل تحقيق افضل منها في المستقبل ، ومن هنا فمن دون رؤية المستقبل و التطلع الى تحقيقه لا تتقدم الامة ، اذ التقدم بحاجة الى) استثمار) بعض الطاقات في (سوق الزمان) حتى يحصل الربح في المستقبل.

الفلاح يدفن تحت الارض رزقه من الحبوب ، و يبذل عليه جهده ، و يتطلع الى المستقبل حيث تتحول الارض الى حقل خصيب ، فلولا جهده و انتظاره هل كان يستطيع ان يحصل على الانتاج ؟ كلا .. كذلك الامة عليها ان تصبر .. ان تعمل للمستقبل البعيد .. وفيما يلي يضرب لناالقرآن بعض الامثلة على الصبر.

اذا ارادت ان لا تموت

[154]اول الصبر الرضا النفسي بالتضحيات وجعل القرآن المضحين في سبيل الله في قمة المجد الاجتماعي ، ليشجع الباقين على المسير في دربهم.

]ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون]احياء لان القتل قد نقلهم من حياة الى حياة ، من حياة الجسد الى حياة الروح ، من الحياة الظاهرية الى الحياة الحقيقية ، فلم تكن الشهادة الا بابا دخلوا منه الى رضوان الله ، و احياء لانهم وفروا فرصة الحياة للالوف من الناس.

ان الكرامة حياة ، و الحرية حياة ، و العيش السعيد حياة ، ومن يموت في سبيل هذه المبادىء الدينية فهو حي في تلك المبادىء . ان الشجرة التي اقتلعت لكي يتحول كل فرع منها الى شتيلة لشجرة جديدة لم تمت ولن تموت ، و الحبة التي دفنت تحت الارض لكي تتحول الى سنبلة فيها مئة حبة لم تمت ولن تموت.

و الشهيد الذي وقف حياته لمبادئه الرسالية ، حيث كان حيا ثم قتل لتحيا تلك المبادىء ، انه لم يمت ، وان امــة تكــرم شهداءها وتحي ذكراهم و تجعلهم احياء بينها هي امة حية لا ولن تموت.

[155]الذي مضى شهيدا حي يرزق عند الله ، و الباقون من ابناء الامة سوف يقضون ظروفا صعبة تتمخض عن حياة مجيدة ، وعلى الامة ان تكون مستعدة ابدا للتضحيــة ، حتــى تستــطيع التقدم و تفجر طاقاتها ، و تزيدها تلاحما وصلابة وعمقا.

]ولنبلونكم بشيء من الخوف و الجوع و نقص من الاموال و الانفس و الثمرات [انها حياة البناء التي لابد ان تقضيها الامة قبل البدء بالمسيرة الصاعدة ، انها فترة تجميع الرأسمال عند من يريد ممارسة التجارة ، او فترة الدراسة لمن يريد ان يصبح خبيرا او عالما ، انها بالتالي فترة العطاء وفي هذه الفترة يجب ان تتحلى الامة بالصبر.

]و بشر الصابرين[

] [156]الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون]ان هؤلاء لا ينظرون الى المصيبة ذاتها ، انما ينظرون اليها ضمن اطار عام يجعلونها فيه ، فهم يتصورن - خلال المصيبة - انهم مجندون في سبيل الله ، قد شروا انفسهم ابتغاء مرضاته ، ولا يجوز لمن باع بضاعة ان يطالب بها . و المسلم الحقيقي لا يفكر في جسده او فيماله ، لانه قد باعهما سلفا ، ثم انهم يتصورون النهاية السعيدة التي تنتظرهم لو صبروا على المتاعب في سبيل الله.

ان اية خسارة في سبيل الله يجب ان توضع في اطار النظرة التاريخية العامة التي تجعل من الخسارة شيئا تافها امام المكاسب الكبيرة التي تنتظر الامة في المستقبل ثم اليس البشر اساسا لله ، خلقه الله لا من شيء . ثم جعله شيئا مذكورا ، اوليس يعود اليه بالتالي -عاجلا او آجلا - فلماذا الجزع على المصيبات وهي لابد منها بصورة او باخرى.

[157]ما جزاء الصابرين ؟ وما ثوابهم ؟

انه صلوات من ربهم ، ان الله قريب منهم و يحبهم ، و يبعث اليهم ببركاته و يرحمهم ، فيخفف عنهم الصعوبات في المستقبل.

ان اول جــزاء يتلقاه الصابر من ربه تأييده عند صبره ، و تخفيف مصيبته عليه ، و دعم معنوياته ، ثم تعويضه على خسارته و زيادته من فضله.

]اولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة واولئك هم المهتدون]اما الذين لا يصبرون على المصيبة فهم لا يهتدون الى الحق ، لان حبهم لذاتهم يحجب عنهم الحقائق ، و يجعلهم لا ينظرون الا الى الجوانب السهلة من رسالة الله ، و بالتالــي يحرمــون من هذه الرسالة ، فالله لم يبعث دينا هكذا كله راحة و نوم و مصالح!!

ان هذه هي اهم نواقص الامة الاسلامية اليوم ، حيث كفرت برسالة الله ، و هجرت الصيام و الصلاة ، و خافت الاستشهاد ، ولم تتحل بالصبر ، و لذلك فقد تخلفت وذلت ، و توالت عليها النكبات و المصائب ، ومتى ما اردنا الفلاح فعلينا بالعودة الى هذه التعاليم بحزم و قوة.

كيف اخفى علماء السوء شعائر الله ؟

هدى من الايات

تذكر نعم ا لله ، والتي في طليعتها القبلة رمز الاستقلال ، وكذلك الرسالة ، كبرى نعم الله على الامة ، هذا التذكر كان محور حديث الدرس السابق ومن ثم الاستعانة بالصبر و الصلاة.

وهنا يذكرنا الله بالصفا و المروة حين يسعى الحاج بينهما ، ليتذكر هاجر التي صبرت في الله ، وكانت عاقبتها النجاح في الدنيا و الفلاح في الاخرة.

بيد ان الامة قد تتوانى و تخور عزيمتها ، وهناك قد تتشبث ببعض الافكار السلبية التي تبعدها عن الجدية في العمل ، و التضحية في سبيل الله ، وهذه الافكار يبلورها طائفة من انصاف رجال الدين الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يكتمون عن الناس هدى الله.

وبعد ان يحذرهم االله عاقبة هذا الامر ، يبين ضرورة التوحيد وعدم الشرك . وكل اتباع لغير الله شرك ، بل وكل سماع عن غير الله شرك . و يصور لنا الله يوم القيامة حيث يتبرأ التابعون عمن اتبعوهم بعدان تخلى اولئك عنهم . كذلك في الدنيا علينا الا نضــيع رؤيتــنا و نتبع كل من تحدث عن الله ، بل نفكر فيمن نتبعه وكيف نتبعه.

ان هذا الدرس يكمل الدرس السابق الذي كان يتناول شروط نهوض الامة ، اذ ان من ابرز هذه الشروط ، وحدة التوجيه الثقافي للامة,

بينات من الايات

[158]كما جاء في آيات اخرى ، امر الله ابراهيم بان يسكن زوجته هاجر و ابنها في مكة بواد غير ذي زرع ، وان يرحل عنهم . فاستجاب واستجابت زوجته لامر الله ولما استقرت هاجر في مكة ، عطش ابنها الرضيع . فطلبت له الماء فلم تجد قطرة ماء . وكان هناك جبلان ، اخذت هاجر تطوف بينهما ، وتحاول ان تجد احدا تستنجد به وعندما أكملت هاجر سبعة اشواط من

طوافها بين الجبلين ، وجدت آثار الماء تحت قدمي ابنها اسماعيل . فشرع الله السعي بين هذين الجبلين ، تخليدا لذكرى هاجر و رمزا لسعي الانسان في سبيل الله . بيد ان المشركينوضعوا حجرين على الصفا و المروة و اختلقوا لهما قصة خرافية واخذوا يعبدونهما و يسعون من اجلهما ، و ظن بنو اسرائيل ان الطواف بين الجبلين اصبح وهما لمجرد ان الجاهلين وضعوا عليهما صنمين ، فجاءت الاية تنفي هذا الاعتقاد يقول تعالى:

]ان الصفا والمروة من شعائر الله[

الشعيرة هي الرمز ، حيث انها دليل على الايمان ، و يطلق على محل العبادة ، كالصلاة و الحج وما أشبه ، قال الطبرسي - ره - في مجمع البيان وكل معلم لعبادة من دعاء او صلاة او غيرهما فهو مشعر لتلك العبادة لله.

]فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما]و يسعى بينهما.

]ومن تطوع خيرا[

كما فعلت هاجر ، و سعى بين الصفا و المروة كما سعت.

]فان الله شاكر عليم[

رسالة العلم

[159]العلم رسالة يجب ان تخدم هدف الانسان في الحياة ، اما اذا استغل العلم في سبيل مصالح خاصة فسوف ، يصبح وبالا على المجتمع و وبالا على صاحبه ، وسوف يفتضح هذا العالم الوبيل امام الناس و التأريخ ، فيعتزله الناس و يصبح منبوذا.

كانت قصة الصفا والمروة مثلا لما يستطيع ان يفعله العلم اذا استخدم في سبيل اضلال الناس ، حيث حولوه من شعيرة دينية الى عمل محرم.

وبعد هذه القصة وحتى اليوم نجد علماء سوء ، يكتمون الحقائق عن الناس ، ولا يؤدون امانة العلم العظيم.

]ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات و الهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب]الكتاب لم يأت لطائفة معينة ، انما جاء هدى للناس جميعا ، والذين يكتمون تشريعاته المفصلة (البينات) او قيمة الموجزة (الهدى) عن الناس الذين نزل الكتاب لهم.

]اولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون[

[160]وامام علماء السوء فرصة للعودة الى رحمة الله و رحمة الناس ، هي قيامهم بثلاث اعمال:

الاول : التوبة بالاعتراف باخطائهم السابقة ، و الاستعداد لتصحيحها.

الثاني : القيام فعلا بتصحيح الاخطاء و اصلاحها.

الثالث : بيان كل الحقائق حتى التي تخالف مصالحهم ، او مصالح قومهم.

]الا الذين تابوا و اصلحوا و بينوا فأولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم [ان ضرر عالم السوء في المجتمع كبير ، اذ انه قد يسبب انحراف خلق كثير من الناس ، ولذلك فان توبة الله عليه دليل على ان الله تواب رحيم . والا فليس هينا التوبة على مثل هذا الرجل الذي استغل سلاح العلم ضد الناس.

جزاء علماء السوء

[161]عودة رجل العلم الفاسد صعبة جدا ، لانه سوف يشهر امام الناس كمجرم ، وهو قد عمل المستحيل في سبيل ان يضفي على نفسه قداسة علمية ، ولكنه لو مات هكذا غير تائب فانه سيموت كافرا ، وجزاؤه عند الله اسوأ.

]ان الذين كفروا و ماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله و الملائكة و الناس اجمعين][١٦٢] [خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون]هؤلاء لا يعتني بهم ابدا ، بل يهانون اشد الامتهان بعدم النظر اليهم ابدا . ذلك لان هؤلاء حرفوا الدين في الدنيا طلبا للجاه و الرئاسة و العزة امام الناس ، و الله يجازيهم بالذل و الصغار.

لثقافة التوحيدية

[163]ان على المسلم ان يستوحي ثقافته من الله او ممن امر الله ، ذلك التوحيد الخالص و القرآن هنا يبين لنا سبب هذا التوحيد (الثقافي) ويقول:

]و الهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم[

فمادام الله واحدا ، فان علينا طاعته و اتباع رسوله ، دون ان نختار لانفسنا موجهين و نتبعهم.

ولكي يكرس القرآن الكريم هذه الفكرة ، يوجهنا الى فطرتنا ، و يأمرنا بالنظر الى آيات الله في السماء و الارض ، خصوصا تلك التي تعكس رحمة الله الواسعة و المستمرة.

ان هذه الايات تدعونا الى التوجه الى الله وحده ، و نبذ الانداد من دونه ، وهذه الدعوة تتصل بفطرة الانسان الراسخة في حب من احسن اليه ، ومن اوسع احسانا من الله علينا ؟

]ان في خلق السموات و الارض[

بهذه العظمة و الروعة و الدقة.

]و اختلاف الليل و النهار[

بما فيه من آية الرحمة ، و الحكمة ، و القدرة..

]و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس[

من نقلهم ونقل امتعتهم الى اقاصي الارض.

]وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها]كيف انه نظم الحياة بشكل يتبخر الماء ، فيتحول الى سحب تحمله الرياح و تسوقه الى حيث الحاجة اليه ، فتمطر مـاءا عذبا نافعا للزرع و الضرع ، حاملا معه كل ما ينفع الارض.

]و بث فيها من كل دابة[

ذات حياة ، فاذا بالنملة واصغر منها ، واذا بالفيلة و اكبر منها ، واذا بالطيور و السباع و الاسماك ، كل قد هداه الى رزقه ونفعه ، وكل قد خلق لهدف محدد ، ثم و فرت له وسائل الحياة لاجل مسمى.

]و تصريف الرياح و السحاب المسخر بين السماء و الارض لايات لقوم يعقلون]الذين يستثمرون طاقة العقل التي وضعها الله فيهم ، وحدهم ينظرون من خلال هذه الايات الى رحمة الله الواسعة و الدائمة ، و يعرفون ان الله هو وحده الجدير بالحب و الطاعة و العبادة ، وانه دون غيره من الشركاء يجب ان يتخذ وليا.

[165]الذين لا يعقلون لا ينتفعون بعقولهم بالرغم من وجودها عندهم ، هؤلاء لا يعرفون ربهم ، لانهم ينظرون الى الكون نظرة جامدة متحجرة لا تتجاوز ظواهر الكون ، دون تعمق في دلالات هذه الظواهر . ولذلك فهـم لا يؤمنون او يؤمنون ، ايمانا سطحيا بالله.

]ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله]لنظرتهم الجامدة ، فهم يقدسون الشمس - مثلا - بدلا من ان يعبدوا الذي خلق الشمس و نظم سيرها ، وهو الله . لماذا ؟

لانهم ينظرون الى ظاهر الشمس دون ان يستدلوا بها على ربها ، كذلك فهم يرتبطون باصحاب المال و الجاه و العلم ، دون ان يفكروا ان هؤلاء جميعا عباد لله ، وان الله هو الذي اعطاهم هذه النعم ، فأولى بهم و اجدر ان يتصلوا بالله مباشرة ، ولا يسمحوا لانفسهم بأن يستعبدها هؤلاء الوسطاء.

]و الذين آمنوا اشد حبا لله [

فبالرغم من انشاء علاقة بينهم وبين اصحاب المال و الجاه و العلم ، فهم لا يسمحون لانفسهم بالعبودية لهؤلاء ، بل يبقون ابدا مرتبطين بالله ارتباطا اشد.

]ولو يرى الذين ظلموا[

انفسهم ، باتباعهم الانداد ، و تفضيل الانداد على الله حين خالفوا اوامر الله ابتغاء مرضاة الانداد ، من اصحاب الثروة و السلطة . و المعرفة لو يرى هؤلاء الحقيقة فانهم يكفون عن غيهم وذلك.

]اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا وان الله شديد العذاب]فان كان حب الانداد طلبا للقوة فان القوة لله جميعا ، وان كان خشية العذاب فان الله شديد العذاب.

[166]هؤلاء الذين يتبعون من دون الله و يتخذون اندادا مع الله ، هؤلاءضعفاء و خونة ، اذا انهم سوف يتبرأون من التابعين دون اي وازع من ضمير .. ولو يرى تابعوهم تلك الحالة.

]اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا[

جميعا التابعون و المتبوعون.

]العذاب و تقطعت بهم الاسباب[

فلم يجدوا حبلا يعتصمون به ولا ملجأ يأوون اليه.

] [167]وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة[

الى الحياة الدنيا او الى الوراء.

]فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا[

هذه عاقبة الذي يتخذ من دون الله اندادا يحبهم كحبه لله ، و يتبعهم من دون امر الله ، العاقبة هـي النـدم . حيث يقول ياليت الزمان يعود بي الى الوراء فارفض اتباعهم ولكن هيهات..

]كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم[

اذ انهم عملوا اعمالا كثيرة ولكنها كانت اعمالا باطلة بسبب اتباعهم فيها للانداد ، فيتحسرون عليها ولكن الحسرة لا تنفعهم ولا تخفف عنهم عذاب ربهم.

]وما هم بخارجين من النار[

ان الامة الاسلامية لابد ان تنعدم فيها مراكز القوى (الانداد) ، وتتجه في خط واحد الى الله ، في صراط مستقيم ، ولا يتبع احد فيها احدا الا بإذن الله ، ويكون حبه لله اشد من حبه لمن حوله من الناس الاقوياء و الضعفاء على حد سواء . انه مجتمع حر بكل ما في الحرية من معنى . وفي الدروس التالية تفصيل لهذه الحقيقة.

كيف نحطم اصنام الكفر ؟

هدى من الايات

مجتمع الحرية هو مجتمع التقدم و الرفاه ، و يربط القرآن الحكيم بين التحرر من اتباع شياطين الثروة و السلطة والدين ، وبين الانتفاع التام بما في الحياة من نعم طيبة.

هؤلاء الشياطين ، يحرمون على الناس الطيبات من الرزق ، لجهلهم او لانهم يريدون ان يستأثروا بها ، او لانهم يحاولون ابقاء الناس ضعفاء مقهورين ، ولكن الله خلق الاشـياء لنا ، وعليـنا ان نعمل من اجل الحصول عليها و نتجاوز العقبات من اجلها.

ان الآية الاولى تدعو الناس صراحة الى الاستفادة مما في الارض وهي دعوة ضمنية لكسر حواجز العبودية التي يرتبط في القرآن بأمر الشيطان الذي يأمر بالسوء و الفحشاء ، و يضرب في الآيات التالية ، مثلين لاتباع الشيطان : الاول اتباع الاباء ، و الثاني : اتباع رجال الدين المحرفين لكتاب الله ، وفي الاية الاخيرة يتحدث القرآن عن النظرة القشرية التي اوصى بها هؤلاء العلماء المزيفون ، فجردوا الدين من روحه و نوره و هداه.

ان الامة الاسلامية اليوم تعاني من التخلف ، الذي ليس في واقعه ، سوى صورة مبسطة لعدم الاستفادة من نعم الله . بسبب التقاليد البالية ، و النظريات السخيفة في تفسير الدين ، وعليها ان تتقدم حتى تتمتع بنعم الله ، و تكسر حواجز التقليد ، وما يسمى بالدين وهوابعد ما يكون عنه.

بينات من الآيات

[168]اولا : وقبل كل شيء ، لابد ان نضع للحرية هدفا ساميا . و الحرية في المجتمع الاسلامي والتي دعت اليها آيات الدرس السابق (رفض الانداد) ذات هدف هو : الانتفاع بنعم الله وبكل صراحة يوجه الله خطابه الى الناس كل الناس المؤمنين والكافرين قائلا:

]يا ايها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا[

و بذلك يقـرر الاصـل فـي الاشياء الحلية حتى يثبت انها حرام و التعبير بـ)مما في الارض) تعبير يدل على الاطلاق ، مما يعكس لنا نظرة القرآن الايجابية الى الحياة.

ان الله يريد ان نتمتع بالحياة ، ولكن الشيطان يمنعنا ، انه يوجد الحواجز بين الانسان وبين نعم الله ، وعلى الانسان الا يتبع الشيطان ، وان يقاومه . كما أن الشيطان يزين للناس الغايات الخبيثة و الاسراف و الطمع وكلها تمنع من الانتفاع السليم و التام من خيرات الارض.

]ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين[

انه لا يريدكم ان تنعموا بالحياة فلماذا تتبعوه ؟ الذين يمنعون زراعة الارض بحجة انها لفلان هم اعداء الانسان ، والذين يمنعون التجارة و يضعون حواجز في طريق الله هم اعداء الانسان ، والذين يمنعون عمارة الارض هم اعداء الانسان وعلى الانسان الا يتبع اعداءه.

لقوانين الشيطانية

[169]وعند تبسيط القوانين و التقاليد التي يضعها الشيطان ، نجد انها تنقسم الى ثلاث فئات ، فبعضها (سوء) يمنع من الانتفاع بالحياة مثل : اكثر القوانين الزراعية و التجارية الحديثة التي وضعت للحد من نشاط الناس ، و للابقاء على سيطرة مراكز القوى (شياطين الارض) على مقدرات الناس.

وكمثل بسيط كان رؤساء العشائر الذين كانوا يتمتعون بقوة البطش يقتطعون لانفسهم ارضا يسمونها بالحمى ، و يحرمون على الناس رعي اغنامهم فيها ، ثم تطورت و اصبحت تلك الاراضي ملكا لاقرب الناس الى السلاطين (الاقطاعات السلطانية (ثم تطورت و اصبحت اراضي اميريةمرتبطة بالبلاط الملكي ، ثم تطورت و اصبحت ملكا لاصحاب رؤوس الاموال الضخمة او ما اشبه.

ترى ان كل هذه القوانين منعت من زراعة الارض ، وبالتالي من انتفاع الانسان بها ، و السؤال كيف استطاع هؤلاء الشياطين منع الناس من الانتفاع بما جعل الله لهم حلالا ؟

الجواب : انما فعلوا ذلك في ظل القوانين و الاعراف و التقاليد الباطلة ، فاذا ايمان الناس و اتباعهم لتلك القوانين و الاعراف و التقاليد هو السبب غير المباشر لعدم انتفاعهم ، اذا فلنكفر بالشيطان و بأنظمته الجائرة.

و " السوء " يتطور الى " الفحشاء " اذ انه يكرس السلطة و الثروة بيد طائفة من الناس يستغلونهما في الظلم.

و الفحشاء تلبس بثياب الدين ، بفعل تعاون الانتفاعيين (المستثمرين) مع بعض من يسمى بـ (رجال الدين) الذين يحرفون كلام الله ، و يكتمون الكتاب.

]انما يأمركم بالسوء و الفحشاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون]احد مظاهر " السوء "

الانظمة الباطلة ، وكما ان ابرز مظاهر " الفحشاء " الظلم الاجتماعي الذي يقع - عادة - بسبب تلك الانظمة و التبرير الديني لتلك الانظمة وذلك الظلم.

عبدة الآباء

[170]و كمثل لذلك اتباع الاباء المنحرفين.

]واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله[

وفيه رفاه للجميع ، و تحرر للطاقات ، و استفادة من نعم الحياة.

]قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا[

اي ما تعودنا عليه من حياة ابائنا.

]اولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون[

[171]ومثل هؤلاء مثل البغاء حيث يرددون ما يقوله الاخرون دون ان يفهموا منه شيئا ، انهم فقدوا قدرتهم على التفكير و الاستقلال الثقافي.

]ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق[

اي يصيح مقلدا لصياح الاخرين.

]بما لا يسمع[

اي بصياح لا يفهمه هو.

]الا دعاء و نداء[

مبهما وغير معروف لديه ، وهؤلاء في الواقع

]صم بكم عمي[

لان الفائدة مــن الاذن ، و اللــسان ، و العين هي المعرفة و العقل ، وحيث لا عقل فلا احساس ..

]فهم لا يعقلون[

ان هذا مثل واحد لهؤلاء الناس الذين لا يتمتعون بالاستقلال ، ولا يتحررون من عبادة الانداد من دون الله ، و بالتالي لا يستغلون موهبة العقل عندهم.

[172]ومثل اخر يضربه القرآن من واقع اتباع رجال الدين المحرفين لكلام الله ، وهم صورة اخرى للتخلف الاجتماعي حيث يبررون الانظمة الفاسدة ، وقبل ان يضرب القرآن هذا المثل يعود ليأمرنا بالانتفاع من نعم الله.

]يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم[

وربما توجه الخطاب للمؤمنين هذه المرة ، بينما كان الخطاب عاما في الآية السابقة ، ربما كان ذلك ليدحض القرآن فكرة ان الدين تخلف و رجعية ومنع للطيبات ، كما كان يوهم تصرف رجال الدين المحرفين ، و ليثبت العكس وان الدين يأمر بالتقدم ، و التطور ، والطيبات.

]و اشكروا لله[

على هذه النعم ، وذلك بأن تكرموا هذه النعم ، و تقدروها ، و تحترموها.

]ان كنتم اياه تعبدون[

[173]ولا تقولوا لكل نعمة من انعم الله هذا حرام بدون علم.

]انما حرم عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير وما أهل به لغير الله]ما ذبح على الاصنام تقربا لها ومع ان هذه امور محرمة الا انها سوف تحلل في ظروف معينة.

]فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم]ان من يصيبه ضرر كبير بامتناعه عن اكل هذه المحرمات لا اثم عليه ، بشرط : ان يبقى ملتزما نفسيا بحرمتها ، فلا يحب اكلها (ولا يبغيها (، و بشرط : الا يتجاوز اكله لها حدود الاضطرار ، فيأكل بقدر ما يدفع عن نفسه الضرر الكبير فقط.

جزاء كتمان الحق

[174]هذه هي محرمات الدين في الاكل .. انظر كيف وسعها اليهود حتى كادوا ان يحرموا كل شيء ، ثم كتموا حكم الله في الاكل بغيا واتباعا لمصالحهم.

]ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب و يشترون به ثمنا قليلا اولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار]اذ سوف يكتشفون غدا (بعد الموت او حتى قبله (ان اللقيمات القليلة التي اكلوها تحولت الى نار ملتهبة ، ذلك ان الاعمال السيئة تتجسد بعد الموت.

]ولا يكلمهم الله يوم القيامة[

استهانة بهم ، وتصغيرا لقدرهم ، وهم الذين حرموا على الناس الطيبات تأييدا للسلطات ، و طلبا للجاه عندها ، واذا لاجاه لهم عند الله ابدا.

]ولا يزكيهم[

بالرغم من انهم يحسبون انفسهم من رجال الله ، و يزكون انفسهم حتى يجعلونها اقرب الناس الى الله ، بينما الله لا يعتبرهم ازكياء ، ولا يقبل منهم دعواهم بأنهم عباده الصالحون.

]ولهم عذاب اليم[

في الدنيا و الاخرة.

لماذا هذا العذاب ؟

[175]كل تلك العقوبات كانت جزاء اعمالهم لماذا ؟

السبب واضح.

]اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى[

باعــوا الهــدى في مقابل بعض المكاسب المادية التي سببت ضلالتهم عن الحق ، و تورطهم في المهالك.

]و العذاب بالمغفرة فما اصبرهم على النار[

حيث اشتروها لانفسهم بعد علم بالدين.

صفات علماء السوء

[176]ان لهؤلاء علامتين:

الاولى :انهم حرفوا الكتاب حتى جعلوه متوافقا مع مصالحهم ، ولان مصالحهم مختلفة ، ولان كل طائفة فسروا الكتاب حسب مصالحهم ، فقد اختلفوا في الكتاب ذاته ، وتحول الكتاب عندهم الى اداة تفريق وكان سبيلا للتوحيد ، كان كتاب حق فاصبح عندهم كتاب هوى.

]ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق[

و اوجب على الناس ان يقيسوا الاشياء و الاشخاص به وان يحددوا اهواءهم وفق مبادئه ، اما

هؤلاء العلــماء المنحرفون فقد اضلوا الناس عن الكتاب و اختلفوا فيه.

]وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد[

انهم متمردون على الحق.

ان الله سبحانه وعد هؤلاء الضالين المضلين من اهل الكتاب باشد العذاب لماذا ؟

لانهم سلبوا من الناس افضل ما كانوا يملكون ، سلبوهم ايمانهم ، و هداهم ، و عقولهم ، و دفعوا بالناس الى هاوية بعيدة ، كل ذلك لقاء بعض المكاسب المادية ، وعلى الامة ان تستيقظ حتى تكتشف هؤلاء السراق ، و تقطع ايديهم ، و تعود الى وعيها وهداها.

[177]العلامة الثانية : النظرة القشرية الى الدين ، و تعميق هذه القشرية في النفوس ، و تضخيم الامور القشرية الى حد تغطية القضايا الجوهرية.

و السبب في ذلك هو خلافاتهم العائلية من جهة ، ومن جهة ثانية تعويض تقاعسهم عن الواجبات الاساسية ، و الاهتمام البالغ بالقضايا الثانوية او القشرية يقول الله:

]ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب[

حتى تختلفوا في القبلة مع بعضكم ، و تضخموا هذا الخلاف.

]ولكن البر من امن بالله و اليوم الاخر و الملائكة و الكتاب و النبيين و ءآتى المال على حبه ذوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و السائلين وفي الرقاب]و هؤلاء المحرومون هم الذين يجب ان تتوجه اليهم رسالة السماء و حملة الرسالة ، لا السلاطين و الوجهاء ، وحدهم.

]و اقام الصلواة و ءاتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا و الصابرين في البأساء]حيث تقوم الحرب مع العدو.

]و الضراء[

حيث تصاب الامة بأزمة اقتصادية او كارثة طبيعية او ما اشبه.

]وحين البأس[

حين الحرب.

]اولئك الذين صدقوا[

مع الله ومع الناس.

]و اولئك هم المتقون[

فلسفة القصاص

هدى من الايات

بعد الحديث عن جوانب من شخصية الامة الاسلامية ، تحدثنا هذه الايات وتلك التي تليها ، عن مجموعة من واجبات الامة و طقوسها الدينية . و يبدأ الحديث بالقصاص باعتباره واجبا اجتماعيا ، يتصل بالمحافظة على حرمة النفس . و بعدئذ يتحدث عن الوصية كواجب اجتماعي يتصل بحرمة المال . و سواء الدم او المال ، فان احترامهما يعني احترام الانسان كأنسان . اذ ليس المال سوى جهد مكثف للانسان ، والذي يعتدي على المال ، حتى ولو كان ذلك بعد حياة الشخص ، فهو يلغي حياة صاحبه و جهوده.

و بعدئذ يتحدث القرآن عن الصوم و الجهاد و الحج كواجبات اجتماعية دينية ولكن يبقى السؤال : ما هو سبب وضع القصاص و الوصية في سياق الصوم و الجهاد و الحج ؟

الجواب : ان القصاص اوالوصية هما الاخران واجبات اجتماعية يكلف بها جميع ابناء الامة ، كالصوم و الجهاد و الحج . ومن جهة اخرى ، ان من اهداف المجتمع الاسلامي في الشعائر و الواجبات هو المحافظة على حياة الناس و اموالهم ، فكان من الطبيعي ان يتحدث القرآن سلفا عنهما.

بينات من الآيات

] [178]يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر و العبد بالعبد و الانثى بالانثى]انه مكتوب على الامة مفروض على كل واحد من ابنائها تطبيقها ولكن هذا حق يطالب به صاحب الدم وتكلف الامة بانتزاعه له اما اذا عفى صاحب الدم فهو حر في ذلك.

]فمن عفي له من اخيه شيء فإتباع بالمعروف و اداء اليه باحسان]ان الله يضع حول شرائعه لمسة احساس و عاطفة ، من اجل الا تكون الانظمة كلها صارمة و جامدة لا تتوافق و ظروفا معينة . انه يعطي هنا لصاحب الدم الحق في العفو ليصبح صاحب الدم و الجاني اخوة . وعلى الجاني ان يراعي هذه الاخوة الجديدة بالمعروف و الاحسان ، اي يجب ان تتحول الجناية الى عامل اصلاح في حياة الجاني . فاذا به يصبح صاحب المعروف بأن يدفع الدية حسب المتعارف ، و صاحب الاحسان الذي يسعى من اجل اسعاد اولياء القتيل بأية وسيلة ممكنة.

]ذلك تخفيف من ربكم ورحمة[

و الاسلام دين القانون و دين الرحمة في ذات الوقت . فهو ذو قانون محدد ولكنه مؤطر بالرحمة ، لتخفيف صرامة القانون في ظروف معينة . ولكن هذه الرحمة وضعت لكي يتحول الجاني

بسببها الى رجل صالح في المجتمع ، واذا كانت الرحمة بالنسبة اليه تشجيعا لـه علـى متابعة اعماله الجنائية فهنا يجب ان يكون المـجتمع صارما معه ايضا.

]فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم[

[179]لماذا القصاص ؟ لماذا نقضي على حياة انسان قضى على حياة غيره ؟ اوليست هذه الحياة الثانية محترمة كالتي قضي عليها ؟

بلـى ، ولكننا لا ننظر الى هذه الحياة او تلك بقدر ما ننظر الى حياة المجتمع كله ، و ضرورة المحافظة عليها كلها ، وعبر هذه النظرة نرى ان القصاص ضرورة حياتية.

]ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب[

اذ انه يبني سورا منيعا حول حياة المجتمع كله ، فيقتل نطفة الجريمة في مهدها ، ولا يدعها تنمو حتى تتحقق ، لان العقاب شديد و صارم . واذا الغي مبدأ القصاص فيمكن ان تتسع عمليات القتل الدفاعية في الامة ، اذ قد يحس كل فرد انه يتعرض للقتل من قبل خصومه فيبادر بقتلهم ، وهكذا تنتشر الجريمة وربما دون اي مبرر سوى الخوف الباطل . لذلك يقول القرآن في فلسفة القصاص و الهدف من تشريعه.

]لعلكم تتقون[

اي الهدف منه هو ايجاد رادع عن الجريمة في المجتمع ، يتقي الناس به من ارتكابها.

الوصية وحق الاموال

[180]و بمناسبة الحديث عن حرمة النفس و القصاص الذي ينتهي بالموت ، يتحدث القرآن عن الوصية باعتبارها تثبت حق الفرد في امواله حتى بعد الممات ، وبذلك يتكرس هذا الحق في حالة الحياة بالطبع ، و الوصية مكتوبة على ذوي اليسار الذين ينبغي ان يوصوا لاقاربهم.

]كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين و الاقربين بالمعروف حقا على المتقين [ان هذه الوصية حق ثابت على المتقين لكي لا يضيعوا حق والديهم و اقاربهم . ولم يتحـدث القـرآن عن الوصية للاولاد ، لانهم الجيل الصاعد و الوارث الطبيعي للاباء ، ولكن ينبغي ان يوصي الوالد لابنه المحتاج الى عطف اضافي و تمضي الوصية في ثلث اموال الميت وهكذا جاء في الحديث الشريف - كما جاء في مجمع البيان (ج١ص ٣٦٧) وقد روى اصحابنا عن ابي جعفر عليه السلام انه سئل ، هل تجاوز الوصية للوارث فقال : نعم وتلا هذه الآية.

[181]الوصية حق على المتقين ، ولكن تنفيذ الوصية حق على الناس ، وعلى الانسان ان لا يمتنع عن الوصية بحجة الخوف من عدم تنفيذها ، اذ التنفيذ مسؤولية الوصي اولا و المجتمع ثانيا ، وليس مسؤولية الذي يوصي.

]فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه]صاحب التبديل و شركائه من الذين يرضون بالتبديل ولا ينهون عنه.

]ان الله سميع عليم[

شاهد على الوصية ، عالم بمن يبدلها.

] [182]فمن خاف من موص جنفا او اثما[

ظلما متعمدا او غير متعمد ذلك ان الجنف - كما جاء في مجمع البيان (ج١ص ٢٦٩) هو الجور والميل عن الحق ، ثم قال:

الاثم ان يكون الميل عن الحق على وجه العمد و الجنف ان يكون على وجه الخطأ من حيث لا يدري انه يجوز ، وهو معنى قول ابن عباس و الحسن ، و روي ذلك عن ابي جعفر (ع. (

وقال الجنف : هو ان يوصي به في غير قرابة ثم اضاف عليه اكثر المفسرين وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام)المصدر. (

]فأصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم[

ذلك لان الله سبحانه يغفر لمن كان على الخطأ كالموصي اذا تراجع عن خطأه.

هذه هي مسؤولية المجتمع في مسألة الوصية ان يراقبوا الموصي ، فلا يدعوه يجفو بحق اولاده او يضرر بهم ، كأن يكون الموصي لا يملك الا بيتا واحدا وله ذرية ضعفاء ، فيوصي بتلك الدار لرجل غريب ، مما يسبب في بيع الدار وابقاء اهله بلا دار سكنى ، آنئذ يتدخل المجتمع لتصحيح الوصية.

جاء في حديث شريف مأثور عن الامام الباقر عليه السلام في معنى هذه الآية الكريمة.

)من عدل في وصيته ، كان كمن تصدق بها في خيانة ، ومن جار في وصيته لقي الله -عز وجل - يوم القيامة وهو عنه معرض) (١)(١) تفسير نمونه / ج ١ / ص ٦٢١

الصوم فلسفته واحكامه

هدى من الايات

المجتمع الاسلامي مجتمع ملتزم مسؤول ، تجري الانظمة فيه بحافز داخلي يسميه القرآن بـ (التقوى) ، وهذا الوازع يخلقه الايمان بالله ، وتنميه طائفة من الواجبات في طليعتها الصيام.

و بمناسبة الحديث عن شخصية الامة تتحدث هذه الايات عن الصيام كأفضل وازع نفسي للامة يحافظ على حدود المجتمع و يراعي انظمته.

وفي البدء يبين القرآن فلسفة الصيام ، وبعدئذ يبين طائفة من احكامه ، ثم يتحدث عن اهمية شهر رمضان . وبهذه المناسبة يتحدث عن الدعاء ، و اخيرا يعود الى احكام الصيام و المحرمات الاساسية خلال هذه الفترة.

و الملاحظ في القرآن : انه يتحدث عن الصيام قبل وبعد الحديث عن حرمة المال (الآيات ١٨٣ - 188)وكأنه يوصينا بأن من اهداف الصيام تحقيق وازع داخلي يحافظ على حرمات المجتمع وابرزها حرمة المال.

انه يعدل سلوك الفرد تجاه المجتمع ، حتى لا يعتدي الفرد عليه.

وبهذه المناسبة يتحدث القرآن عن حرمة المسكن ، و يحرم على المسلم ان يتسلق البيوت من ظهورها.

بينات من الآيات

[183]الصيام واجب ديني في رسالات الله السابقة . وحين يكتبه الله علينا فانه لهدف عظيم يعود بالنفع علينا . هو تقويم سلوكنا ، و تربية نفوسنا على التقوى.

]يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون]الهدف من الصيام التقوى ، و الهدف من كثير من الشعائر الدينية هو التقوى ايضا (كما صرح القرآن به في آيات كثيرة) ولكن ما هو التقوى ؟

لعل الكلمة التي نستخدمها في ادبنا الحاضر بديلا عن كلمة التقوى و قريبة من معناها هي (الالتزام) . ولكن ايحاءات كلمة التقوى افضل . انها تدل على الالتزام خشية العقاب ، والعمل بشيء (اتقاء (شر معين وبالتالي جعل العمل وسيلة لتجنب الوقوع في المهلكة.

فالتقوى هي التزام واع و مفروض على الانسان بسبب الاضرار التي تصيبه ان ترك الالتزام.

و خلق هذه الحالة في النفس ، لا يتم الا عبر سلسلة من الطقوس و الشعائر ، و (الصيام) واحد منها . حيث انه يدرب الانسان على تجنب شهواته برقابة ذاتية ، وبذلك ينمي عنده موهبة الارادة . ذلك لان ارادة الانسان كأي نعمة اخرى عنده تنمو و تتكامل ، كلما انتفع بها الانسان و مارسها عمليا . و الصائم يمارس ارادته ضد شهواته كلما دعته الحاجة الى الطعام او الجنس ، فيرفض تلبية هذه الدعوة بقوة ارادته.

ان كثيرا من الناس يحبون ان يصبحوا صالحين ، مؤمنين ، ملتزمين بالرغم من انهم قد لا

يصرحون بذلك ، ولكن بعضا منهم يوفق لذلك لانه - وحده - يملك ارادة قوية ، وعلى الانسان ان يربي ارادته و يدربها حتى يستطيع ان يقاوم بها ضغوط الشهوات ، و الصيام واحد من وسائل تربية و تدريب الارادة.

[184]الصيام فرض خلال شهر واحد قد يتصوره الانسان طويلا ، ولكنه يجده بعد الممارسة وبعد التصميم على الالتزام به قصيرا : وكذلك كل عمل يتصوره الانسان في البدء عظيما ، ولكنه بعد ان يعزم عليه ، يصبح سهلا و خفيفا ولذلك كان من افضل وسائل التغلب على الحياةتهوينها ، و الاستهانة بصعوباتها . وهكذا يصور لنا القرآن الصيام.

]أياما معدودات[

وهناك تسـهيلات اخرى في اداء واجب الصيام منها تغيير موعد الصيام للمسافر و المريض.

]فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر]يصومها عن كل الايام التي لم يصمها لمرض او سفر . ومن التسهيلات ، الغاء الصيام اختيارا عن كل من لا يطيق الصيام . اي يجهده ، و يستنفذ كل طاقته ، كالضعيف البنية و الشيخ الكبير آنئذ يستطيع ان يصوم او ان يبدل الصوم بالفدية باطعام مسكين واحد عن كل يوم يفطر فيه.

]وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا]و صام بالرغم من المشقة عليه.

]فهو خير له[

بشرط الا يسبب له ضررا كبيرا بل مجرد مشقة و حرج.

]وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون[

لانه يزكي نفوسكم ، ويربي ارادتكم ، ويهيء لكم عند الله جزاء حسنا.

لماذا رمضان ؟

[185]ولابد ان يقع الصيام في شهر رمضان بالذات ، لماذا ؟ اوليس هناك شهر اخر افضل منه ؟

كلا .. انه شهر يحمل معه ذكرى من أهم ذكريات الامة ، انها ذكرى ليلة القدر حيث نزل فيها القرآن ، كتاب الله الكريم.

]شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس[

بصائر ورؤى للانسان في الحياة.

]و بينات من الهدى[

تفاصيل التشريع الاسلامي.

]و الفرقان[

ففـي القرآن قيم و مقاييس يميز بها الحق عن الباطل . فرمضان اذا اجدر الشهور بالصيام.

]فمن شهد منكم الشهر فليصمه[

اي من كان في هذا الشهر حاضرا في بلده او محل اقامته فعليه ان يصوم.

]ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر[

ولا يجوز له ان يصوم في حالة المرض او السفر ، ذلك لان الله:

]يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر[

وعلى الانسان ان يستجيب لارادة الله ، ولا يوقع نفسه في الاعمال العسيرة ومنها الصيام في المرض او السفر.

]و لتكملوا العدة[

كل يوم يفوتكم من الصيام تصومون مثله من ايام اخر.

]و لتكبروا الله على ما هداكم[

و تجعلون تعظيمكم لله و انتماءكم اليه اقوى من تعظيمكم لاي شخص او شيء اخر.

]و لعلكم تشكرون[

نعم الله عليكم من خلال الصيام.

ان ترويض النفس يساعد على تنمية الايمان بالله ، لان شهوات الدنيا هي اكبر حاجب بين عقل الانسان ومعرفة الله ، وعن طريق الصيام يتم خرق هذا الحجاب) ولو بصورة مؤقتة) وآنئذ يشرق نور الايمان في القلب ، و يكبر العبد ربه ، و يعرف ان كل تلك النعم العظيمة منهفيشكره .

كما ان المنع الموقت لبعض لذات الجسد ، سيعطي له طعما جديدا يشكر المرء عليها ، فللصائم فرحتان :فرحة عند الافطار ، و فرحة عند لقاء الملك الجبار.

رمضان والدعاء

[186]شهر رمضان مناسبة للدعاء ، وبهذه المناسبة يستطرد القرآن ليحدثنا عن ضرورة ارتباط الانسان بخالقه عن طريق الدعاء فيقول:

]واذا سألك عبادي عني فأني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان]اذا كانت الدعوة حقيقية و متجهة الى الله وحده ، خالصة من الشرك و الرياء ، فان الله يجيبه لا ريب فيه عاجلا ام آجلا.

]فليستجيبوا لي[

هم بدورهم ، و يعملوا بأوامر الله ، ليبادلهم الله جزاء الحسنة بعشر امثالها.

]و ليؤمنوا بي لعلهم يرشدون[

استجابة دعوة الله تبدأ من الايمان بالله ، فاذا اخلص العبد ايمانه بربه يدعوه ايمانه الى تنفيذ واجبات الله ، ومن ثم يجيب ربه دعاءه.

من هنا كانت الدعوات المأثورة متوجة بالاستغفار لله ، لان الاستغفار يعيد الانسان الى حضيرة الايمان ، ومن ثم يجيب الله دعاءه.

من احكام الصوم

[187]احكام الصيام كثيرة ولكن ابرزها الامتناع عن الطعام و الجنس خلال النهار ، اما في الليل فقد كان الاسلام يحرم مطلقا الجنس و الطعام الا خلال فترات معينة ، ولكن خففت الحكم بعدئذ ، كمثل كثير من الاحكام المشددة في بداية الرسالة والتي خفف بعدئذ وربمالسبب هو ان الامم تكون في بداية تكونها اشد التزاما.

]احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم[

ممارسة الجنس مع الزوجات اللاتي يشكلن حصنا لكم من الوقوع في مزالق الجنس ، كما تشكلون انتم نفس الحصن لهن : ان كثيرا من الجرائم ترتكب بسبب الجنس ، سواء بصورة مباشرة او عن طريق تكوين الجنس للعقد النفسية التي تدعوا الى الجرائم ، من هنا قال الله عن النساء.

]هن لباس لكم وانتم لباس لهن[

وقد كانت ممارسة الجنس في ليالي الصيام حراما ، ولكن الناس لم ينفذوه بالضبط فخفف

الحكم.

]علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم[

و تظلمونها بسبب شهوة الجنس.

]فتاب عليكم و عفا عنكم فالآن باشروهن[

انما بهدف حكيم هو ان يرزقكم الله الاولاد ، فليس الجنس هدفا بذاته ، انما هو وسيلة لهدف اسمى هو الاولاد.

]و ابتغوا ما كتب الله لكم[

من بنين وبنات ، تسلمون لقضاء الله فيهم.

]و كلوا و اشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر [حيث يتبين الصبح عن طريق وجود خيط ابيض في الافق يدل على انبلاج الفجر . هناك يبدأ وقت الصيام و يحرم الجنس و الاكل و الشرب.

]ثم اتموا الصيام الى الليل[

حيث تغيب الشمس و تسحب من السماء ذيول الضياء.

وكما يحرم الجنس خلال نهار الصيام ، كذلك عندما يعتزل المؤمن الناس و يأوي الى المساجد متبتلا الى الله.

]ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد[

و الاسلام لم يشرع العزلة التامة عن الناس ، لانها تلغي مسؤولية الانسان في الحياة و دوره في اصلاحها ، ولكنه شرع و حبب الاعتزال المؤقت ليكتسب المسلم العزيمة و الامل ، و يعود الى الحياة اقوى من قبل.

و الاعتكاف واحد من اساليب الاعتزال المؤقت ، حيث يمكث المؤمن في المسجد ثلاثة ايام و يصوم ولا يخرج من المسجد الا للضرورات : هنالك يحرم عليه ممارسة الجنس ليلا او نهارا.

]تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله اياته للناس لعلهم يتقون][١٨٨] الصيام يستهدف تزكية النفوس حتى تتقي حرمات الله ، و تتجنب مظالم العباد . وليس الصيام نافعا لو لم يؤد الى التقوى ، كما ان الصلاة لا تنفع او لم تنه عن الفحشاء و المنكر . ولذلك تحدث القرآن بعد

الصيام عن حرمة المال وقال:

]ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل[

اذا اغتصبت مال اخيك ، او خدعته ، او مارست الغش معه فهو باطل . واذا اكلت ماله بالقمار او التجارة الضارة فهو باطل . والذين يأكلون اموال الناس بالباطل يستندون في ذلك الى الحكام الاقوياء ، ويتشاركون معهم فيها ، لذلك قال الله:

]و تدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون][١٨٩] وكما حرمة المال كذلك حرمة البيت ، حيث لا يجوز للانسان ان يتسلق بيوت الناس . و بمناسبة الحديث عن شهر رمضان و ارتباطه برؤية الهلال تحدث القرآن عنه في البدء ، ثم حذر من الاعتقاد بان ذلك يكفي الانسان في التدين ، وقال كلا .. ان الالتزام بالواجباتالاجتماعية اهم من الالتزام بظواهر الدين.

]يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج[

يعرفون بها كيف يضبطون اوقاتهم ، ذلك ان الهلال بما فيه من تغييرات يومية يمكن ان يعرفنا بأيام الشهر.

]وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها[

كما كانت تفعل جماعة من الجاهليين ، يزعمون ان في ذلك دلالة على الشجاعة . وكانوا يزعمون ان المحرم للحج لا يجوز له ان يدخل المسجد الحرام من الباب ، بل من ثقب كانوا يصنعونه في الجدار.

]ولكن البر من اتقى[

المحرمات ، وضبط في نفسه الحدود الشرعية ، فاشجع الناس من غلب هواه.

]وأتوا البيوت من ابوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون[

القتال في الاسلام اهدافه و احكامه

هدى من الايات

من ميزات الامة الاسلامية : انها تؤمن بالجهاد من اجل اهداف انسانية عالية ، وفي اطار هذه الاهداف تمارس القتال . وفي هذه الايات يتحدث القرآن عن حدود القتال (كما تحدث سابقا عن حدود القصاص والصيام) و يؤكد على التقوى باعتبارها وسيلة لمراعاة حدود الله في الجهاد.

فالقتال انما هو في سبيل الله ، و موجه ضد من يقاتل الامة ، وهناك هدف اخر للقتال هو منع

الفتنة ، اذ هي اخطر من القتل ، وهناك حد اخر للقتال هو حرمة القتال في المسجد الحرام ، ولكن حرمة المسجد و الشهر ، قائمة ما دام العدو ملتزما بها ، و القتال بحاجة البالانفاق ، وعلى الامة ان تبادر بالانفاق قبل ان تحدق بها الاخطار.

بينات من الايات

القتال لماذا وكيف ؟

[190]ان القتال مفروض على الامة ، بشرط ان يكون بهدف تحقيق قيم الله في الارض ، والتي هي ، في الوقت ذاته ، اهداف تتطلع الى تحقيقها كل الشعوب من اقامة الحق و الحرية و العدالة و المساواة.

ولكن حتى هذا القتال يكون بعد ان تتعرض الامة للاعتداء . ومع كل ذلك يجب ان يظل القتال محدودا في اطار انهاء الوجود العسكري للعدو ، وليس الاعتداء على الانفس و الاموال .

]و قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين. [

وليس من الصحيح ان يفكر ابناء الامة ان الاعتداء يجوز لهم ماداموا ينتمون الى رسالة الله . كلا ، ان الله لا يحب المعتدين أنى كانوا.

[191]ولا يتحدد القتال بساحة المعركة بالذات ، بل يجوز ان تقتل الامة ، المفسدين انى وجدتهم ، ماداموا قد استعدوا للقتال . ومن الحكمة ان تعطى للامة ، فرصة المبادرة بالحرب اذا وجدت ضرورة دفاعية اليها.

]واقتلوهم حيث ثقفتموهم[

حيث وجدتموهم.

]و اخرجوهم[

من معاقلهم.

]من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل [

انهم هم الذين بدأوا الحرب ضدكم و اخــذوا يفــسدون عليكم ، فهم بذلك اباحوا قتالكم لهم.

]ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين]حيث انهم سوف يسلبون نعمة الامن عند المسجد الحرام ، متى ما استغلوا ذلك في صالحهم.

[192]الا ان اندفاع الامة الى القتال ، يجب الا يخرج افرادها عن اطار انضباطهم بتعاليم الله ، فالقتال متى ما اشتعل ، يستعد له المسلمون ، ولكن اذا توقف لا يعتدي المسلمون على الناس لمجرد حب القتال ، خصوصا اذا كان عند المسجد الحرام حيث جعله الله من قديم الزمان منطقة سلام.

]فان انتهوا فان الله غفور رحيم[

الهدف الحضاري للقتال

[193]و القــتال في حالة اشتعاله ذو هدف حضاري هو القضاء على الفساد بكل الوانه (التفرقة ، حكم الجبابرة ، الانظمة الباطلة ، اسباب الظلم) و اقامة حكم الله في الارض ، لا حكم طائفة على طائفة ، او اشخاص على اشخاص حكم الله الذي يطبق على القادة كما يطبق على الناس.

]و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله[

الدين بمعنى الالتزام بالسيادة ، اي حتى يلتزم الناس جميعا بحكم الله في الارض.

مرة اخرى يذكر القرآن بأن الهدف من القتال ، ليس القتال ذاته ، بل هو وسيلة مرحلية فقط.

]فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين[

الذين يعتدون على الناس ، فيسترد النظام الاسلامي حقوق الناس منهم بالقوة.

متى تحفظ الحرمات ؟

[194]ويبقى سؤال : لماذا سمح الله للمسلمين بالقتال عند المسجد الحرام ، او في الشهر الحرام ، حيث كان العرب يعتبرون القتال حراما فيهما ؟ افليس الاسلام دين سلام ؟

و يجيب الله على هذا السؤال بالقول:

]الشهر الحرام بالشهر الحرام و الحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم]ان حرمة الشهر الحرام كانت تعطي فترة من الهدوء للعرب ، لعلهم يحلون اختلافاتهم سلميا ، ولكن بعضهم كان يستغل هذا الهدوء ، لشن حروب عدوانية ضد المسلمين ، فأمر الله الامة بالرد عليهم . اذ ان الحرمات قصاص ، فما دام الفرد يحترم حقوق الاخرين ، تحترم حقوقه. اما اذا اعتدى عليها ، فان الواجب استرداد الحقوق منه بالقوة وهذه الاية تفتح افاقا واسعة في التشريع الجنائي.

و بالطبع حتى هنا لا يجوز الاعتداء عليه اكثر من اعتدائه ، ويؤكد القرآن هذا الواجب وفي ذات الوقت يحدد اهم قضية ارادها من الحديث عن القتال هنا ويقول:

]و اتقوا الله و اعلموا ان الله مع المتقين[

الامة الاسلامية والفرد المسلم يجب ان يكونوا ملتزمين بحدود الله ولا يتجاوزونها ، وهذه من اهم مسؤوليات الامة.

لانفاق ضرورة قتالية

[195]وبمناسبة الحديث عن القتال ، تحدث القرآن عن الانفاق ، باعتباره ضرورة قتالية ، ذلك ان الاعداد للقتال قد يكون اصعب من القتال ذاته لذلك شدد القرآن على الانفاق ، و ربطه بمصير الامة وقال:

]و انفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة [لان عدم الانفاق سوف يوقع الامة في اخطار عظيمة.

]و احسنوا ان الله يحب المحسنين[

على كل فرد الا يقتصر على حدود الواجب في الانفاق ، بل ينفق اكثر من ذلك حسب طاقته ، وذلك هو الاحسان الذي يحبه الله ويحب من يصنعه.

ان امتنا اليوم بحاجة ماسة ـ للاستعداد لخوض معاركها المصيرية على اكثر من جبهة ، ولن يتم الاستعداد من دون العطاء ، العطاء بكل الوانه ، بالجهد ، بالجاه ، بالمال ، ولكن قلة الوعي المستقبلي و الانانية الذاتية و انعدام الثقة بالمجتمع ومؤسساته ، كل تلك ادت الى كف الامة عن الانفاق ، و جعلها تخسر المعركة بعد الاخرى.

ان عودتنا الى تعاليم الدين في الانفاق ، هي الضمانة الاكيدة لاسترداد عزنا المفقود ، و حفظ ما تبقى من مصالحنا و كرامتنا.

الحج مدرسة التقوى

هدى من الآيات

بعد الصيام والجهاد يأتي دور الحج ، كمدرسة رسالية لتربية روح الالتزام في الامة . و الهدف من الحج التقوى . لان واجبات الحج تشبه الى حد بعيد الصيام ، في انها تفرض اجتناب طائفة من الشهوات العاجلة بوعي و اختيار مما يقوي الارادة ، و يزيد في الايمان ،. والحج يشبه الجهاد ايضا لان فيه اخطار السفر و احتمالات الموت و صعوبات الاعمال ومن هنا جاء في الحديث الحج جهاد الضعفاء.

و الحديث هنا عن الحج ، لا يتناول الجوانب الاجتماعية منه كما نجد ذلك في سورة الحج بل يقتصر على الجوانب التربوية من الحج ، لطبيعة السياق الذي يتحدث عن التقوى كميزة اساسية في الشخصية الايمانية.

وفي الايات الاخيرة نجد الحديث المباشر عن التقوى وبعض مظاهرة من فرض الرقابة الذاتية على الانسان وابعاده عن الجريمة والنفاق . وقد تكررت كلمة التقوى في هذا الدرس خمس مرات.

بينات من الآيات

[196]قبل كل شيء ، يجب ان يكون الحج او العمرة خالصا لوجه الله ، لا يدخل فيه هدف اخر ، تجارة او سياحة او رياء . وعلى الحاج ان يمتنع عن الزينة بكل مظاهرها . حتى انه لا يستطيع ان يحلق رأسه ، واذا منعه المرض عن متابعة رحلة الحج فعليه الا يحلق رأسه الابعد ان يبعث بهديه (ذبيحته - اضحيته) الى مكة . فاذا ذبحت استطاع ان يتحلل من احرامه ويحلق رأسه . وعندما يضطر المريض الى حلق رأسه فعليه ان يفتدي حلقه بصيام او صدقة او ذبيحة.

الواجــب الاخر في الحج : تقديم الهدي (الذبيحة سواء كان شاة او بقرة او ابلا) ومن لم يجد واحدا منها ، فعليه ان يصوم عشرة ايام ، ثلاثة في الحج و سبعة اذا عاد الى بيته . و اهل مكة وما حولها لا يجب عليهم الهدي.

كل هــذه الفرائض واجبة من اجل تنمية روح التقوى في القلب و الخوف من الله.

]و اتموا الحج و العمرة لله[

اولا : لا يجوز ترك الحج او العمرة بلا سبب بل يجب الاستمرار فيهما و اتمامهما وهذا واجب اساسي في الحج.

ثانيا : يجب ان يكون الحج و العمرة خالصين لله.

و الحالة التي يجوز فيها ترك الحج هي حالة الحصر (بمرض او عدو او ما اشبه. (

]فان احصرتم فما استيسر من الهدي[

ابتداء من الشاة و انتهاء بالابل.

]ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله[

عند بيت الله الحرام او في منى..

]فمن كان منكم مريضا او به اذى من رأسه[

يستوجب حلق رأسه ، سوى يضره استمرار الشعر كما اذا اصيب بصداع دائم لا يبرئه سوى

حلق الرأس ، او كان حرجا بالغا عليه استمرار الشعر.

]ففدية من صيام او صدقة او نسك[

فاذا انتهى الخوف من العدو او من المرض ، فعلى الانسان الذي يأتي بحج التمتع وهو الذي يفصل بين عمرته و حجه فترة استراحة يبقى فيها بدون احرام ، عليه ان يقدم الهدي.

]فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج[

اي عن طريق الاحرام للعمرة استطاع ان يتمتع فترة من الزمان حتى يأتي موعد الحج.

]فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام في الحج و سبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام]اما اهل مكة الحاضرين عند المسجد فيجوز لهم ان يأتوا بغير حجة التمتع ، ولا يقدموا الهدي.

]و اتقوا الله و اعلموا ان الله شديد العقاب. [

و الهدف البعيد من الحج هو : الا يتهاون المسلم في واجبات دينه ، وان يلتزم بحدوده لا يتقدم فيها قيد شعرة ، لان الله شديد العقاب.

وفي هذه الاية نجد واحدا من اهم واجبات الحج وهو الاحرام ، يتحدث عنه القرآن في ثلاثة مظاهر : وهي مظهر النية ، و مظهر عدم حلق الرأِ س وينتهي بالذبح و الاحرام هو ابرز اعمال الحج لذلك بدأ به القرآن الحكيم.

لاحرام

[197]وفي هذه الاية نجد بعض مظاهر الاحرام وهي : حرمة الرفث (مباشرة النساء) بكل الوانه وحرمة الفسوق (الحلف كاذبا بالله) وحرمة الجدال.

و خلال فترة الحج يجب ان يتقيد الانسان بهذه الامور ، و الهدف منها : تنمية روح التقوى في النفوس.

]الحج اشهر معلومات[

لا يمكن ان يبدأ الانسان حجه قبل شوال ، ولا ان يؤخره عن موسم الحج في ذي الحجة وربما يوحي هذا بأن محرمات الاحرام لا تستمر بعد ايام ذي الحجة.

]فمن فرض فيهن الحج[

فرض على نفسه الحج في هذه الاشهر.

]فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج[

لماذا الجدال والفسوق ؟

هل لكي يتظاهر الانسان بانه اهم من غيره ، و يزكي نفسه دون الاخرين ، مادام الله يعلم بما يفعله العباد ان كانوا صادقين في عملهم ، و الكذب و الادعاء لا يغني احدا شيئا.

]وما تفعلوا من خير يعلمه الله و تزودوا فإن خير الزاد التقوى]افلا يتزود الانسان لسفره ؟

فلماذا لا يتزود لسفر الاخرة وهو اطول و اوحش من اسفار الدنيا ، ولكن كيف نتزود ؟

افضل ما نتزود به : التقوى و الالتزام بما اوجبه الله علينا ، انه الزاد الوحيد الذي ينفعنا في ذلك الطريق الطويل الطويل.

]واتقون يا اولي الالباب[

انتم يا من تملكون حقيقة الانسانية وهي العقل اتقوا الله ، لانكم تعرفون الله و تعرفون ان من يتقيه ينجو من نار جهنم ، و ينجو من عذاب الدنيا.

ان التزود بالتقوى لا يختص بالاخرة بل يشمل اسفار الدنيا ، ان رحلتنا الشاقة في الدنيا بحاجة الى زاد ، بحاجة الى ارادة و عقل و مثابرة ، و التقوى هي التي تعطينا هذه الصفات المثلى و الضرورية للحياة في الدنيا.

ان الذين لا يتسلحون بالتقوى فان اي مشكلة في الحياة يمكنها ان تصرعهم و تحول حياتهم الى جحيم.

ماذا بعد عمرة التمتع ؟

[198]بعد فترة العمرة يتحلل الحاج من احرامه ، و يبتغي من فضل الله ، و يتمتع بلذات الدنيا ، ويفكر في التجارة ، و يتزود بالعلم و الادب ، و بعدئذ يحرم مرة اخرى للحج و يقف في عرفات ، و يفيض منه الى المشعر ، ثم الى منى ، و بعدئذ يذهب للطواف و يقضي سائرمناسكه.

]ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم[

في الفترة بين الحج و العمرة في حالة التمتع.

]فاذا افضتم من عرفات[

حيث يقف فيه كل الحجاج ، ويبدو ان الافاضة من عرفات من ابرز واجبات الحج ، لانها مسيرة ايمانية تذكرنا بطبيعة الدين ، انه حركة موجهة لهدف مقدس ، و سنجد في الاية التالية تركيزا على الافاضة.

]فاذكروا الله عند المشعر الحرام[

وهو موقف يقع داخل حدود حرم المسجد الحرام ، و ملتصق بمنى جغرافيا ، بينما يبتعد عن عرفات بضع كيلومترات.

وكان المشعر الحرام في الجاهلية موقعا للمباراة الفكرية بين القبائل التي كانت تهتم بعنصريتها و عصبيتها اكثر من اهتمامها بالشعائر الدينية ، فكانت كل قبيلة تحيي ليلة المشعر بالاشادة بامجادها الغابرة و تعرض بالقبائل الاخرى ، فأمرهم الله بان يتمحوروا حولالايمان بالله ، و ينسوا خلافاتهم العصبية والعنصرية.

]واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين]ان مقارنة حالة التخلف ، القديم للامة و الفساد الجاهلي بحالة تقدمها الحالي في ظـل الرسـالة الجديدة ، تكرس فيها ايمانها برسالتها ، و تدفعها الى المحافظة عليها بكل قوة.

و القرآن يأمرنا ان نتذكر رسالة الله التي اهتدينا بها لكي لا نتوانى عن تطبيق قيمها ، ولكي نتصور واقعيا نعمة الوحدة و الامن و الطمأنينة و النشاط ، وبالتالي سائر النعم التي جاءت نتيجة هذه الرسالة ، والتي لا يمكن ان تستمر لو انا لم نتمسك بها تمسكا شديدا ، بل هي بحاجة الى المحافظة عليها ، و التذكرة بانها ستزول لو لم نسع من اجل المحافظة عليها.

لافاضة مسيرة الايمان

[199]بعد عرفات تبدأ المسيرة الايمانية التي تسميها الاية بـ (الافاضة (تشبيها لها باندفاع السيل ، آنئذ حيث تميل الشمس الى المغرب ، تستعد جموع الحجاج للتحرك الى المشعر ، ليرمزوا بذلك للسعي المشترك في سبيل الله ، وعلى الدرب الذي حددته رسالة الله ،دون اي تمييز بين الطبقات المختلفة.

وقد كانت الجاهلية تعطي لبعض القبائل شرف تقدم الناس في الافاضة ، فكانت تقف امام الجمـاهير و تتحرك من نقطة اقرب الى المشعر من سائر الناس ، او تفيض من المشعر ذاته . و جاءت الاية صريحة بالغاء هذا الامتياز والبدء بالمسيرة مع الناس وقالت:

]ثم افيضوا من حيث افاض الناس[

من ذات النقطة التي يفيض منها الناس.

]و استغفروا الله[

ليشعر كل انسان بانه مذنب امام ربه ، وانه لا يجوز له ان يزكي نفسه و يجعلها اشرف من الاخرين ، فكلنا عباد الله وقد يكون الوضيع منا شريفا عند الله بل و اشرف من الذي يزعم نفسه شريفا.

]ان الله غفور رحيم[

كيف نربح الدنيا و الاخرة ؟

[200]بعد المشعر يفيض الحاج الى منى حيث يؤدي مناسكه من : تقديم الهدي ، و رمي الحجارة ، و التقصير ، و انئذ يجتمع الحجاج في منى ليبنوا حياتهم وفق تطلعاتهم ، فينقسم الناس الى نوعين : فمنهم من يذكر الله و ينتمي اليه قبل ان ينتمي الى اهل او ارض او قوم، و يريد ان يبني حياته وفق نهج الله ، ومنهم من يستعجل في الحصول على مكاسب الدنيا ، دون ان يفكر في الاخرة فيخسرهما جميعا.

]فاذا قضيتم مناسككم[

في منى ، رميا للجمرات ، و هديا لله ، و حلقا او تقصيرا ، وبالتالي بالتحلل من اكثر مظاهر الاحرام.

]فاذكروا الله كذكركم اباءكم او اشد ذكرا[

حتى يصبح انتماؤكم الاول الى الله ، فيوحدكم الايمان به ، و تصبح ارض منى منطلقا للتعارف و التعاون والامل ، ولكن يبقى هذا الهدف مرتبطا بمنطلقات معينة.

]فمن الناس من يقول ربنا اتنا في الدنيا و ماله في الاخرة من خلاق]لا يملك اي رصيد في الاخرة . لانه يريد كل جهوده ان تثمر في الدنيا ، هؤلاء ليس لهم في الاخرة نصيب في الدنيا.

] [201]ومنهم من يقول ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار][٢٠٢] [اولئك لهم نصيب مما كسبوا و الله سريع الحساب]هؤلاء سوف يحصلون على مكاسبهم في الدنيا وفي الاخرة لان منطلقهم سليم . وبالطبع لا ينفع هؤلاء مجرد سلامة منطلقهم ، اذ انهم سوف لا يحصلون الا نصيبا مما كسبوا لا مما قالوا ، ان الدنيا و الاخرة هدفان لا يحققان الا بسعي وعلى قدرة.

ان الذين يحددون نظرهم في ا لدنيا يصابون بقصر النظر ، و الذاتية ، اذ ما دام العمل للدنيا ولا نعرف هل نحن غدا موجودون ام اموات ، فدعنا نأكل نصيبنا اليوم ، وبذلك يستنفذون طاقاتهم في الحال دون النظر في المستقبل.

وما دام الفرد يعمل للدنيا ، و يعمل لذاته و لأقرب الناس اليه ، فان ذلك يقضي على حضارته فما عاشت امة انتشرت فيها الذاتية وقصر النظر ، بينما من يعمل من اجل الاخرة يكون امامه افق بعيد يتطلع لتحقيقه ، انه يفكر في رحمة الله الواسعة ، فهو لا يريد مكاسب عاجلة ، ثم انه يعمل للجميع لان ذلك طريقه الى الله ، وهكذا يكون العمل للاخرة طريقا الى حضارة الامة.

بعد قضاء مناسك منى ، يتوجه الحاج الى بيت الله الحرام ليذكر الله ، ولكي يرتبط بهدى الله و يوثق علاقته بالانتماء التوحيدي له ، و يعمل للدنيا و الاخرة معا.

] [203]و اذكروا الله في ايام معدودات[

ثلاثة ايام من الحادي عشر حتى الثالث عشر.

]فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله و اعلموا انكم اليه تحشرون]الهدف البعيد لكل هذه المناسك هو التقوى ، و سببه هو التفكير المستمر في ان الانسان مهما طال عمره فسوف يحشر الى الله و يسأل عما فعله ، فعليه ان يجعل من نفسه عليها رقيبا و وازعا عن السوء ، و دافعا الى الخير ، ولا ينتظر محاسبا اجتماعيا او واعظا دينيا.

التقوى

رضا الله ، السلم ، العدالة

هدى من الآيات

في هذا الدرس يبين لنا القرآن اهمية التقوى في مقاومة النفاق ويبين بعدا هاما من ابعاد التقوى الاجتماعية ، وهي (الوحدة) و تنازل الطرف المخالف للحق عن نزاعه في مصلحة صاحب الحق.

يبدأ الحديث : بدعوة الى السلم داخل المجموعة الاسلامية كهدف سام يجب على ابناء الامة تحقيقه و المحافظة عليه ، و تجعل الاية الناس كلهم مسؤولين عن الوحدة.

ومن ثم يحذرهم القرآن من الاختلاف بعد البينة ، ويضرب لهم من قصة بني اسرائيل مثلا لكيفية الاختلاف بعد البينات الكثيرة ، بعدان يقول ان عليهم ان يكتفوا بهذه النصوص في رفع الخلافات بينهم ، ولا ينتظروا ان يأتيهم الله في مظاهر عظمته حتى يحكم بينهم في خلافاتهم.

بعدئذ يبين السبب الجذري لكل الخلافات وهو حب الدنيا ، الذي يدفع الانسان الى البغي على الاخرين وفي اخر الايات يحذر القرآن من الغطاء الفكري الذي يلبسه الانسان حول حب الدنيا ، وبذلك يبرره بقيمة مزيفة . كما فعل الكفار عندما جاءتهم البينات.

وبهذه الاية يمهد القرآن للحديث عن الموضوع التالي وهو : ان الخلاف المشروع الوحيد هو

الخلاف المبدئي بين اهل الدنيا المتمثل في الكفار واهل الحق.

ان التقوى هي الضمانة الاكيدة لمقاومة حالة النفاق . حيث يعيش الانسان في داخله شخصا وفي الخارج يتظاهر شخصا اخرا ، فيعمل بالحسنات لاجل الرياء فقط ، كل ذلك لانه لا يتمتع بروح التقوى الداخلية.

بينات من الآيات

] [204]ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا و يشهد الله على ما في قلبه[

و يصوره صادقا لنا ، و يدعم كلامه ابدا باليمين.

]وهو ألد الخصام[

في الجدل ، لدود.

] [205]واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد]هذه هي صفات المنافق الرئيسة ، وهي اربع صفات:

الاولى :انه معسول الكلام فيما يخص الحياة الدنيا ، يتحدث عنها بشهية مفتوحة و لعاب مسال و كأنه يتحدث عن حبيبته المفضلة في قلبه ، هذه الصفة نابعة من شعور المنافق بالنقص فيما يرتبط بالدنيا ، فهو يهتم بها أهتمام الجائع المنهوم بالرغيف.

الثانية : انه يكذب وهو يعلم انه يكذب ، ولكي يبرز كذبه بمظهر الصدق ، يحلف بالله كثيرا ، وهذه الصفة ناشئة عن تصوره الدائم بإن الناس لا يصدقونه في اقواله.

الثالثة : انه ينفجر غيظا اذا عورض في كلام له ، و يحاول ان يثبت كلامه بالرغم من الاعتراض ، وذلك عن طريق مواصلة الجدل لانه قد اجاد صناعة الكلام ولا غيرها.

الرابعة :ان عمله هو الفساد لا الصلاح ، فهو لا يحب احدا ، ولا يحب ان يمتلك احد شيئا ، ولذلك فامنيته الكامنة هي الا يعيش احد ولا يبقى شيء سليما ، تراه يفسد بين الناس بالغيبة ، والنميمة ، و التهمة و يبخس الناس اشياءهم بالتحطيم ، والتكسير ، وعدم المبالاة و..و.. الخ.

واذا اوتي القوة استخدمها في ابادة الحياة ، و الزراعة ، و الانتاج ، و الناس أجمعين.

[206]هذه صفات المنافق الظاهرية ، اما صفته الواقعية فهي عدم التقوى.

]واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم[

انه يصور نفسه فوق الحق وفوق قيم الله في الارض ، فلا يرى ضرورة للخضوع للحق ، بل تأخذه العزة والانفة ، فاذا به يعتز بالاعمال السيئة التي يعملها ، و يصورها حسنة لمجرد انها صدرت منه ، فهو يعتز بالاثم بدل ان يعتز بالحق.

ان هذه هي صفة المنافق الجذرية وهي : التمحور حول الذات وجعلها مقياسا للحق ، وهي صفات مقابلة تماما للتقوى ، وهي جعل الحق مقياسا للحقيقة ابدا وعلى الانسان ان يتمحور حوله لا حول نفسه.

اي عذاب اليم يجب ان يكون جزاء هذا المعاند الاثيم ؟

لا شيء غير النار.

]فحسبه جهنم ولبئس المهاد[

[207]عكس المنافق تماما ، المتقي الذي ليس لا يتمحور حول ذاته فقط ، بل يبيع ذاته لله ايضا.

]ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد]وحين يشري نفسه يجعلها تدور مدار الحق وتتبعه انى اتجه ، سواء كان عند صديقه او قريبه او رئيسه ، او كان عند خصمه البعيد عنه او عبده او مرؤوسه . انه يعرف الحق ولا يعرف اية قيمة اخرى ذاتية كانت او طاغوتية اجتماعية.

انه لا يفكر بعد ان باع نفسه لله ان يثبت لاحد انه فعل ذلك ، او انه مخلص ، او يشهد الله على ما في قلبه ، كلا انه يعرف ان الله بصير به فيبقى مخلصا لربه العليم بحاله ، ويكفيه ذلك من الناس ، فتراه خاشعا لله مسلما له راضيا بأقداره ، نشيطا في ابتغاء مرضاته ، متصلبا في ذات الله ، ثائرا ضد اعداء الله ، لا ترهبه قوى العدو ، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

هذه هي شخصية المتقي فهل نجدها في انفسنا ؟

الوحدة ضرورة جهادية

[208]المجتمع الاسلامي مجتمع حرب دفاعية ضد اعداء الانسانية و اعداء الرسالة ، ولا يمكن لهذا المجتمع ان يواجه تحديات الحرب من دون وجود وحدة داخلية متينة ، لذلك يدعو القرآن في الاية وقبل الحديث عن الحرب في الدرس القادم الى الوحدة ، و يجعلها مسؤولية كل الافراد ويقول:

]يا ايها الذيــن آمــنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين]ان

رحاب السلام يتلوث بالحساسيات الصغيرة التي تتراكم على بعضها حتى تصبح كسحابة داكنة ، وعلى اي فرد مسلم داخل المجتمع ان يقاوم نمو هذه الحساسيات ، ولا يتبع خطوات الشيطان منذ البداية ، لان الشيطان يستدرج الانسان خطوة خطوة الى الجحيم.

فعلينا ان نحدد عدونا الحقيقي وعدو الجميع (الشيطان) ونتحذر من اول خطوة يدعونا اليها ، وهي الحساسية ضد احد من اخواننا ، واعتباره عدوا لنا من دون الشيطان.

] [209]فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم]ثم يحذر ربنا المسلمين من السقوط في درك الخلافات الجاهلية النابعة من الشهوات ، و ينذرنا بانه عزيز فلا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب ، وانه حكيم يجازي الناس حسب افعالهم لا حسب اهوائهم و امنياتهم و ادعاءاتهم.

مسؤولية الحفاظ على الوحدة

[210]وهذا يعني اننا نحن المسؤولون عن المحافظة على وحدتنا بالاعتماد على هدى الله وبيناته ، وليس من الصحيح ان ننتظر الله ان يأتي و يفض خلافاتنا ، او ننتظر مثلا الامام الحجة (عج) حتى يصلح ما بيننا بطريقة غيبية ، انها آنئذ قيام الساعة ، وهنالك لا مسؤولية على احد ، كما ولا تؤخر العقوبة عن احد.

]هل ينظرون الا ان ياتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة]كناية عن مجيء الله (سبحانه) مع كل ملكوته.

]وقضي الامر[

اي آنئذ انتهت حياة المسؤولية ، وآنئذ تتبدل الحياة ، فلو اراد الله بالجبر ان يصلح بين العباد بالخير ، فالحياة غير هذه الحياة ، اما هنا فنحن بانفسنا مسؤولون عن تصفية خلافاتنا ، ثم بعدئذ نمثل امام الله للمحاكمة في الاخرة.

]والى الله ترجع الامور[

[211]و الامم السابقة لم تنزل عليهم ملائكة الله ، بل نزلت عليهم البينات ، وكان عليهم ان يستفيدوا منها في تحقيق مسؤولياتهم ، ومع ذلك فان بعضهم لم يستفد منها . بل بدل فيها و حرف وما ظلموا الا انفسهم.

]سل بني اسرائيل كم ءاتيناهم من آية بينة[

لكن بعضهم بدل هذه الايات.

]ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب]وقد يكون العقاب في صورة شياع

الفوضى بينهم ، و ضرب بعضهم ببعض نتيجة اهمالهم لرسالة الله ، و تورطهم في الخلافات الداخلية.

لماذا الاختلاف ؟!

[212]ولكن يبقى السؤال الهام : لماذا اساسا يختلف الناس ؟ وما هو جذر المشكلة.

الجواب :انهم يختلفون لان الدنيا زينت لقلوبهم ، ولكن المؤمن لا يتمحور حول الدنيا بل الاخرة ، ولذلك فهو يتقي الدنيا و شهواتها وفواحشها ، وهنا يظهر جليا مدى أهمية التقوى في انشاء حياة كريمة ، لانها تسحب فتيل الخلافات الاجتماعية المتمثلة في حب الدنيا.

]زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا]لانهم لا يأبهون بالدنيا كثيرا ، بينما الحقيقة انهم هم الفائزون][والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة[

و الدنيا الفاضلة لا يحصل عليها كل من ارادها ، بل هناك سبل يجب السير فيها حتى نصل الى الدنيا الكريمة ذات النعم المتكاملة ، وهي موجودة في آيات الله وفي طليعتها قانون الوحدة (الدخول في السلم كافة) انه باب يؤدي الى رزق الله.

]والله يرزق من يشاء بغير حساب[

[213]وكمثل على ذلك لنقرأ قصة الرسالة الاولى ، فالبشر كانوا جميعا على الضلالة ، فجاءت رسالة الله . ومن اهدافها الرئيسية توحيد الناس على الحق ، ورفع اختلافهم فيه ، ولكن اختلف بعض ممن اوتي الرسالة لماذا ؟ هل لانهم لم يملكوا ما يرفع اختلافاتهم ؟

كلا بل لانه كانت توجد هناك طائفة منهم يقومون بظلم الناس و البغي عليهم ، و جاءت الرسالة ضد البغي ، فعارضت مصالحهم المؤقتة فقاوموها اشد المقاومة ، اذ ان جذر الخلافات هو البغي ، واذا تخلص الناس منه استراحوا.

]كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين]و كانت هذه و سيلتهم لتوجيه الناس ، لا المال ولا القوة ، بل التبشير بحياة افضل و الانذار من العذاب (الترغيب والترهيب. (

]و انزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم]كان يريد بعضهم ظلم البعض الاخر فكانوا يختلفون في الامر ، وهنا استفاد المؤمنون بالرسالة بينما خسر الكافرون ، و المؤمنون انما اهتدوا لانهم رضوا ان يكون الحق مقياسا بينهم.

]فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه و الله يهدي من يشاء الى صراط

مستقيم]اما المؤمنون فقد اتخذوا من هدى الله و رسالته اداة لتوحيد صفوفهم ، و حل خلافاتهم ، بينما الكفار لم يفعلوا مثل ذلك ، لانهم كانوا يريدون البغي و ليس الحق.

الفتنة اكبر من القتل

هدى من الآيات

بالرغم من ان هذه الآيات تبين لنا جوانب من فريضة القتال . الا انها ليست مرتبطة بآيات (الجهاد الاسلامي) بل هي متصلة ببناء شخصية الامة ، التي تتميز بالتقوى و بالتمحور حول الحق ، في رد الخلافات الى الاسلام ، وايضا بالاستقامة و التصلب في التمسك بالرسالة ، و عدم التهاون فيها رغم الصعوبات التي تعترض طريقها.

ففي الآية الاولى نجد كيف ان الله يبشر الامة بالايام الصعبة التي تستقبلها ، و ينذرها بانها لو لم تستقم فيها على الحق . فان الجنة حرام عليها . ثم يتحدث عن الانفاق باعتباره فريضة مقارنة لايام الشدة . وبعدئذ يبين لنا ان القتال كره لكم . ولكن لابد لكـممنـه ، وان هدف العدو من القتال هو استلاب دينكم و اعادتكم الى اغلال الكفر . وعليكم ان تصمدوا ضده ، و يبشر اخيرا الصامدين في وجه الضغوط بكل خير.

وربما تكون الآية الاولى من الدرس القادم متصلة بالحديث عن الاستقامة و التصلب ، اذ انها تحرم الخمر و الميســر و هما اداتا تمييع للامة ، و تسببان ابعادها عن الجدية الرسالية.

بينات من الآيات

[214]حفت الجنة بالمكاره ، ومن اراد ان يدخلها فعليه ان يقتحم هذا السور الشائك . ولكن هل يعني ذلك ان اهل الجنة في شقاء دائم ؟

كلا .بل يعني انهم يتمتعون بالقوة و الصلابة التي تجعلهم مستعدين لكل الظروف .وهي تعطيهم مناعة من الاستسلام للضغوط ، و تحدي محاولات الاستعباد.

]ام حسبتم ان تدخلوا الجنة[

عبثا وبلا ثمــن ودون ان تكونــوا من اهل الجنة الذين امتحنوا بالفتن الصعبة و نجحوا فيها.

]ولما يأتكم[

اي دون ان يواجهكم.

]مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء و الضراء]البأســاء هي الصعــوبات التي منشؤها العدو . و الضراء الصعوبات المادية كالفقر و المرض (١)(١ (مجمع البيان / ج ١ / ص ٣٠٩

]و زلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله]لهول الصعوبات و الخسارة ، كانوا

يستعجلون نصر الله ، و عندما تصل الصعوبة الى ذروتها يجب ان نأمل الفرج.

]الا ان نصر الله قريب[

وهذه الآية تعني ان الذين يحلمون بالجنة مجانا وبلا ثمن انما يحلمون باطلا وسيجدون انفسهم في النار.

الجنة ليست مزرعة الدواجن ولا مربض الاغنام ، انها مقام الرجال و مكتسب الابطال .و عهود التخلف و الابتعاد عن صلابة الرسالة و خشونتها هي المسؤولة عن هذه النظرة اللامسؤولة الى الجنة ، ولهؤلاء يقول الامام علي (ع) " هيهات هيهات لا يخدع الله عن جنته. "

الانفاق سبيل التضحية

[215]وكما في الحرب فهناك في السلم فتنة و بلاء يتثمل في ضرورة الانفاق و الانفاق هو الاعداد النفسي الخارجي للحرب ، وهنا يشير القرآن الى الجانب النفسي من الانفاق اذ يجب ان يكون خالصا لله ، حتى يربي صاحبه على العطاء والتضحية ، ذلك ان التضحية ، كأية صفة نفسية اخرى ، تحتاج الى التدريب فهي تنمو شيئا فشيئا ابتداءا من التضحية بالمال القليل ، ثم المال الكثير ، ثم القتال والصمود وهكذا ، لذا يحدد القرآن هنا جهة الانفاق ، لعلاقته الوثيقة بالتضحية بالنفس وقلما تحدث القرآن عن التضحية بالنفس دون ان يقرنها بالتضحية بالمال.

]يسئلونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين]فكل خير يمكن انفاقه ، ولكن علينا ان نحدد وجهته وهي : ابتغاء مرضاة الله بعيدا عن الاهداف المادية او الرياء ، بل للوالدين.

]و الاقربين و اليتامى و المساكين و ابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم][٢١٦] الامة المسلمــة تتميز بالاستقامة على الحق ، و التضحية رغم صعوبتها ، وها هو القتال مفروض عليها ، بالرغم من انه مكروه على الانسان.

]كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم و الله يعلم وانتم لا تعلمون]الحق هو محور الانسان الرسالي و الامة المؤمنة لا الحب و الكره المجردين ، ذلك لان الحق ينفع الانسان و الباطل يضره ، بالرغم من ان النفس تميل الى الباطل و تزعم انه اصلح لها . و الله هو الذي يحدد الحق ، اما الناس فهم لا يعلمونه دائما ، لانهم محجوبون عنه بالشهوات التي تزين لهم الباطل و تصوره حقا لهم.

الفتنة اشد من القتل

[217]هل يجوز القتال في الاشهر الحرم ام لا ؟

كلا ولكن ليس هذا هو السؤال الاساسي عند القرآن ، ان السؤال هو : ما هو الهدف من القتال لأنه المقياس في الدين ؟

]يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله و كفر به و المسجد الحرام و اخراج اهله منه اكبر عند الله و الفتنة اكبر من القتل]ما هي الفتنة هنا ؟

انها مصادرة حرية الانسان و مصادرة حقوقه و اكراهه على الكفر ، هذه هي الفتنة في هذه الآية ، و القتل و القتال يستهدف تطهير الارض من عناصر الفتنة ، و بالرغم من ان القتل عملية شاذة اساسا ، لكن الاسلام يلجأ اليها لدفع ما هو اكبر ضررا منه وهو الفتنة .

من هنا فالقتال من اجل الحرية والحقوق قتال مشروع ، لانه قتال من اجل المبادىء الرسالية التي تريد تصفية عناصر الفساد ، اولئك الذين لا يمكن مهادنتهم لانهم لا يقفون عند حد معين من فسادهم.

]ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا]فهم يحاربون المبادىء الرسالية و يحاربون المعتقدين بها ، وعلينا ان نقاتلهم دفاعا عن مبادئنا ، وان لا نخضع لاهوائهم التي تشتهي ان تسرق منا قيمنا.

]ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم في الدنيا و الاخرة و اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون]لان قيمة الانسان انما هي برسالته التي يلتزم بها ويدافع عنها حتى الموت ، فاذا تنازل الانسان عن رسالته فقد تنازل عن قيمته رأسا ، انه اذا يذل اذلالا ، ويحرم من حقوقه ، و يتعرض لامتصاص جهوده و اعماله و مكاسبه ، فيكد من الصباح حتى المساء من اجل ان يستريح اسياده و مستعبدوه على الكراسي و يترفوا على حسابه ، اما في الاخرة فان الله يسوقه الى النار ، وحتى عباداته البسيطة (الصلاة ، الصيام .. الخ) سوف تحبط هي الاخرى ، لانه لم يحافظ على حريته ، ولانه اطاع الطاغوت في اهم اجزاء حياته ، وجعل طاعة الله محدودةببعض الجزئيات . انه سوف يقضي حياته في النار.

[218]هذا عن اولئك الذين يستسلمون لضغوط الطاغوت ، و يتنازلون عن دينهم و حريتهم و جهودهم للعدو ، اما الذين يهاجرون في البدء ليشكلوا قوة فلا.

]ان الذين آمنوا و الذين هاجروا و جاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله و الله غفور رحيم]ان هؤلاء يحدوهم الامل بالانتصار على العدو في الدنيا ، و الجنة في الاخرة ، و هذا الامل سوف يتحقق بفضل الله لهم.

لتقوى الاجتماعية

هدى من الآيات

من ميزات الشخصية الاسلامية في الفرد او في الامة ، التقوى و اخضاع الشهوات للرسالة و التمحور حول الحق ، و قد حدثنا القرآن الحكيم في الآيات السابقة عن التقوى في عدة مظاهر و آخرها حول الدفاع عن المبادىء بالقتال ، والان يحدثنا عن مظاهر اخرى للتقوى وهي ،في الوقت الذي تحدد المحرمات في الاسلام ، تضرب امثلة واقعية للتقوى.

يبدأ القرآن الحديث عن الخمر و الميسر ، باعتبارهما محرمان يشيعان عادة في الامم المترهلة اللامبالية بواقعها ، وعلى المسلمين ان يكونوا امة جدية مسؤولة ، تحارب من اجل مصالح الحق كل طواغيت الارض ، فكان من الطبيعي ان يأتي ذكر الخمر و الميسر مباشرة بعد آيات القتال.

وبعدئذ يوجهنا الى التقوى في المال و حقوق الناس ، و التقوى في ممارسة الجنس كواحد من اهم حقوق المجتمع ، و بمناسبة ذكر حقوق الناس ، يذكرنا بدور اليمين في تأدية هذه الحقوق و الدفاع عنها ، لا في هضمها و الاحتـيال علـى المجتمع بالايمان الباطلة.

بينات من الآيات

[219]الخمر وكل مسكر ، و الميسر وكل مقامرة ، يلهيان الانسان عن واقعه ، و يدفعان بالمجتمع الى زاوية الصراع و التشرذم . واذا اراد الله بناء امة قوية متماسكة ، وجب ان نسد كل ابواب الاختلاف و الترهل ، وكل النوافذ التي قد تهب منها رياح الانقسام ، و ليس من الصحيح ان يفكر المرء بانه يشرب كأسا من الخمر او يلعب شوطا من القمار . فما يضر ذلك ؟ كلا.

اولا : لان الخمر تدمن و تسحبك الى الازدياد منها وكذلك القمار.

و ثانيا : لان الاسلام حين يمنع الزنا يمنع التبرج ، لانه باب يؤدي الى الزنا شئنا ام ابينا ، وكذلك حين يمنع الخمر و الميسر يمنع حتى الجلوس في محافلهما ، حتى يسد كل الابواب مرة واحدة.

]يسألونك عن الخمر و الميسر قل فيهما اثم كبير و منافع للناس]متمثلة في ملء الفراغ ، و قضاء الوقت ، و الانتعاش الموقت.

]و اثمهما اكبر من نفعهما[

حيث انهما يسببان توزع المجتمع وانقسامه و الهائه عن واجباته النضالية.

ان الهدف الاكبر من وراء حرمة الخمر والميسر هو المحافظة على وحدة الامة و منع الحساسيات عنها (كما يظهر من آية اخرى في القرآن) ، وبهذه المناسبة تحدث القرآن عن العفو باعتباره الوسيلة الثانية لذات الهدف ، فلو افترضنا ان الحساسية نمت بين ابناء المجتمع، فعلينا تصفيتها بالعفو ، و قد ورد في بعض الروايات ان المقصود بالعفو هنا التوسط في الانفاق!

]و يسألونك ماذا ينفقون قل العفو[

وحين تقع الحساسية بين ابناء المجتمع ، تلهيهم عن مشاكلهم الرئيسية وعن جدية مواجهتها ، لذلك ذكرنا القرآن هنا بأهمية التفكر ، ليس في امور الاخرة فقط بل في شؤون الدنيا ايضا

وقال:

]كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون[

] [220]في الدنيا و الآخرة[

التقوى و الحقوق الاجتماعية

و تجربة التقوى في الحقوق الاجتماعية الاخرى تبرز بوضوح في حقوق اليتامى . اذ انهم اضعف حلقة في المجتمع ، اذ لا يقدرون على الدفاع عن انفسهم تجاه نهم الطامعين في اموالهم ، لذلك نجد القرآن يضرب من واقعهم مثالا لحرمة الحقوق في اكثر من مناسبة . وهنا يقول:

]و يسألونك عن اليتامى[

هل يبقون وحدهم ، ام يخالطوهم ، و بالتالي هل تفرز اموالهم و يقوم الولي باصلاحها و استثمارها ، ام تبقى مع اموال الولي يصلحها معها.

]قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم[

وليس يضركم لو نقص شيء منكم او منهم في الشراكة . لان الحرام هو تعمد الاعتداء على اموال الآخرين ، اما لو خلصت النية وكان المشرف عليها محسنا ، في تصرفاته تجاه اليتيم ، فان الله لا يحاسبه على خطئه . " ما على المحسنين من سبيل " وجاء في بعض النصوص : انه حين نزلت آية " و لا تقربوا مال اليتيم " تحرج الناس في التعامل مع اليتيم مما جعل الايتام يتعرضون لحرج شديد ، فنزلت هذه لكي لا ينفصل الايتام عن المجتمع.

]و الله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لاعنتكم]اذا اعتديتم على حقوق اليتامى ، فانه قادر على ان يسلب بعض نعمه عنكم حتى تعانوا مثلما جعلتم اليتامى يعانون من الحرمان . و ربما تدل الاية على ان الله خفف عليكم الحكم بعد الشدة ولم يأمركم بادارة اليتامى ، مع فرز اموالهم عن اموالكم.

]ان الله عزيز حكيم[

فهو قادر على استرداد الحقوق بعزته ، ويفعل ذلك بحكمته.

التقوى و حقوق المرأة

[221]وكما التقوى في حق اليتامى ، فكذلك في حقوق المرأة ، الحلقة الضعيفة الثانية في المجتمع ، التي يجب المحافظة على حقوقها بالكامل . و القرآن الحكيم ربط بين حقوق اليتامى والنساء في اكثر من مناسبة ، و بهذه المناسبة يبين القرآن مجموعة التزامات تجب على المسلم في الجنس ، ابتداءا من اختيار الزوجة ، و مرورا بالعملية الجنسية ، و الخلافات العائلية

، و الطلاق ، و الرضاع . وهي تنظم كذلك علاقات المجتمع الاسلامي ، ولكن يبدو ان الهدف من ذكرها هنا ، هو التركيز على مظاهر الالتزام بحقوق الناس داخل المجتمع الاسلامي وبتعبير آخر : التقوى في حقوق الناس.

]ولا تنكحــوا المشــركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم]تلك المشركة بجمالها و روعتها ، او بمالها و شهرتها.

]ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم [المشرك ، والسبب : ان اهم هدف من الزواج هو تكوين عائلة و اسرة تساهم في بناء المجتمع وتربية الجيل الصاعد منه . وعلينا ان نختار الزوجة و الزوج وفق هذا الهدف و بمقياس الكفاءة الايمانية ، لانها سوف تحقق هذا الهدف افضل من غيرها . و المرأة المشركة ، لا تستطيع ان تكون عضوة صالحة في مجتمع الاسرة . و كذلك الرجل المشرك ، فيضيع الطرف الثاني وتضيع الاسرة.

]اولئك يدعون الى النار و الله يدعو الى الجنة و المغفرة بإذنه و يبين آياته للناس لعلهم يتذكرون]اذ معرفة فلسفة الحكم لا تحتاج الى اكثر من تذكر ، بما سوف يجره الزواج الى الاسرة التي تتكون من مشرك و مسلم من ويلات ، و نزاعات و ثغرات داخل المجتمع الاسلامي.

ومن الشباب اليوم من يختار زوجته من الغرب او الشرق لمجرد انها تعجبه ، فاذا به يتعرض لعدة مشاكل بعد عودته الى بلاده . اذ فارق القيم و التقاليد و التربية و عموم الدين ، تجعل زواجه جحيما . وكثيرا ما ينتهي بالطلاق.

وهم في الاغلب يبررون هذا الزواج ، بادعاء ان الزوجة آمنت . ولكن اي ايمان ، هذا الذي يدفع اليه الزواج فقط ، وليس معه اية ممارسة ايمانية ، ولا حتى قناعة واقعية ، بل مجرد ترديد الشهادتين كالفاظ فارغة.

حكم المقاربة في الحيض

[222]ومن حقوق المرأة ، وفي ذات الوقت من آداب الزواج ، الا تباشر النساء في الحيض لانه يسبب انحرافا في صحة المرأة و خللا في اجهزتها الداخلية و اضطرابات في الدورة الدموية .. و.. و . والمباشرة في هذا الوقت ليست فقط تشكل اذى للمرأة . بل وللذرية في المستقبل لو قدر لهم ذرية كما يهدد بعقم الزوجين و انتشار الامراض في الاجهزة التناسلية فيهما ، من هنا حرم الاسلام هذه المباشرة ، و جعل ذلك حدا للشهوة الجنسية و تقوى لله فيها . حتى تروض النفس في سائر شؤونها ، و تطوع بارادة الايمان.

]ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعهتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن]حتى ينقطع الدم ، وبعدئذ يجب الانتظار الى ان تغتسل المرأة من الحيض.

]فاذا تطهرن[

عن الدم وربما بالاغتسال ايضا.

]فاتوهن من حيث امركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين]و التعبير بـ " من حيث امركم الله " قد يدل على ضرورة التزام المباشرة بالسبيل الفطري ، حيث الرحم ، وحيث ترجي الولادة ، لا من السبيل الاخر ، حيث الشذوذ و الامراض و حرمان المرأة في لذة الجنس.

و الله يحب التوابين ، الذين اذا تعدوا حدود الله ، و باشروا نساءهم في الحيض او من غير السبيل الفطري . فانهم سرعان ما يتوبون الى الله . و الله يحب المتطهرين الذين يلتزمون بحدود الله كاملة لانه في اطارها تنمو قيم النظافة الروحية و الجسدية ، الروحية بالتقوى ، و الجسدية بالاغتسال.

[223]لماذا المباشرة الجنسية هل لمجرد المتعة . كلا . بل ابتغاء فضل الله من الاولاد الصالحين . ان وجود الهدف الاسمى للغرائز عند المسلم يجعله يمارسها في حدود تحقيق الهدف ، ولا يسترسل معها الى حيث يحطم جسده و يلوث روحه.

]نساؤكم حرث لكم[

الهدف منهن انجاب الابناء.

]فأتوا حرثكم انى شئتم[

في اي مكان واي زمان . ولكن دون ان تستبد بكم الشهوة الجنسية ، بل و تذكروا الآخرة وما فيها.

]و قدموا لانفسكم[

فقسموا اموالكم و اوقاتكم و طاقاتكم ، بين شهوات الدنيا وفي طليعتها شهوة النساء ، وبين تطلعات الآخرة . ان في ذلك ضمانا لالتزامكم بحدود الله في ممارسة الشهوات.

]و اتقوا الله[

والتزموا بمناهجه في التمتع باللذائذ.

]و اعلموا انكم ملاقوه[

غدا حيث يعاقب الفاسق اشد العقاب.

]و بشر المؤمنين[

المتقين و الملتزمين بحدود الله.

[224]و التقوى يجب ان تكون حاجزا داخليا بين الانسان وبين انانيته وذاتيته .خصوصا في مجال الصراعات الاجتماعية ، و بالاخص فيما يتصل بالخلافات العائلية . والذي سيجسد التقوى ، هو عدم استخدام اليمين في اثبات الادعاءات الباطلة . واذا التزم الناس باليمين الصادقة ، كما هو المفروض في المؤمنين ، فانهم سيجدون حاكما عادلا بينهم ، اذ يفصلون كل قضاياهم بمجرد ان يستحلف احد الطرفين الاخر ، و يتوقف صاحب الادعاء الباطل عن اليمين الكاذب و يعترف بخطئه.

لذلك شدد القرآن على اليمين وقال:

]ولا تجعلــوا الله عرضــة لايمانكم ان تبروا و تتقوا و تصلحوا بين الناس و الله سميع عليم][٢٢٥] و يبشرنا القرآن الحكيم بالعفو عن القسم الذي يبتدر عن اللسان دون وعي او قصد . وانما يحاسب الله الانسان على القسم الذي يعقد عليه قلبه ، و يتعهد عليه تعهدا واعيا . وهكذا القسم نوع من العهد . ولذلك الحقوه بالعهد.

]ولا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم[

واجبات العلاقة الزوجية

هدى من الايات

يبين القرآن هنا مجموعة من الحدود في العلاقة الزوجية ، والتي هي طائفة من حقوق المرأة في الاسرة تستعرضها هذه الايات من زاوية الطلاق . لان حالة الطلاق ، تعتبر قمة النشاز في العلاقة العائلية ، و التي تتعرض حينها الحقوق للضياع . فالحديث عنها يعني الحديثعن الالتزام بالحقوق في الحالات العادية .

المسلم المتقي : هو الذي يلتزم بحقوق الناس ، ابتداء من عائلته ، ثم ليس في الحالات العادية فحسب ، وانما في الاوقات الصعبة ايضا كالطلاق.

في البدء يذكر القرآن جانبا من احكام الايلاء حيث يحلف الزوج الا يباشر زوجته ، فعليه ان يكفر عن حلفه ويباشرها او يطلقها . وهذه حالة يدخل فيها الحلف طرفا في الحقوق الزوجية ، و ذكرت هنا بمناسبة الحديث عن الايمان الباطلة . باعتبار الايلاء مثلا لاستغلاليمين في الاضرار بالآخرين.

ثم يستعرض احكام الطلاق ، حيث يجب على المرأة ان تعتد حتى يستكشف ما في رحمها من حمل . و خلال فترة العدة ، يجوز للزوج ان يرجع اليها.

ولا يجوز ان تستمر عملية الطلاق ثم العودة الا مرتين ، ففي الثالثة لا بد لهم من الاختيار النهائي ، فان استطاعا الالتزام بالواجبات الزوجية فليبقيا على العلاقة ، والا فتسريح باحسان.

وفي الطلقة الثالثة لا تحل له الا بعد ان تتزوج من غيره ، وبعد العدة لا يجوز الامساك بالمطلقة ، لانها حرة كما لا يجوز له ان يمنعها من الزواج بمن شاءت.

و بمناسبة الحديث عن الطلاق ، يأتي الحديث عن الرضاع باعتباره موضع تفاهم بين الزوجين ، ثم يعود الحديث الى حقوق الزوج المتوفى عن زوجته . فعليها ان تبقى في حداد اربعة اشهر و عشرا.

وبعدئذ يواصل القرآن الحديث عن المطلقات ، و يحذر من ان يصبحن اداة لمتعة اهل الشيطان ، بل السبيل الوحيد لهن الزواج من رجال اخرين.

ومن حقوق المطلقات ايضا المهر . حيث يجب ان يدفع كله ، بالرغم من الطلاق . الا في حالة واحدة هي الطلاق قبل الدخول حيث يدفع نصف المهر.

ومن الطلاق ينتقل القرآن الى الالتزام بالصلاة . خصوصا الوسطى لكي لا ننسى ربنا . فهو الذي يبارك تلك العلاقات و يحل المشاكل ، و يعطينا ايمانا نقاوم به مغريات الشيطان و سلبيات انفسنا.

وبعد ان يذكر بعض الحقوق المستحبة للنساء ، كالوصية لهن بالبقاء في البيت بعد وفاة الزوج ، او الاحسان اليهن بعد الطلاق ، بعدئذ ينتهي الدرس.

ان اسلوب عرض القرآن لحقوق المرأة هنا يختلف عن اسلوبه في السور الاخرى . لانه هنا يبين لنا : ضرورة الالتزام التام بحدود الله ، وفي الاوقات الحرجة ، حيث يكاد الشيطان يتغلب على ارادة الانسان . ولهذا تجد القرآن يذكرنا هنا بالتقوى مرة بعد اخرى ، و يطالبنا بتذكر الله و تذكر انه عليم بعباده وانه بصير خبير . وعلينا ان نحذره حذرا شديدا ، كل ذلك ليكرس روح التقوى في نفوسنا . تلك الروح التي هي واحدة من اهم ميزات الشخصية المؤمنة .

بينات من الآيات

التقوى في العلاقة الزوجية

[226]لا يجوز ان يضر الزوج بزوجته ، فيجعلها في بيته دون ان يؤدي اليها حقوقها ، و التي منها حقها في المتعة الجنسية . بل عليه ان يباشرها لا اقل مرة كل اربعة اشهر . فاذا حلف يمينا ان يمتنع عن المباشرة الجنسية ، لسبب او اخر ، فانه يمنح له فرصة اربعة اشهر . بعدها يجب عليه : اما العودة اليها و كفارة حلفه ، واما طلاقها . جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر و الصادق (عليهما السلام) انهـما قـالا : " اذ الى الرجل ، لا يقرب امرأته ، فليس لها قول ولا حق في الاربعة اشهر ، ولا اثم عليه في الكفعنها في الاربعة اشهر ، فان مضت الاربعة

اشهر قبل ان يمسها فما سكتت و رضيت فهو في حل وسعة ، فان رفعت امرها قيل له : اما ان تفيء فتمسها ، واما ان تطلق ، و عزم الطلاق ان يخلي عنها " (١)[للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة اشهر فان فاؤوا فان الله غفور رحيم]بالرغم من ان نقض اليمين حرام . الا ان هذا اليمين مرتبط بحقوق الناس.

(1)نور الثقلين / ج ١ / ص ٢٢٠.

و الله يغفر نقضه ، للنية الصالحة وراء هذا النقض.

] [227]وان عزموا الطلاق[

فعليهم الالتزام بحقوق الزوجة و تقوى الله فيها.

]فان الله سميع عليم[

[228]بعد الطلاق الذي يقع بسبب او اخر ، يجب على المرأة ان تعتد ولا تتزوج خلال فترة تتحدد بعادتها بثلاثة قروء و السؤال ما هي القروء الثلاثة ؟ جاء في بعض كتب اللغة .. ان هنا فرقا بين (القرء) بفتح القاف . فهو للحيض و)القرء) بضم القاف فهو للطهر ،وان جمع الاول يأتي على (أقراء) ، بينما يأتي جمع الثاني على (قروء. (

وهكذا تكون الآية دالة على انه تكفي حيضتان و ثلاثة مرات طهر . فاذا دخلت في الحيضة الثالثة بانت . وعلى ذلك افتى المشهور كما جاء في حديث شريف عن زرارة عن ابي جعفر (عليه السلام) " ان عليا كان يقول : " انما القرء : الطهر ، فيقرر فيه الدم فتجمعه ، فاذا جاء الحيض قذفته ، قلت رجل طلق امرأته من غير جماع بشهادة عدلين ، قال اذا دخلت في الحيضة الثالثة انقضت عدتها وحلت للازواج ، قلت : ان اهل العراق يرون ان عليا (ع) يقول : انه احق برجعتها ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة ، فقال : كذبوا " (١(

وهكذا اذا حاضت المطلقة ثم طهرت ، حتى ثلاث مرات فقد خرجت من العدة واذا لم تحض تنتظر ثلاثة اشهر ، تخرج بعدها من العدة ، و تصبح حرة في التصرف في(١) البرهان / ج١ / ص ٢١٩

نفسها.

ان العدة حق من حقوق الزوج على الزوجة كما هو حكم من احكام الله . ذلك انه في هذه الفترة يراجع الزوج نفسه وقد يعود اليها ، و حكم من الله ، اذ انها تحافظ على ماء الرجل عن الاختلاط بماء غيره ، وبالتالي تمنع ضياع نسب الافراد . و ظهور طبقة من الشذاذ فيالمجتمع.

]و المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء[

ينتظرن فترة ثلاثة مرات تذهب عنهن عادتهن الشهرية) الحيض) فاذا ظهر خلال الفترة اثار الحمل فعليهن اظهاره.

]ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن ان كن يؤمن بالله و اليوم الاخر و بعولتهن احق بردهن في ذلك ان ارادوا اصلاحا]ففي هذا الوقت ، وقت العدة ، يحق للزوج الرجوع بشرط ان يكون رجوعه الى الزوجة بعد تصميم على بناء حياة زوجية عادلة.

]ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف[

و ليس من الصحيح تحميل الزوجة واجبات دون ان تعطى لها حقوق ، مثلا ، حين يفرض عليها واجب التربص و الانتظار ، يعطي لها حق النفقة خلال الفترة و الواقع : ان هذا قانون انساني عام حيث يجب ان تربط الحقوق بالمسؤولية في اي تشريع.

]و للرجال عليهن درجة[

اذ جعل الرجل هو الحاكم في محيط الاسرة . و بيده الطلاق ، و عليه النفقة ، وله الطاعة.

]و الله عزيز حكيم[

عزيز في قدرته على الرجال و النساء . حكيم في تشريع الواجبات و الزام الناس بها.

[229]الطلاق ، لا يتكرر الى ما لا نهاية ، ذلك ان تكرار الطلاق يجعل الزوج في وضع الحاكم المطلق الذي لا تتحدد تصرفاته . انما يمكنه ان يطلق فقط ثلاث مرات حيث تحرم عليه المرأة الا بعد ان تتزوج برجل.

]الطلاق مرتان[

و بعدهما على الزوج ان يختار احد الامرين.

]فامساك بمعروف[

و زواج صالح و معاشرة معروفة.

]او تسريح باحسان[

او انهاء العلاقة الزوجية للاخير ، و اعطاءها حقوقها و اضافة الاحسان الى الحقوق.

وعند الطلاق يبقى المهر عند المرأة ولا يحل للرجل ان يسترجع المهر الا في حالة واحدة هي : تنازل المرأة عن مهرها في مقابل قبول الرجل بطلاقها . اذا هي ارادت الطلاق . وبالطبع في هذه الحالة يجب ان يتدخل الناس ليعرفوا ما اذا كان طلب الطلاق من قبل الزوجة مستند الى تضييع الزوج لحقوق الزوجية . و عدم رعاية حدودالله فيها ، ام نابع من شهوة او غضبة عابرة.

]ولا يحل لكم ان تأخذوا مما اتيتموهن شيئا[

من المهر.

]الا ان يخافا الا يقيما حدود الله[

حيث وصلت العلاقة الزوجية مرحلة بعيدة من الحساسية ، بحيث يصعب معها الالتزام بالحقوق المتقابلة.

)فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به]و اعطت من مهرها ، ثمنا لطلاقها.

]تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون [الظالمون لانفسهم و للمجتمع من حولهم ذلك ان هذه الحدود وضعت ضمانا للعدالة الاجتماعية ، و رعاية لحقوق الجميع ، ومن يجاوزها فهو الظالم الآثم.

[230]و بعد الطلاق الثالث ، تحرم على الزوج حتى تتزوج من رجل اخر زواجا دائما ، ويباشرها الزوج ، ثم ان طلقها تحل للزوج الاول.

]فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله]فلا يجوز العودة اليها ، للاضرار بها ، بل لكي يؤسسا ، فعلا ، حياة عائلية متينة.

]وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون[

اي للعلماء الذين يتفهمون الحقائق ، و يعرفون مدى اهمية العلاقة الزوجية ، و مدى ما تحتاج هذه العلاقة الى الضبط والتحديد ، لان اندفاع شهوة الجنس من جهة ، و نزغ النزاعات والسلبيات من جهة اخرى تجعلان العلاقة الجنسية مهتزة . و بالتالي تهددان البناء الاسري بالزوال ، ولذلك بين الله حدودا حاسمة لهذه العلاقة حتى يحافظ من جهة على استقامة شهوة الجنس ، و عدم انحرافها في متاهات بعيدة ، ومن جهة ثانية يقلل . من السلبيات ويحسم النزاعات.

ان المجتمع الصناعي اليوم يعاني من اهتزاز العلاقة الجنسية . و يعاني لذلك من الكثير من السلبيات الناتجة عن انعدام الاسرة ومنها انعدام التكامل الخلقي و تراكم العقد و اشاعة الامراض الخطيرة.

[231]بعد العدة تصبح المرأة حرة ، وعلى الزوج ان يفكر مليا فيما اذا يريد زوجته ام لا . فاذا ارادها فعليه ان يراجعها قبل انتهاء الفترة الممنوحة له . و الا فليس له حق في منعها من التصرف في شؤونها لانها اصبحت حرة.

]واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا]لتضروا بهن ، وتمنعوهن من الزواج بغيركم ، لان ذلك عدوان وظلم.

]و من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه[

ذلك ان حدود الله التي تحافظ على حقوق الناس هي في مصلحة الجميع . فاذا تجاوزها شخص و اعتدى على حقوق الاخرين ، فقد يأتي شخص اخر و يعتدي على حقوقه هو . وهكذا تعم الفوضى . من هنا وقبل ان يفكر الواحد في ظلم الناس ، لابد ان يجعل هذا الظلم في الاطار الاجتماعي العام و يحلل الموقف . هل يريد ان يعود

للمجتمع الظلم والفوضى و.و. ام لا . اذا احب ذلك فليقدم ، ولينتظر النتائج السيئة .من هنا يذكر القرآن هؤلاء الظالمين بنعمة الرسالة ويقول:

]ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمت الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به]فهل تحبون العودة الى حياة الجاهلية ، حيث لا كتاب فيه دستور حياتكم ، ولا حكمة تشرح تفاصيل سلوككم ..؟

]و اتقوا الله واعلموا ان الله بكل شيء عليم[

هذه الفكرة هي - في الواقع - ضمانة تنفيذ حدود الله المبينة في الايات السابقة ، وهي جوهر آيات هذا السياق ، الذي يتحدث لنا عن التقوى في مظاهرها المختلفة.

[232]هل تستطيع الزوجة ان تعود الى زوجها الاول بعد انقضاء فترة العدة ؟ بالطبع يجوز لها اذا اختارت ذلك ، و دون ان يتمكن زوجها من جبرها على ذلك . الا ان هناك بعض الاقارب (ابوها او أخوتها او او .) قد يمنعونها من ذلك . وهم ظالمون.

]واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن[

ولا تؤذوهن.

]ان ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف[

وذلك بعقد جديد ، يحتاج الى تراض منهما معا ، وليس من الزوج وحده ويكون بذلك معروفا.

]ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله و اليوم الاخر ذلكم ازكى لكم و اطهر [حيث انكم لو منعتم المطلقة من زوجها فقد لا يخطبها احد ، او قد تسقط في مهاوي الرذيلة . او قد تربطها علاقة غير طبيعية مع زوجها الاول.

]و الله يعلم وانتم لا تعلمون[

لا تعلمون اضرار الكبت الجنسي حيث يؤدي الى انفجار خطير .

التقوى في ادارة البيت

هدى من الآيات

و بمناسبة الحديث عن الطلاق يبين الله حكم الرضاعة ، اذا كثيرا ما يشملها الخلاف العائلي ، فهل على الزوجة ان ترضع وليدها نعم ، بمثل ما يجب على الزوج ان ينفق على الزوجة وعلى وليدهما ، بيد ان حدود الرضاع و مقدار الانفاق تتحدد بقدر المكنة و الاستطاعة ، اذ ان الله لا يكلف الناس اكثر من طاقاتهم.

و على الزوجين ان يتشاورا في شؤون البيت وبالاخص في شؤون وليدهما ، و يتخذا القرار المناسب في انهاء فترة الرضاعة ، كما ان بأمكان الزوج ، آنئذ ، ان يستأجر من النساء من ترضع ابنه ، بشرط ان يدفع اجورها كاملة.

بينات من الآيات

] [233]و الوالدات يرضعــن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة[

فهذه هي فترة الرضاعة الفطرية التي يحتاج الوليد خلالها الى لبن الام الذي هو افضل غذاء للولد ، خصوصا في ايامه الاولى . ولا ينبغي للام ان تتهرب من واجبها كأم و تخاطر بمصير ولدها لاسباب كمالية تافهة . اذ يعتمد مستقبل ولدها على هذا اللبن وقد ثبت علميا ان كثيرا من الضعف و المرض في الاولاد ، يأتي نتيجة عدم الرضاعة من لبن الام.

]وعلى المولود له رزقهن و كسوتهن بالمعروف[

فالاب الذي ولدت الام وليدها له وفي صالحه ، عليه الايبخل بالنفقة ، حسب المعروف و وفقا لمستوى معيشتهما الاجتماعية.

]لا تكلف نفس الا وسعها لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده]لا يجوز ان يستخف بعاطفة

الابوين فيلحق بهما ضرر عبر الولد . كان يمنعا من زيارتهما او يمنع الرجل زوجته او العكس من لذة الجنس رعاية لحق الولد . جاء في الحديث المأثور عن الصادق (ع) - في تفسير الآية - في قوله تعالى " : لا تضار والدة " قال (ع)" كانت المراة ممن ترفع يدها الى الرجل ، اذا اراد مجامعتها ، فتقول : لا ادعك ، اني اخاف ان احمل على ولدي ، ويقول الرجل للمرأة : لا اجامعك اني اخاف ان تعلقي فأقتل ولدي فنص الله " ان يضار الرجل المرأة و المرأة الرجل " (١)يظهر من النص الثاني ان معنى ذلك : عدم جواز منع الاب من زيارة ولده او العكس اذا كان عنده.

(1)الميزان الجزء الثاني / ص ٢٥١

الحديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام : " لا ينبغي للوارث - ايضا - ان يضار المرأة فيقول : لا ادع ولدها يأتيها ، و يضار ولدها ان كان لهم عنده شيء ، ولا ينبغي ان يقتر عليه " (٢)[وعلى الوارث مثل ذلك[

الانفاق على العائلة.

]فان ارادا فصالا[

لا بنهما عن الرضاعة فلابد ان يكون ذلك:

]عن تراض منهما وتشاور[

شأنه شأن سائر امور البيت ولكن بشرط الا يسبب ذلك في تضييع حقوق الام التي ارضعت ولدها ، بل على الاب ان ينفق عليها بقدر ما ارضعت ثم يعطي الولد للمرضعة.

]فلا جناح عليهما وان اردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما اتيتم بالمعروف واتقوا الله و اعلموا ان الله بما تعملون بصير]انها التقوى . وانه الالتزام بحدود الله في قضايا الانسان الاجتماعية . ينقذ الانسان من مخاطر الفوضى و اللامسؤولية.

حق الزوج بعد الوفاة

[234]التسلسل الطبيعي لسياق الطلاق و الرضاعة و العدة ، يؤدي بنا الى

(1)الميزان / ج ٢ / ص ٢٥٦

الحديث عن التزام المرأة بالحداد على زوجها بعد الوفاة ، كحق مفروض من حقوقه عليها . من جهة وعدة تعتدها منه من جهة ثانية.

]والذين يتوفون منكم و يذرون ازواجا يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر و عشرا فاذا بلغن اجلهن]فهن حرائر في التصرف بانفسهن ، ويستطعن الزواج ممن شئن دون تدخل الاخرين في حريتهن . اللهم الا بقصد الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و التواصي العام بين المسلمين ، لذلك كرر القرآن هنا وفي آيات سابقة كلمة بالمعروف وقال هنا:

]فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن بالمعروف[

للدلالة على انهن هن المسؤولات عن تصرفهن في اطار القيم العامة للمجتمع ، والتي تسمي بـ (المعروف) في لغة القرآن ، اي القيم الرسالية التي تعارف عليها المجتمع ، اما لو تعدين المعروف الى المنكر ، فالكل مسؤول عنهن وعن تصرفهن ، وعليهم ردعهن عن المنكر.

]و الله بما تعملون خبير[

يعلم تعديكم على حقوقهن ، كما يعلم اهتمامكم بتوجيههن الى المعروف ، واذا لا تبرروا تدخلاتكم غير المشروعة في تصرفاتهن بغطاء الامر بالمعروف و النهي عن المنكر.

كيف تختار زوجتك

[235]الشهوة الجنسية لابد ان تجد لها سبيلا نافعا للمجتمع والا فهي تضر ولا تنفع و السبيل الصالح هو الزواج ، و الزواج يبدأ بالاختيار وفي عملية الاختيار يتدخل الشيطان سلبيا . و يدعو الطرفين الى الفاحشة ، وعلى المسلم ان يصبر و يتقي ربه في هذا الوقت الحرج ، ولا يخرج من حدود الشريعة ، بل يجعل لقاءه بأنثاه تمهيدا للزواج بها ، وبناء الاسرة الفاضلة . و مناسبة الحديث عن الخطبة هنا ، هي الحديث عن المطلقات اللاتي يبحثن عن الازواج بطريقة اكثر شجاعة من الفتيات الابكار ، حيث ان الاخيرات يغلف شهوتهن الجنسية ، لباس الحياء و الكبرياء.

]ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء[

اي في الدعوة المبطنة لهن بالزواج ، كأن يقول لها : داري واسعة ، او انا محتاج الى زوجة . او سوف اجدد اثاث بيتي .. وهكذا..

]او أكننتم في انفسكم[

و جعلتم الزواج مجرد مشروع تفكرون في تطبيقه[

]علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا[

لان الشيطان قد يدخل بين الرجل و المرأة اذا اختليا ببعضهما.

]الا ان تقولوا قولا معروفا[

هو التفكر في الزواج ذاته وليس اشياء اخرى.

]ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب اجله[

و ينتهي موعد العدة.

]و اعلموا ان الله يعلم ما في انفسكم فاحذروه[

فلا تعتدوا على حدود الله في خطبة النساء . ولا تستعجلوا في انشاء علاقة جنسية ، ثم تفكروا في الزواج ، ولكن لو فعلتم شيئا من ذلك ، فلا تيأسوا من روح الله ، و عودوا الى رشدكم و توبوا الى الله.

]و اعلموا ان الله غفور حليم[

[236]واذا تزوجتم بواحدة من المطلقات او غيرهن ولكن قبل ان تباشروهن ، تبدل الرأي بسبب من الاسباب ، فمن الممكن التراجع عن تكميل الزواج بعد دفع جزء من المهر . ولكن لو لم تحددوا المهر سلفا ، فعليكم دفع مقدار من المال يتناسب مع مقدوركم الاقتصادي . فالغني يدفع بقدره و الفقير بقدره.

]لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن او تفرضوا لهن فريضة و متعوهن]متعة تقدر حسب وضع الزوج غنى و فقرا فـ..

]على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف]ولا يكون هذا المتاع بهدف غير شريف و مقدمة للمنكر.

]حقا على المحسنين[

و يعتبر هذا المتاع ، في الواقع ، نوعا من الاحسان الواجب ، اذ لم يحصل الزوج على ما يقابله من المتعة ، ولكنه قد يمكن ان يسبب للزوجة نوعا من الاذى باقدامه عليها و تراجعه عنها.

ان تحديد مقدار المهر في هذه الحالة يعود الى العرف العام حسب ظروف كل منطقة جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق (ع) في رجل طلق امرأته قبل ان يدخل بها ؟ " قال عليه نصف المهر ان كان فرض لها شيئا ، وان لم يكن فرض لها فليمتعها على نحوما يمتع مثلها منالنساء " (٣)

[237]تلك كانت اذا لم تحدد فريضة المهر . اما اذا حددت و طلقها الزوج قبل المباشرة ، فان عليه ان يدفع نصف المهر.

]وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة]معينة من المهر.

]فنصف ما فرضتم الا ان يعفون[

ان تعفي النساء عن نصف الفريضة.

]وأن يعفوا الذي بيده عقدة النكاح[

اولياؤهن الذين يمكنهم انشاء عقد النكاح.

]او تعفوا اقرب للتقوى[

ذلك ان الزوج لم يستطع ان ينتفع شيئا بزوجته.

]ولا تنسوا الفضل بينكم[

اي لا تنسوا انكم ذوي علاقة بينكم وعليكم المحافظة عليها وعدم قطعها بسبب سوء المعاملة ذلك ان هناك مجالات تنفع الاطراف في المستقبل.

(3)الميزان / ص ٢٥٨

]ان الله بما تعملون بصير[

وسوف يجازيكم بالحسنات ، لو تحابيتم و احسن بعضكم الى البعض الآخر.

المجتمع الاسلامي يجب ان يكون متينا الى درجة لا تؤثر فيه السلبيات الطارئة فحتى الخلافات يجب ان تسوي بطريقة تخلف وراءها امكانات لانشاء وفاق افضل ربما في ميادين اخرى.

ان المسلم يجب ان يتفضل على اخوته ، ولا ينتظرهم يتفضلون عليه.

[238]ان العلاقة بين المسلم و المسلم يجب ان يباركها الله ، حيث ان المسلم اخ المسلم في الله ، وكلما ضعفت هذه العلاقة بسبب الخلافات الطارئة يجب ان تعالج عن طريق زخم ايماني جديد . يمتن اخوة الايمان بين المؤمنين.

لذلك يوصي الله هنا وفي زحمة الخلافات العائلية بالعودة الى الصلاة باعتبارها وسيلة التقرب الى الله . ويقول:

و قوموا لله قانتين

]حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى و قوموا لله قانتين[

يبدو ان الصلاة الوسطى هي الظهر ، حين يتوغل المرء في شؤون الدنيا ، فالمحافظة على الصلاة فيه ، يعطي المسلم مناعة من التأثر بسلبيات الدنيا.

[239]و المحافظة على الصلوات لا تختص بأيام السلم بل حتى في الحرب يجب الاهتمام بها اذ انها تعطينا روحا جديدة تساعدنا على القتال وعلى الانتصار .

]فان خفتم فرجالا او ركبانا[

فـي حالة المـشي اذا كنـتم مشاة الجيش ، او في حالة الركوب ، وفي هذه الحالة عليكم اداء الصلاة بأي شكل ممكن ، ولكن بعدها يجب الاهتمام بشرائط الصلاة بالكامل.

]فاذا امنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون]اذكروا الله و تذكروا نعمة الهداية الى الدين الجديد . حيث انقذكم من الضلالة ان تذكركم له ضمان للمحافظة عليه . و التمسك الشديد به.

[240]بعد ان امرنا القرآن بالمحافظة على الصلاة في كل حال و خصوصا في حال اشتداد الخوف ، لكي يزودنا بالتقوى في مسيرة الحياة الصعبة ، بعد ذاك عاد ليبين لنا بعضا من احكام الزواج المستحبة ، وابرزها اثنان : ان يوصي الزوج ببقاء زوجته في بيـته بعد وفاتهالى عام ، دون ان يجبرها الورثة على الخروج منه . و ثانيا :ان يحافظ المرء على علاقته الانسانية بزوجته المطلقة ، فيتعهدها بالاحسان بالرغم من انتهاء علاقتهما الزوجية . فقال عن الموضوع الاول:

]والذين يتوفون منكم و يذرون ازواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج]اي يوصي بان تبقى الزوجة تتمتع بالنفقة و بالسكنى الى عام . واذا وصى الزوج ذلك ، فانه لا يعني ان يفرض على الزوجة البقاء في البيت ، بل ان يكون لها الحق في ذلك فقط.

]فان خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في انفسهن من معروف]فهي حرة . بعد انقضاء عدة الوفاة فيما تفعل لنفسها تستطيع ان تتزوج ، او ان تعمل او تسافر او ما أشبه.

]و الله عزيز حكيم[

يهيمن على اعمال عباده ، بعزته ، و يقدر لهم الجزاء المناسب بحكمته ، وهذه الزوجة المتوفي

عنها زوجها ، لا تستطيع ان تخرج من عزة الله و حكمته ان خرجت من بيت زوجها لتفعل المنكر ، ولذلك ليس من الصحيح حجزها في البيت ، لان الله يكفيها .. فهو العزيز الحكيم.

[241]و عن موضوع استمرار العلاقة الانسانية مع المطلقات بالرغم من انتهاء الروابط الزوجية يقول ربنا:

]و للمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين[

هذا فيما اذا انتهت فترة العدة . اما خلالها فانها كالزوجة ما يجب عليها الانفاق بالكامل.

[242]و بانتهاء بيان القرآن لحدود العلاقة الزوجية التي يجب الالتزام بها ، و تقوى الله فيها . بذلك ينتهي فصل من فصول التربية الاسلامية للشخصية المسلمة وبيان لمكوناتها الرئيسية . وفي الختام يذكرنا القرآن بان التقوى بدورها نتيجة لنمو العقل في المسلم، اذ ان آيات الله في القرآن تستشير العقل ، و تحرك طاقة التفكر في الانسان المسلم ، فيتوجه المرء الى ربه ، و يتقيه ، وبالتالي يلتزم بحدود الشريعة في كافة جوانب حياته ، لذلك قال الله:

[كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون]

الحاكمية الالهية

هدى من الآيات

بالرغم من ان هذا الفصل يعالج - فيما يترائى ظاهرا - موضوعات شتى ، الا ان هناك حقيقة واحدة ، تربط بين تلك الموضوعات ، وانما تعالج هذه الحقيقة من خلال معالجة تلك الموضوعات ، وهذا هو منهج القرآن الحكيم ؟ انه لا يعالج الحقائق المجردة بل ضمن تجسداتها الواقعية ، و توجيهاتها التربوية ، لقد رأينا كيف تحدثت الآيات السابقة عن التقوى ، انما تحدثت عنها ضمن الحديث عن مجموعة قضايا ، في الحرب ، وفي السلم . في الصراع الخارجي مع العدو ، وفي الصراع الداخلي مع الناس و بصفة خاصة داخل الاسرة.

وهنا يعالــج القرآن : موضوع الايمان بان الله هو الذي يقضي في الحياة بحكمه ، فبيده الامور مباشرة ، وانه ليس بعيدا . كما تتصور اليهود ، عن مباشرة سلطاته الالوهية سبحانه..

ان لهذه الحقيقة تجسدات واقعية في الموت والحياة ، وفي الغنى و الفقر ، وفي الملك يؤتــيه من يشاء ، وفي الانتــصار يهبه لمن يشاء ، وفي الرسالة ينزلها على من يشاء..

وان لهذه الحقيقة توجيهات تربوية تتجسد في : القتال في سبيل الله من دون خشية الموت (لان الحياة بيد الله) ، و الانفاق دون خشية من الفقر ، و الطاعة للحاكم باذن الله والالتزام بتوجيهاته ، و الايمان بكل رسل الله ، و الانفاق في سبيل الله..

وقد ذكرنا القرآن بتلك التجسدات الواقعية ، وهذه التوجيهات ، من خلال قصص تاريخية ذات

عبرة واثارة . و ضمنها التوجيهات التربوية..

ولكن يبقى سؤال : الم يكن من الافضل : ان يتحدث القرآن بشكل تجريدي محض ، عن الحقائق الواقعيــة ، كما يفعلها مثلا الفلاسفة ، و كتاب علم الكلام الاسلامي ؟

الجواب .. كلا .. لان القرآن كتاب حياة و كتاب تزكية ، ولانه كتاب حياة فهو لا ينقلنا من الحياة الى غياهب التجريدات الذهنية التي لا تمثل الا نفسها ، ولا تعكس الا خيالات فارغة اشبه ما تكون الى الاشكال الهندسية و الحسابات الرياضية لا تعني شيئا حقيقيا ،بل يتحدث الينا عن ظواهر الحياة ظاهرة ظاهرة منها ما انتهت وتتكرر ، كالظاهرة التأريخية ، ومنها ما هي متلاحقة كالظاهرة الطبيعية ، ومنها ما نصنعها كالحرب و السلام .. كل ذلك لتلتصق افكارنا بالواقع الخارجي اكثر فأكثر ، ثم يعطينا : رؤية نابعة من حقيقة عامة ،تجاه هذه الظاهرة ، رؤية تأريخية ، رؤية طبيعية ، رؤية في افعال الانسان . فهو بذلك لا يفصلنا عن الواقع ، بل يعطينا منظارا مكبرا و سليما ننظر من خلاله الى الحياة ، ذلك المنظار هي الرؤية وهي الحقيقة العامة (مثلا حقيقة هيمنة الله على الحياة. (

ومن جهة اخرى : لا يريد القرآن ان يشبع قلوبنا بحب الله ، أو افكارنا بالاعتقاد بالله . من دون ان يكون لذلك الحب ، وهذا الايمان : انعكاس عملي في حياتنا ، لذلك فكلما تحدث عن ظاهرة تاريخية . و اعطانا فيها رؤية حقيقية ، اضاف اليهما عبرة تربوية . و امرا بعمل نقوم به .. وسوف تجدون هذا المنهج في الآيات التالية.

بينات من الآيات

[243]خشية الطاعون ، نزح اهل القرية من قريتهم ، بيد ان الطاعون لحقهم وافناهم في الصحراء ، و بعد فترة طويلة مر بهم نبي فوجدهم عظاما نخرة ، فدعا ربه ان يحييهم فاستجاب له ربه .. هذه الواقعة تعكس حقيقة ان الله هو الذي يحيي و يميت.

]الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم ان الله لذو فضل على الناس [يتجسد في الحياة التي وهبها لهم.

]ولكن اكثر الناس لا يشكرون[

ربهم على انه ينعم عليهم بالحياة . وقد يكون الموت ايضا من فضل الله.

[244]بينما يجب عليهم : معرفة واهب الحياة ، ثم التسارع في تقديم حياتهم له ، لو طلبها منهم ، لانها منه واليه تعود.

]و قاتلوا في سبيل الله و اعلموا ان الله سميع عليم]يسمع الاصوات الظاهرة ، و يعلم النوايا الباطنة ، فلا تخلطوا مع الله في قتالكم عدوانا او رياء ، بل ليكن قتالكم خالصا لله وفي سبيل الله.

ان القتال في سبيل الله يجسد الايمان بان الله هو واهب الحياة .. و المطلوب من المؤمن ان يبلغ ايمانه بهذه الحقيقة الى هذا المستوى حتى يثبت صدق ايمانه بالله..

[245]و الله واهب ما في الحياة من نعم كما هو واهب الحياة ذاتها ، فهو الذي يوسع على من يشاء ، ويقتر على من يشاء ولكن ليس عبثا ، وانما بمقدار عطاء الفرد في سبيل الله ، و تجارته معه تلك التجارة التي دعى الله اليها في كتابه في اكثر من مناسبة وهنا يدعواليها ويقول:

]من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة]وهل هناك بنك في العالم يعطي على المئة ، ثلاثة مئة واكثر ، ولكن الله يفعل و يطلب منا ان ننفق في سبيله حتى يعوضنا اضعافا.

]و الله يقبض و يبسط[

فبيده الفقر ، اذ يقبض عن الفقير يد نعمته ، و بيده الغنى ، حين يبسط على الغني يد رحمته . هذا في الدنيا.

]واليه ترجعون[

في الآخرة فيجازي المعطي في سبيله اجرا عظيما..

هذه الآية تشمل تجسيدا حيا لصفة هيمنة الله على الحياة ، وكما تشمل توجيها للإنسان انطلاقا من هذه الحقيقة ، هو العطاء بلا خوف من الفقر و الفاقة.

امروا بالقتال فتولوا

[246

[اخرجوا من بلادهم ظلما و عدوانا و طالبوا نبيهم ، بان يختار الله لهم قائدا يحاربون اعداءهم تحت لوائه .. ولكن حين بعث الله لهم قائدا وجد الجد نكصوا على اعقابهم . انهم مثل لعدم الايمان الحقيقي وبالتالي فصل دين الله عن الحياة ، و فصل الدين عن السياسة و رجال الله عن امور الدنيا. .

ان الدين الذي يريده الله هو دين الحياة ، وان الايمان الذي يطالب به العباد ، هو الايمان بالله المدبر للكون ، المطاع بلا شريك في الحياة، وهذا الايمان كان مفقودا عند هذه الطائفة لذلك فشلوا في الامتحان . وقال عنهم ربنا:

]الم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى[

الذي كان قائدهم المطاع والذي انقذهم الله به من بطش فرعون.

]اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله]ولكن النبي كان يعرف مستوى ايمانهم

الضحل ولذلك.

]قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا و مالنا الا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا]فكيف لا نقاتل هل هذا معقول ؟

]فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين]كان يعرفهم قبل ان يكتب عليهم القتال ، و يتولوا ، ولكنه امتحنهم ليعرفوا انفسهم ، وليتم عليهم الحجة ، ولعل الناس يعتبرون بقصتهم.

ان هؤلاء يمثلون فريقا من الناس يؤمنون بالله ايمانا ظاهرا و سطحيا ، فاذا محصوا بالبلاء كفروا بالله ، اذ انهم - منذ البداية - كانوا يزعمون : ان الله محصور في المسجد وبعض الصلوات و الابتهالات ، ومن ثم ، بعض التعاليم الخلقية ، اما الله الذي يأمر بالقتال ، و بطاعة رجال معينين لا يملكون كفاءة القيادة حسب تصورهم الباطل .. فانهم يكفرون به..

[247]و قصة هؤلاء بالتالي ، هي قصة المؤمن الذي لم يذوب نفسه كاملا في بوتقة الايمان ، ولم يسلم نفسه لله . ولا تزال رواسب الجاهلية و قيمها تتحكم فيه ، لنستمع الى القصة و نعتبر منها لانفسنا:

]و قال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا[

فاذا بهم يجن جنونهم ، لماذا طالوت وليس فلان او فلان..

]قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه]لاننا اكثر اموالا منه ، والملك يجب ان يكون غنيا وليس طالوت كذلك.

]ولم يؤت سعة من المال[

فاجابهم النبي : بان قيادة الحرب لا تحتاج الى مال ، بل الى كفاءة اخرى موجودة في طالوت ، ولذلك اختاره الله.

]قال ان الله اصطفاه عليكم و زاده بسطة في العلم و الجسم]وهذه هي كفاءة القيادة الحربية ، ان يكون قادرا عليها جسديا وعلميا ، ثم ان اختيار الله له تزكية له ، و كافية لثقتكم بامانته وكفاءته ، ثم ان الله هو الهكم وبيده امور عباده ، و عليكم ان تطيعوه دون تلكأ .. او تقاعس.

]و الله يؤتي ملكه من يشاء و الله واسع عليم[

قادر و قدرته واسعة ، و رحيم و رحمته واسعة ، و عليم فهو الملك الحقيقي للعباد ، وهو يؤتي ملكه لمن يشاء.

[248]بذلك افحمهم ، ولكنهم تساءلوا وقالوا : من يقول ان الله قد بعث طالوت ملكا ؟ . هنا بين لهم علامة ملكه.

]وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم و بقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين]لقد كانت السكينة في التابوت بقية تراث الانبياء وكانت كافيه لهؤلاء الناس بالاعتقاد بان طالوت ملكهم ، ولكنهم مع ذلك لم يقاتلوا معه كما يأتي . وكان التابوت - كما جاء في التفاسير - هو الصندوق الذي وضعت ام موسى ، وليدها ، بأمر الله فيه . وبقي عند فرعونالى ان ورثت بنو اسرائيل ملك فرعون ، فأخذه موسى و وضع فيه مواريث الانبياء ، مضافا الى ودائعه ، و اورثه وصيه (يوشع. (

وكان التابوت (او صندوق العهد) يعتبر اكبر من اللواء . و الشعار عند بني اسرائيل . وقد استولى عليه الكفار من عبدة الاصنام في ارض فلسطين . وكانوا دائمي الحنين اليه . فلما اخبرهم (شموئيل (نبيهم بان الملائكة سوف تعيد اليهم صندوق العهد استبشروا ، لانهم علموا انه دليل انتصارهم على اعدائهم.

و تضيف التفاسير : ان الكفار ، لم يهنأوا بالصندوق ، اذ توالت عليهم النكبات ، فتطيروا بالتابوت . واستقر رأيهم ان يعلقوه بين بقرتين ، ثم يهجموا بهما في الصحراء . لتذهبا به انى شاءت الاقدار وكان ذلك الوقت مصادفا لذات الفترة التي انصب الله - عبر شموئيل- طالوت ملكا على بني اسرائيل ، و وعدهم بان تحمل الملائكة اليهم التابوت . فوجه الملائكة البقرتين الحاملتين للصندوق باتجاه ديار بني اسرائيل . وهناك اقوال اخرى . في هذه القصة التأريخية الا ان المهم عندنا عبرة القصة حيث نتساءل:

ماذا ترمز بالنسبة الينا السكينة و البقية ، انهما ترمزان الى ضرورة توفر صفتين في القيادة.

- 1الثقــة بها ، و اشاعة الاطمئنان فيمن حولها ، وذلك عن طريق التجرد للحق ، وعدم الاستســلام للقوى الضاغطــة ، و عدم تفضيل طائفة من الناس على طائفة.

- 2هذه واحدة و اخرى الاصالة و الارتباط بتراث الامة الحضارية و القدرة على التعامل مع هذا التراث تعاملا ايجابيا مستمرا ، ان تجارب الامة النضالية عبر القرون افضل ينبوع يلهم الناس الصبر و اليقين و التضحية من اجل القيم الرسالية.

[249]اختار طالوت جنوده ، وتوجه تلقاء العدو ، ولكنه كان محنكا لم يغامر بمواجهة العدو قبل ان يقوم بمناورة عسكرية ، الهدف منها اختبار جنوده ، فمر في طريقه بنهر عذب وكان جنوده يعانون من عطش شديد ، فنهاهم عن ان يشربوا اكثر من كف من الماء فقط ، وكانت المفاجأة ان اكثرهم فشلوا في الاختبار.

]فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه

فانه مني الا من اغترف]الماء بمقدار ما تحتويه يده فقط.

]غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم[

وهنا امر طالوت الذين لم يصبروا عن العطش قليلا ، بان يعودوا ربما الى احضان امهاتهم ، انهم ليسوا رجال حرب ، الحرب بحاجة الى خشونة و طاعة ، ولا تنفعها الميوعة والخـذلان ، و سـار بعـيدا عن النهر بجيش صغير ، ولكنه قوي المعنويات نوعا ما.

]فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت و جنوده]وكان جالوت يمثل جيش الكفر الذي خرج الى جنود طالوت للحرب ، في جيش ضخم ، كثيف العدد ، و لكن قليل المعنويات ، و بالطبع ارهب عدد الجيش الضخم و معداته الكثيرة ، المؤمنين لانهم بشر ، بيد ان روح الايمان اسعفتهم و ذكرتهم بالآخرة وبان الله يأمرهم بالمقاومةحتى يجزيهم الجنة ، هنالك اطمأنوا بالايمان.

]قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله[

و يتصورون انفسهم امام الله ابدا ، و يستمدون منه القوة و العزم قالوا:

]كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين]اذ لا يهم عدد الجيش بل ايمانهم بقضيتهم و تضحيتهم من اجلها.

شروط الانتصار على العدو

هدى من الايات

للنصر شرطان : الصبر و اليقين اما الصبر فهو تحمل المصاعب و المكاره الجسدية و النفسية و التطلع الى المستقبل و التعويض به عن مشاكل الحاضر ، واما اليقين فهو يعطيك الاندفاع و التضحية و الثقة بالمستقبل وهؤلاء جنود طالوت سألوا الله ان يزودهم بالصبر و اليقين - وفي ذات الوقت كانوا يسعون من اجل توفر هاتين الصفتين في انفسهم اذ كل دعوة الى الله بتحقيق شيء لا تستجاب لو لم يسعى المرء عمليا من اجل تحقيقه وقد جاء في الحديث .. يكفي من الدعاء مع العمل ما يكفي من الملح في الطعام.

بينات من الآيات

] [250]ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا[

اي اشملنا بصبر منك حتى لا نتزعزع بأية صعوبة.

]و ثبت اقدامنا[

اي ارزقنا اليقين حتى تطمئن نفوسنا و تترسخ خطانا على الاستقامة وهذه وتلك تمهيد الهدف الاكبر وهو النصر الذي سألوه اخيرا و قالوا..

]و انصرنا على القوم الكافرين[

[251]أثمرت دعواتهم و جهودهم..

]فهزموهم بإذن الله[

وان الله اذن لهم فانتصروا عليهم اذ ان الصبر و اليقين كانا من عطاء الايمان بالله و التقرب اليه و الدعاء اليه وبالتالي استجابة الله وكان هناك شاب صالح مؤمن بالله برز في المعركة اسمه داود .

]و قتل داود جالوت[

ولانه قتل جالوت وكان صالحا فقد التفت حوله الطائفة المؤمنة و تقرب اليه رئيسهم طالوت و استخلفه عليهم.

]و اتاه الله الملك و الحكمة و علمه مما يشاء[

وجعله خليفة في الارض باذنه ملكا نبيا كما تأتي قصصه في مناسبات اخرى .. ولكن هنا يريد القرآن ان يذكرنا بان الملك لله يؤتيه من يشاء وعلينا ان نطلبه منه كما ان النصر و الغنى و الحياة منه.

لقد بين القرآن الحكيم في مناسبات عديدة فلسفة الجهاد و ابرز اهدافها و بمناسبة الحديث عن داود ذكر هذه الفلسفة هنا ايضا وقال:

]ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين]حيث يهيء من عباده المؤمنين امة رسالية تقوم بالدفاع عن مبادىء الله المتمثلة في الحق و العدالة و الحرية و..و.. و تحارب كل من تسول له نفسه بالظلم و الجور و الاستعباد وتنقذ الناس منه ان هذا فضل كبير على الناس ولولا هذه الامة اذا لاصبحت الحياة البشرية اسوأ من حياة الغاب يأكل فيها القوي الضعيف و يأكل الضعيف من هو اضعف منه ، و يعيش الناس الخوف و الفقر و الحرمان.

وكلما كانت هذه الامة اكثر نشاطا و ايمانا تكون مبادىء الله افضل تطبيقا اما اذا تراخت الامة عن واجبها (كما نحن في عصرنا) فان الفساد سيعم الارض.

[252]وكما الحياة و الغنى و الملك و النصر من الله كذلك الهدي منه فهو الذي يهدينا الى

منهاج الحياة و اساليب مكافحة الفقر و الوصول الى الملك و النصر وذلك عن طريق رسالاته التي يختار لها رجالا امناء من عباده و يبعثهم انبياء بها.

]تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين][٢٥٣] [تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله]كما موسى عليه السلام.

]و رفع بعضهم درجات[

كما ابراهيم اتخذ خليلا وجعل للناس اماما.

]و أتينا عيسى ابن مريم البينات و ايدناه بروح القدس]ايده بالعصمة التي منعته من اي نوع من الفحشاء و المنكر ولقد ايد الله سائر الانبياء بها ايضا بيد ان عيسى كفر فيه بعض الناس و زعموا انه هو القدوس بذاته ودون تأييد من الله فنفى ربنا ذلك.

اذا الرسالة من الله وهي تعطى للانبياء على شكل متفاوت حسب كفاءات الانبياء و مصالح الله في العباد وهنا يبرز سؤال : اذا كان الله يهدي الناس فلماذا اختلف اتباع الرسل من بعدهم لماذا لم يهدهم الله جميعا هدى واحدا و تركهم يقتل بعضهم بعضا..

يجيب القرآن : ان الله لا يهدي الناس كرها وانما يوفر لهم فرصة الهداية فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها هكذا اراد الله للدنيا ان تكون مختبرا لمعادن الناس و قاعة امتحان لمدى ايمانهم ولا يسأل الله عما اراد.

]ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم[

من بعد الانبياء من اتباع حيث تقاتلوا.

]من بعد ما جاءتهم البينات[

فلم يكن اختـــلافهم لنقص في هداية الله لهم بل لخلل في ايمانهم بها و استجابتهم لدعواتها .

]ولكن اختلفوا[

وكان اختلافهم على الحق..

]فمنهم من آمن ومنهم من كفر[

فلم تكن اعمالهم صحيحة بمجرد انهم (كانوا) من اتباع الرسل بل كانت[ولو شاء الله ما اقتتلوا

ولكن الله يفعل ما يريد]وهنا ابرز القرآن - مرة اخرى - هيمنة الله على الحياة وان ما يجري فيها من خير و شر ، لا يدل على اعتزال الله سبحانه للسلطات ولا على انه مغلوب على امره لا يسعه منع حدوث الشر كلا ولا على انه راض بما يقع على الناس في الدنيا من شرور بل لانه يريد اختبارهمفتركهم الى اجل مسمى وهو قادر على اخذهم اذا شاء بسطوته العزيزة و قدرته الواسعة التي لا يعجزها شيء.

[254]ماذا تعني هذه الحقيقة بالنسبة لنا ، انها تعني اننا لسنا مخلوقين عبثا ولا متروكين هكذا الى الابد بل ان هناك فرصة قصيرة امامنا لتجربة ايماننا و ارادتنا فعلينا استغلال هذه الفرصة بالعطاء و الانفاق قبل ان تنتهي الفرصة..

]يا ايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه]لانه لا يملك احد شيئا حتى يبيعه.

]ولا خلة ولا شفاعة[

وليس هناك من صديق وحتى لو كان فلا يستطيع ان يفعل لنا شيئا . لانه هو الاخر مبتلى ومغلوب على امره اذا دعنا نفكر في ذلك اليوم وننفق..

]و الكافرون هم الظالمون[

الذين يظلمون انفسهم ولا يبعثون لحياتهم الاخرى خيرا..

ومناسبة الحديث عن الانفاق قد تكون تكميلا للحديث عن القتال في سبيل الله في الآيات السابقة اذ يتحدث القرآن عنه اذا تحدث عن القتال على الاكثر.

سماء الله الحسنى

هدى من الآيات

من خلال القصص السابقة ، ذكرنا القرآن ببعض اسماء ربنا الحسنى وفي طليعتها انه يهب الحياة و الغنى و الملك و النصر و اخيرا الهدى . و الواقع ان الغنى و الملك و النصر و الهدى ليست الا بعضا من مظاهر الحياة التي يهبها الله للانسان . وفي هذه الآيات يتابعالقرآن تذكرته بربنا و بيانه لصفاته الحسنى ، والتي منها قدرته على بعث الناس من جديد.

فالآية الاولى والتي تسمى بآية الكرسي ، وقد جاء في السنة الشريفة اهتمام بها و توجيه الى قراءتها ، لانها تلخص صفات الله التي تساهم معرفتها في تربية النفس البشرية . فهو الذي يدبر الحياة و يحفظها في كل لحظة ، ولولا حفظه للحياة اذا لزالت . بعدئذ يوجهناالقرآن الى الناحية العملية للايمان بان الله حي قيوم ، وهي ضرورة التسليم لله وحده ، و التمرد ضد كل سلطة لا تستمد شرعيتها من قيم الله ، والتي يسميها القرآن بالطاغوت . ثم بين القرآن ان

الايمان بالله و بقدرته الواسعة يدعونا الى الايمان باليوم الاخر ، حيثان الله قادر على ان يحيي الموتى . فليست هنالك اية صعوبة في اعادة الناس الى الحياة للحساب.

بينات من الآيات

[255]فـي حالــة الرخاء لا يكتشف البشر شيئا اما في الشدة فانه يستثير عقله ، ويحاول ان يفهم الحياة بعمق ، حتى يرفع حاجته واذا اشتدت حاجة الانسان و استبدت به الضراء ، واعيته مذاهب الحياة ، فانه - انئذ - يتوجه الى ربه ، و يجأر اليه ، و تسقط امامه كلالاصنام التي كان يعبدها.

بهذه المناسبة سمى العرب ربهم بـ (اله) لانهم يألهون اليه ، و يتوسلون به اشد التوسل ، عــندما تصــيبهم الضــراء . و الكلمة المفضلة في لغة القرآن للدلالة على ربنا هي كلمة (الله) وهنا تبدأ آية الكرسي بهذه الكلمة لاستثارة ضمير الانسان بأن الذي تجأر اليه و تتوسل به ، هو وحده الجدير بان يكون ربك الحقيقي.

]الله لا اله الا هو[

ولكن ما هي صفات ربي ؟ انه يتميز بسلسلتين من الصفات الحسنى تتصل الواحدة باسماءه الذاتية ، فهو عالم ، قدير ، سميع ، بصير ، يريد ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، و هناك كلمة تشير الى هذه الصفات هي (الحي) . و السلسلة الثانية تتصل بكل افعاله و مظاهر خلقهللاشياء ، فهو فعال لما يشاء ، خالق ، رازق ، رحمان ، رحيم ، منعم و..و.. و تشير الى هذه السلسلة كلمة (القيوم) والتي تدل على ان الله قائــم بذاته فلا يحتاج الى شيء ، و تقوم به الاشياء فلا يستغني عنه شيء . وهنا يذكرنا القرآن بالله عبر صفتين (الحي - القيوم (، و يبين بعضا من مظاهر هاتين الصفتين فيقول:

]الحي القيوم[

فمن مظاهر صفة الحي تعاليه عن النعاس (السنة و النوم. (

]لا تأخذه سنة ولا نوم[

ومن مظاهر الحي ، ان ربنا واسع القدرة فهو مالك كل شيء ، نافذ في كل شيء امره و مشيئته ، لان.

]له ما في السموات وما في الارض[

ولذلك فهو غني عن كل احد.

]من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه[

فلا يستطيع احد ان يحتم عليه امرا بل انما يمكنه ان يدعوه ، فيستجيب له ان شاء اولا يستجيب.

ان ملوك الارض يعتمدون ، في سيطرتهم على الناس ، على مجموعة من ذوي النفوذ ، و هؤلاء يشفعون فيمن يخصهم . ولكن الله ، تعالى سلطانه عن اي تدخل من اي احد ، حتى الانبياء و المرسلون و الملائكة المقربون ، ليسوا سوى عباد مكرمين.

ومن مظاهر اسم الحي ، علم الله بكل شيء و تعاليه عن العقول ان تسمو الى جنابه.

]يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم[

يعلمهم و يعلم ما سبق وما يأتي من حياتهم ، وعلم الله واسع يشمل كافة جوانب البشر.

]ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء[

وبينه هو لهم.

هذا هو الحي ، مطلق الحياة ، ابدي الحياة ، واسع العلم و المقدرة سبحانه . انه ربنا الجدير بنا ان نتخذه وليا ، وليس هؤلاء العباد المربوبين الاموات ، الذين يستبد بهم النوم و الجهل ، ولا يملكون شيئا.

و صفة " القيوم "نابعة من صفة الحياة ، ان الله الحي بذاته الذي يملك ما في السماوات و الارض و يحيط علمه بما فيهما ، هو القيوم عليهما.

]وسع كرسيه (١) السماوات و الارض[

عرشه و سلطانه و امتداد نفوذ مشيئته ، واسع للسماوات و الارض . فكل شيء تحيط به قدرته ، و يدبر اموره و يصرف شؤونه ليل نهار ، دون ان تتعبه ادارة ملكوت السماوات و الارض ، او ان تحجبه المجرات الكبيرة بما فيها من شموس و اقمار ، عن ادارة ما في الذرة المتناهية في الصغر بما فيها من نواة و توابع.

]ولا يؤده حفظهما[

لانه تعالى عن التعب و الاعياء ، وانه يقول للشيء كن فيكون.

]وهو العلي العظيم[

علي لانه حي تعالى عن اي صفة عجز . و عظيم لانه قيوم على كل شيء.

[256]هذا هو ربنا وهذا علاه و عظمته و هذه قدرته و سلطانه ، افتتخذ بعد ذلك(١) جاء في حديث مأثور عن الامام علي (ع) : " ان السماء و الارض و ما بينهما من خلق مخلوق في جوف الكرسي ، وله اربعة املاك يحملونه بأمر الله) . " الميزان / الجزء ٢ - / ص ٣٤١)الها من دونه ، او قائدا لا يرضى ربنا به .ان القلب الذي عمر بالايمان بالله ، كيف يعظم احدا سواه ، ام كيف يعبد اله من دون الله ، وكيف لا يثور ضد هؤلاء الاقزام الذين يطغون في الارض بغير الحق و يأمرون الناس بطاعتهم.

]لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي[

ولا يحتاج الى بيان آخر ، ان الله هو لا اله الا هو وعلى الناس ان يطيعوه و يتخذوه وليا من دون الشركاء و الطواغيت.

]فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها و الله سميع عليم]لانه استعاد حريته وانسانيته ، و استطاع ان يستثمر طاقاته في السبيل الاقوم . و اية قوة هي اقوى من الانسان حين يكفر بالطاغوت ، و يتمرد على كل سلطة تستعبده و تستغله ، ثم يؤمن بالله و يعمر قلبه بالثقة و الامل والتواضع للحق و التسليم له ؟!

ان القوة الحقيقية في هذا الكون هي قوة الحرية (الكفر بالطاغوت) و قوة الحق (الايمان بالله) . و الله يؤيد بنصره من يشاء ، وهو سميع لما يقولون من كلمة كفر او ايمان ، و عليم بما يضمرون من نية صالحة او خبيثة.

[257]ان في الحياة سلطة حقيقية واحدة - متمثلة في سلطان الله - و قدره و قضائه ، و بالتالي سننه الحتمية ، و انظمته التي لا تتحول ولا تتبدل . ومن خضع لهذه السلطة ، و اتصل بها ، و استمد منها القوة و الشرعية ، استطاع ان يسخر الحياة ، و يصبح خليفة عليهامن قبل تلك السلطة . ومن كفر بها و تمرد عليها ، وفتش عن سلطات وهمية و استسلم لها ، ظل عبدا وتاه في ظلمات لا يبصر.

]الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور]لانــه وليــهم و سيدهم ، وهم اتصلوا بسلطانه ، و استمدوا منه القوة و الشرعية و النور . و الهدى الذي لا يحصل عليه الانسان مادام مستعبدا للطواغيت.

]والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون]اذا فالانسان الذي لا يخضع لله ، لا يتمرد على الطاغوت ، لانه اساسا يكفر بالله استجابة لضغط الطاغوت المتمثل في المجتمع الفاسد ، و النظام الفاسد و الاقتصاد الفاسد و..و.. ومن يستعبده الطاغوت ، فاول ما يسلبه منه ، قدرته على التفكير و استقلاله فيه ، فلايرى الا ما يراه الطاغوت . ولا يعمل الا بما يملي عليه . من هنا يفقد عقله الذي وهبه الله

للانسان.

ان الشرط الاول للفكر السليم ، هو التحرر من الاستعباد والتبعية . لان العقل لا يتحرك الا بوجود الثقة و الحاجة . و الرجل الذيلي انى له الثقة بذاته او الشعور بالحاجة الى التفكر ، مادام لا يحتاج الى التفكر ، ولن يطبق نتائج الفكرة لو قدر له عرضا ان فكر في شيء.

و التفكير السليم ، هو الشرط الاول للقوة في الحياة . من هنا ركز القرآن الحكيم على ان الايمان بالله يعطي صاحبه التحرر ، و التحرر يعطيه القوة) التمسك بالعروة الوثقى) و العلم (يخرجه من الظلمات الى النور. (

ولكن اي ايمان هذا الذي يعطينا القوة و العلم .. انه الايمان الواعي ، لا الايمان المكره عليه فهو الاخر نوع من الاستعباد و الخضوع للطاغوت . ارأيت لو آمن شعب بالله لان السلطة السياسية فيه اجبرته عليه ، هل هذه حرية ام استعباد ..؟ بالطبع استعباد ، لان هذا الشعب سوف يكفر بالله لو ان السلطة السياسية امرته بالكفر . من هنا تحدث القرآن في بداية الحديث عن الحرية الدينية وقال : لا اكراه في الدين.

[258]مـن الذي يمثـل السلطة الشرعية الحقيقية في الحياة ، الله ام الطواغيت ؟

انه الذي يمنح الحياة لمن يشاء و يقدر له الموت حينما يشاء ، الذي يجعل الحياة تستمر بتزويدها بمقوماتها من نعم لا تحصى ، الذي يدبر الشمس التي تطلع كل نهار لتملأ الدنيا دفئا و نورا و حياة من هو غير الله سبحانه .. ولكن الظالمين لا يفقهون.

]الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك]فبدل ان يشكر ربه على الملك الذي اتاه ، انقلب على ربه و طغى في الارض.

]اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي و يميت[

وليس ربي مثلك انت الطاغوت العاجز.

]قال انا احيي و اميت[

امر بأثنين حكم عليهما بالاعدام ، ثم عفى عن واحد و قتل الثاني ، ولكن هل كان بامكانه ان يعيد المقتول الى الحياة ؟ كلا ؟ بيد ان ابراهيم لم يشأ ان يجادله بل انه هز فطرته بصورة عنيفة تجعله امام الواقع بلا لبس ولا تشويه.

]قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر]ولكن لماذا لم يؤمن ؟ لانه كان ظالما ، و الظالم يحجبه ظلمه عن الحق .انه لا يفكر الا بمصالحه و اهوائه و شهواته.

]و الله لا يهدي القوم الظالمين[

الرؤساء و الملوك الذين يحاربون الدعوات الاصلاحية ، و الاغنياء و المترفون الذين يناهضــون الثورات ، و الاحبار و الرهبان و العلماء الذين يعادون الافكار التقدمية ، انما هم ظالمون و يخشون العدالة و الاصلاح . وكل ظالم اختار عمليا سبيل الاعتداء على حقوقالناس ، فهو سيقف في صف الباطل - فكريا - كما وقف في صفه - عمليا - و يكفر بالحق عاجلا ام اجلا.

[259]اما الذين التزموا بالحق عمليا ولم يعتدوا على حقوق الناس ، فسوف يهديهم الله ، لان فطرتهم سليمة ولا تحجبهم عن رؤية الحقائق سوى الغفلة التي يكشفها الله عنهم ، فاذا بهم يبصرون الحقائق مثلهم مثل عزير و ابراهيم ، حيث هداهم الله الى نفسه حين عرفهمانه هو واهب الموت و الحياة جميعا ، وانه قادر على ان يحيي الموتى.

ان سياق الآيات لا يزال يحدثنا عن تدبير الله سبحانه مباشرة للحياة ، و يلهمنا افكارا -عملية - مستوحاة من هذه الحقيقة ولقد رأينا آية الكرسي كيف انتهت بنا الى ضرورة رفض حكم الطواغيت ، اما هنا فينتهي بنا السياق الى ضرورة الايمان . بالبعث انطلاقا من الايمان بقدرة الله الواسعة . لنعد الى الآية و لنستمع الى قصة عزير الذي هداه الله الى نفسه.

]او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال انى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته اللــه مـائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام]كان مع عزير حماره و طعامه ، الحمار كان قد اصبح رميما ، اما طعامه فلم يزل طريا كذلك اراد الله ان يبين لعبده قدرته و تدبيره المباشر لشؤون الحياة فقال له:

]فانظر الى طعامك و شرابك لم يتسنه[

اي لم يتعفن .. بالرغم من مرور مئة عام . عليه اما الحمار فقد انتهى الى رميم ولكن سيبعثه الله من جديد.

]وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس[

حيث ان الله احياك ، من بعد موت دام مئة عام ، واحيا امامك حمارك لتنظر اليه ، وتنقل الى الناس كيف ، و بأية صورة يحيي الله الموتى . كذلك اخر الله احياء الحمار حتى تتم العملية امام عينه.

]و انظر الى العظام كيف ننشزها[

نركبها بعضها على بعض و نرفعها الى بعضها - بدقة. -

]ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير]وهذه هي الحقيقة التي لابد ان نفهمها جيدا . هي ان قدرة الله ليست محدودة كما هي قدراتنا.

[260]و قصة عزير تشبه قصة ابراهيم ، العبد الصالح ، الذي هداه الله الى نفسه ، وقال عنه:

]واذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي]ذلك ان الايمان درجات اعلاها : درجة اليقين و الاطمئنان ، الذي يطرد تماما شيطان الشك من النفس ، و لا يعود الانسان يرتاب ابدا . و هذا النوع سمي في آية اخرى بـ (عين اليقين. (

]قال فخذ اربعة من الطير فصرهن (١) اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزء ثم ادعهن]باسمائهن الواحد بعد الاخر .. الغراب ، الحمام ، العصفور ، وهكذا..

]يأتينك سعيا و اعلم ان الله عزيز حكيم[

فهو قادر و يفعل بقدرته في الحياة ما يشاء فهو عزيز الجانب لا يغلبه احد ولا شيء وهو حكيم لا يتصرف عبثا ومن دون هدف..

(1)صرهن : بضم الصاد باحدى القراءتين من صار يصور اذا قطع او امال ، و بكسر الصاد على القراءة الاخرى . من صار يصير باحدى المعنيين و قرائن الكلام تدل على ارادة معنى القطع ، و تقديمه بالى تدل على تضمين معنى الامالة ، فالمعنى : اقطعهن مميلا اليك او املهن اليك قاطعا اياهن . (المصدر ص ٣٧٤(

الانفاق في سبيل الله

هدى من الآيات

الانفاق في سبيل الله نتيجة مباشرة للايمان بالله و علامة على عمق اليقين بان الله هو القادر على الكون وانه و اهب الحياة و الغنى و الملك و الهدى.

و شخصية المسلم تتميز بانها معطاءة ، و عطاؤها ليس من اجل شهرة او رياء ، بل في سبيل الله . و وفق المنهاج الذي رسم له الله.

و القرآن تحدث عن الانفاق في اكثر السور ، الا ان حديثه هنا يتميز بالجوانب النفسية للانفاق ، والتي تعالجها سورة البقرة اكثر من غيرها ، فالانفاق هنا جاء كمظهر من مظاهر الايمان بالله و اليوم الاخر.

ففي الآية الاولى نجد التوجيه الى ضرورة ان يكون الانفاق في سبيل الله وفي الثانية و الثالثة و الرابعة الا يكون وراءه من ولا اذا . اما الخامسة فهي تضرب مثلا على الانفاق في سبيل الله

كيف انه يثبت الايمان ، اما الآية السادسة فهي تأمر بان يكون الانفاق منالمال الطيب وليس الخبيث وهكذا..

بينات من الآيات

[261]الله هو واهب الحياة و واهب نعمها ، والآن يطلب منا ان نقدم له بعضا مما اعطانا ، حتى يعوضنا عنه اضعافا مضاعفة ، ان ما نقدم لله لن يضيع ، بل مثله كالحبة التي ندفنها تحت الارض ، فهي لا تنتهي ، بل الاخرى التي نأكلها هي التي تنتهي ، اما هذه التي سترناها تحت الارض ، فهي تنمو و تنمو حتى تصبح مئات الحبات ، هذا صنع الله ، انه يأخذ منك قدرا بسيطا من المال تنفقه في سبيله فيضاعفه لك.

]مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة و الله يضاعف لمن يشاء و الله واسع عليم][٢٦٢] قد يكون الانفاق في سبيل الله في ظروف صعبة ، كان يكون صاحبه قليل المال ، ولكنه ينفق على من هو افقر منه ، او يؤثر الاخرين على نفسه وبها حاجة ، او يتحدى بالانفاق سلطات الطاغوت ، او يداوي جرح مظلوم . و انئذ يكون الجزاء بقدر المشقة ، و بحسب الظروف الموضوعية والنفسية التي تكتنف الانفاق ، و الله يعلم بهذه الظروف تماما ، و قادر على ان يضاعف العطاء بسببها.

اذا الانفاق في سبيل الله نوع من الاستثمار في الحياة الدنيا و الاخرة ، ولكن هذا الاستثمار مهدد بالخسارة ، لو لم يحافظ عليه صاحبه ، و يقاوم شهوة الشهرة و السلطة ، والا يتبع انفاقه بالمن والاذى.

]الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا ، منا ولا اذى]فلا يشبع شهوة الشهرة ، او السلطة ، في نفسه عن طريق الانفاق ، فيتعالى على الفقير او يتجبر عليه بغير حق ، ويكون لنفسه طبقة ضد طبقة الفقراء.

]لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون][٢٦٣] ثم يؤكد القرآن هذا الشرط الصعب في الانفاق ، والذي يحتاج تحقيقه الى ترويض شديد للنفس الامارة بالسوء ، و ردع دائم للشهوات الشيطانية فيها . يؤكده ويقول:

]قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها اذى[

فلو لم يدفع الغني ماله للفقراء ، ولكنه يجالسهم ويحسب نفسه واحدا منهم و يعتبرهم اخوانه ، ولم يتسلط عليهم ، بل اذا صدرت منهم خطيئة صبر عليها ، و غفرها لهم . هذا افضل عند الله من ان يدفع ماله بدافع السيطرة عليهم ، و تذليل كرامتهم ، و تكوين حالة طبقيةفي الامة.

هكذا يرفض الاسلام اي نوع من الانفاق المشروط من قبل الاغنياء يكرس كبرياءهم المزيفة ، و تسلطهم اللامشروع.

]و الله غني[

فلا يحتاج الى انفاق المرائين ولا غيرهم وانما المحتاج هو الانسان نفسه وهو سبحانه.

]حليم[

لا يأخذ الناس بالعذاب بل يترك المجال مفتوحا لهم ليتوبوا حينما يغلبهم الشيطان.

[264]و يتابع القرآن الحديث عن ذات الفكرة بكلمة توجيهية للمؤمنين يحذر فيها من ان صدقاتهم سوف تتبخر ، بل و تحترق ، بمجرد استخدامها في سبيل السيطرة على الفقراء و المحرومين ، ولا تعود الصدقات سببا لنمو المال ، ولا لرحمة الله في الآخرة.

و يضرب لنا مثلا موضحا ويقول : أرأيت كيف يبطل الانسان عمل الخير ؟ انه اشبه شيء بارض جبلية صماء ، جمع الفلاح حفنة من التراب عليها ليزرع فيها ، ولكن سيول المطر ذهبت بتلك الحفنة من التراب ، فعادت الارض كطبيعتها الاولى ، لا تصلح للزرع هكذا .. الذي ينفقماله ، ثم يستخدم انفاقه للسيطرة كالصحراء لا تصلح لنبات الخير.

]يا ايها الذين امنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس]حتى يراه الناس فيرضون عنه ، و يقدرون جهوده ، وبالتالي يتعالى عليهم.

]ولا يؤمن بالله[

حتى يكون عطاؤه في سبيله فهو لا يعمل لوجهه.

]و اليوم الآخر[

و مادام ايمانه باليوم الآخر ضعيفا فهو يبحث عن الشهرة و السمعة ، النتائج العاجلة ، فسعيه يكون للدنيا وحدها .. دون ان تدخل فيه حسابات الآخرة..

]فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا]الصفوان : الحجر الاملس المستوية ، و الوابل : المطر الشديد الوقع ، والصلد:

الصخرة الملساء التي لا تنبت شيئا.

]لا يقدرون على شيء مما كسبوا[

لانهم ابطلوا استثمارهم ، ولم يبق لديهم شيء في بورصة الآخرة.

]و الله لا يهدي القوم الكافرين[

بل تتحــول قلوبهــم كتلك الصخــرة الصمــاء ، لا تــزرع فيــها الهداية ، لانها - اساسا - لا تطلب الهداية ، بل تعشق السلطة و السيطرة والتكبر على الناس.

[265]و هناك مثل آخر ، يعاكس هذا المثل تماما ، انه مثل المؤمنين المخلصين لله في انفاقهم : انهم سوف يحصلون على ثلاث فوائد ، الاولى : اكتساب مرضاة الله ، و الثانية : تزكية انفسهم وتربيتها على التقوى و العطاء ، والثالثة : جني ثمار العطاء في شكل ثوابعظيم في الدنيا وفي الآخرة.

]ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله و تثبيتا من انفسهم]لان الايمان ، كأية موهبة اخرى ، تزداد كلما استفاد الانسان منها ، كالارادة تقوى كلما تحدت الصعاب ، و المعرفة تزداد كلما انتفع بها صاحبها في العمل ، و الحب ينمو كلما اهتم به صاحبه ، وهكذا الايمان يثبته العمل الصالح وينميه.

]كمثل جنة بربوة[

فهـي جنــة اساسا .. لا مجرد صخور ، كذلك قلب المؤمن ، ارض قابلة للزراعة..

]اصابها وابل[

عن طريق العمل الصالح المركز .. كالانفاق في الظروف الحرجة ، حيث انه سوف يضاعف من قوة الايمان ، و ثباته في النفس.

]فأتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل[

اذ ان طبيعة الجنة ، انها تستدر الرطوبة و تكثفها في الفضاء ، فلابد ان يصيبها طل ، مطر خفيف ، او رطوبة مفيدة ، كذلك القلب المؤمن حتى ولو لم يواجه بنجاح تحديات خطيرة (كالانفاق في المجاعة) فانه سوف يمارس الاعمال الصالحة اليومية ، مما يحافظ على ايمانه.

]و الله بما تعملون بصير[

فلا تفكروا في الناس ولا تراؤوهم ، كفى بالله رقيبا على اعمالكم ، و كفى به مثيبا.

[266]و يضرب الله : مثلا رائعا لما يصيب الانسان من خيبة امل بسبب احباط اعماله ، يوم يحتاج الى الجزاء ، فيكتشف ان لذة الشهرة . او السيطرة التي ارادها من عمله فاتبعه بالمن و الاذى ، قد ذهبت بخيراته ، و اصبحت هباء منثورا ، يقول ربنا:

]ايود احدكم ان تكون له جنة من نخيل و اعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات و اصابه الكبر وله ذرية ضعفاء]كم يحتاج هذا المسكين الى هذه الجنة ، التي هي خلاصة جهوده في الحياة الدنيا ..؟ ولكن كيف به اذا احاط الخطر بجنته.

]فأصابها اعصار فيه نار فأحترقت[

هل يمكن تصور خيبة امل هذا الشيخ المحروم من جهده ، كذلك هي حالة ذلك الذي انفق امواله رجاء الثواب ، ثم بعث بنار المن و الاذى ، فالتهمت ثواب انفاقه ، و يوم احتاج الى ذلك الثواب لم يجده ، و وجد الله هناك اعد له نارا لاهبة ، جزاء ريائه و كبريائه السخيفة.

]كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون[

[267]اذا الشرط الاول للانفاق الصالح : ان يكون في سبيل الله ، و الشرط الثاني الا يتبع بالمن و الاذى ، فلا يستثمر من اجل تكريس الطبقية في المجتمع ، و الشرط الثالث يبينه القرآن في هذه الآية و يقول:

]يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون]فعليكم باختيار افضل ما عندكم ، سواء حصلتم عليه بالجهد ، كما المال و البناء ، وما صنعتم بايديكم ، او لم تصرفوا فيه جهدا ، كما الزرع و الضرع .. المهم ان تختاروا افضل اموالكم لتقدموه لله ، ولا تتوجهوا نحو الخبيث ، حتى تختاروه للانفاق ، و فكروا لو عكست الآية وكنتم انتم الفقراء و غيركم ينفق عليكم هل كنتم تقبلون بهذا الخبيث ؟

]و لستم باخذيه الا ان تغمضوا[

و تتساهلوا.

]فيه[

]و اعلموا ان الله غني حميد[

و ليس بحاجة الى انفاقكم ، فهو غني وهو حميد في غناه . يتفضل عليكم من بحر غناه فيحمده الجميع وانتم - عباد الله المؤمنين به - تخلقوا باخلاق ربكم ، و اعطوا من غناكم شيئا يحمدكم الناس عليه.

[268]ولا تستجيبوا لصراخ الشيطان الذي يناديكم من داخل انفسكم : لا تنفقوا لانكم سوف تصبحون فقراء لو انفقتم ، كلا .. ان الانفاق يدور الثروة بين الناس ، ويسبب انتعاش الاقتصاد ، وبالتالي استفادة الجميع ، وحين يدعوكم الى العطاء ، فانه يدعوكم الى افضل منه ، ومن جهة اخرى ، الشيطان يخوفكم من الفقر ، فتمسكون ايديكم فيكرهكم الناس ، و تنتشر البغضاء ، و

تتولد منها الفحشاء ، او ليس الافضل هو الانفاق ، حتى ينتشر بدل الحقد : المحبة والوئام.

]الشيطان يعدكم الفقر[

لانه يخوفكم منه اجل ، ولكن لماذا يريد الانسان المال ؟ أليس حتى يتصرف فيه بحرية ؟ اما اذا جاءه الفقير ، فانه سوف لا يتصرف في المال ، واذا فما الفرق بينه وبين الفقير الذي لا يملك شيئا ، كلاهما لا يملك قدرة التصرف في المال.

ومن يخشى الفقر يهضم الحقوق و يظلم الناس و يشيع الفحشاء في المجتمع وهذا من عمل الشيطان.

]و يأمركم بالفحشاء و الله يعدكم مغفرة منه[

متمثلة في السلام داخل قنوات المجتمع . بالاضافة الى تزكية النفس من رواسب الذنوب ، و النجاة من النار في الاخرة.

]و فضلا[

متمثلا في مردود العطاء في سبيل الله حيث ينزل بالطبع على المنفق بالخير الكثير.

]و الله واسع[

العطاء .. اذا انفق في سبيله.

]عليم[

بمن ينفق فيجازيه خيرا من لدنه.

[269]هذه حكمة و علم للحياة ، و معرفة بالقوانين الثابتة التي تحكمها ، ان العطاء يزيد من المال و البخل ينقصه .. ولكن ليس كل الناس يملكون الحكمة التي هي خير كثير ، لان التعرف على الحياة طريق للسيطرة عليها.

]يــؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب]الذين اوتوا العقل ، و يستفيدون من عقولهم بالتنبيه و التذكرة ، لان العقل يكتشف الاشياء و يحيط بها علما ، بشرط ان يتوجه اليها ، و مهمة التذكرة التوجيه الى العقل.

[270]تأثير العطاء في الرخاء الاقتصادي ، تأثير فطري ترعاه سنة الله في الحياة ، سواء عرف الناس بالعطاء ام لا ، لان علم الناس اوجهلهم ، بالعطاء ليس له اثر في مدى تأثير العطاء في

نمو الاقتصاد ، و يكفي : ان الله يعلم بذلك ، وهو الذي يزيد الثروة بالانفاق لا الناس.

]وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فان الله يعلمه]فيجزي به خيرا ، سواء كان انفاقكم بسابق نذر اولا ، اما الذين لا ينفقون اموالهم ولا يفون بنذورهم ، فحتى لو اعتقد الناس انهم فعلوا ذلك ، فلن ينفعهم ادعاؤهم بالانفاق ، او ادعاؤهم به في نمو اموالهم ، او في منع الكوارث عنهم.

]وما للظالمين من انصار[

يمكنهم من نصرة الظالم ، الذي لا يدفع حقوق الناس او حقوق الله.

[271]مهدت الآية السابقة للحديث عن كتمان الانفاق ، و جاءت هذه الاية تشرحه بوضوح اكثر .. مادام الانفاق في سبيل الله وليس بهدف الاستعلاء على الناس ، فهو عمل صالح ولا يضره علم الناس به ، ولكن كتمانه افضل ، لانه ابعد عن هواجس النفس و وساوس الشيطان.
.

]ان تبدوا الصدقات فنعما هي[

خصوصا اذا كان ذلك يشجع الآخرين على العطاء.

]وان تخفوها و تؤتوها الفقراء فهو خير لكم و يكفر عنكم من سيئاتكم و الله بما تعملون خبير]فلستم بحاجة ابدا الى علم الناس .. بل الله يعلم ، وهو يزيدكم بالانفاق خيرا ، و يدفع عنكم الضر ، و يكفر بعض السيئات..

[272]و الانفاق انما هو في سبيل الله ، و ليست القيادة الاسلامية الا قناة للمال المنفق توصله الى مستحقيه ، و ليست مسؤولة عن انفاق الاغنياء اكثر من ذلك..

]ليس عليك هداهم و لكن الله يهدي من يشاء[

انما المسؤول الاول عن اعمال الشخص هو ذاته ، لان فوائده و اضراره تصيبه مباشرة.

]وما تنفقوا من خير فلانفسكم[

ولا يحسب انفاق عند الله ، الا ذلك الانفاق الخالص لوجه الله.

]و ما تنفقون الا ابتغاء وجه الله[

و الانفاق لا يختص بالمال ، بل يمكن ان يشمل اي شيء يملكه المرء كالجاه حين يبذله في

خير الضعفاء ، و العلم يدل به الجهال الى الخير ، وكل شيء ينفق فهو محبوب عند الله في كتاب ، مجزي به غدا.

]و ما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون[

[273]الــى هــنا عرفـنا شروط الانفاق الصالح ، يبقى ان نعرف : اين ننفق الاموال و لمن ؟

يجيب السياق على هذا السؤال.

]للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض]بسبب منع العدو لهم ، كالذين اخرجوا من ديارهم ، لانهم لم يستسلموا للطاغوت .. او بسبب الضعف و المرض كالمحاربين القدامى الذين اكلت المعارك شبابهم ، ثم اصبحوا ضعفاء ، لا يستطيعون امتهان عمل ، ولا يمكنهم العودة الى عملهم السابق.

]يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف[

لانهم لا يسألون احدا شيئا لكرامتهم و عفة نفوسهم..

]تعرفهــم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم][٢٧٤] و كلمة اخيرة في الانفاق في سبيل الله على الانسان الا يضع حدا لانفــاقه بل عليــه ان ينفــق ، انى وجد ثغرة في المجتمع يحاول سدها بانفاقه ، ويكون من . [الذين ينفقون اموالهم بالليل و النهار سرا و علانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون[

الربا و الفساد الاقتصادي

هدى من الآيات

من الناس من ينفق في سبيل الله على الضعفاء ، و منهم من يعكس تماما فيستغل الضعفاء ، و يبني كيانه الاقتصادي على انقاض ثرواتهم المحدودة ، هؤلاء هم المرابون الذين يتحدث عنهم القرآن هنا ، لانهم الوجه المتناقض مع المنفقين الذين تحدث عنهم الدرس السابق.

و الآية الاولى تحدثت عن النتائج المرة للخلط بين البيع و الربا ، و بينت الاية الثانية الفرق بين المنفق في سبيل الله و المرابي ، فالاول يضاعف له الله و الثاني يمحقه.

و بعد ان وجه القرآن الانظار الى الصلاة والزكاة باعتبارهما وسيلتي خلاص للمؤمن من ضغط الشهوات ومنها شهوة الاثراء السريع بالربا ، بعدئذ وجه نداءا آخرا للمؤمنين بترك الربا والاكتفاء فقط برأس المال ، ولم يكتف القرآن بذلك . بل امر في الآية التالية بأن يعطي مهلة كافية لمن لا يستطيع تسديد ديونه ، اما الآية الاخيرة فقد ذكرتنا بالتقوى ، تلك الصفة النفسية التي يكون تجنب الربا واحدا من مظاهرها.

بينات من الآيات

آثار الربا

[275]التجارة تزيد العقل ، لانها تحمل بين طياتها مخاطر الخسارة ، فيفكر صاحب التجارة بكل اسلوب ينجح تجارته و يجنبها الخسارة ، و بالتفكر المستمر ينمو العقل اما لو اطمأن الانسان الى مصدر ثابت من الربح يأتيه بلا تعب فلماذا يفكر ؟!

انه يعطل عقله لانه لا يحتاج اليه شيئا فشيئا يضمر العقل حتى ينتهي ، و الربا هو ذلك المصدر الثابت الذي ينتظره كل الكسالى حيث يأملون ان تكون لديهم ثروة معينة يقرضونها للفقراء مقابل جزء من جهدهم ، سواء خسر اولئك الكادحون ام ربحوا ، و بذلك فان اخطر اضرار الربا هو تشجيعه على تكوين طبقة من المترفين و المعتوهين في المجتمع.

]الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس [لا يجهـدون انفســهم انما يقومون و يتحركون لمجرد اللهو حيث يخالطهم خبل من الشيطان.

ان هذا الخبل نتيجة طبيعية لاختيارهم السيء منذ البداية ، حيث انهم اختاروا الربا ، و خلطـوا بينــه وبين البيع ، فخالطهم الخبل واصبحوا معتوهين طبيعيا ، لخلطهم.

الباطل بين البيع و الربا.

]ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا[

و زعموا انه كما يجوز التعامل بالبيع و الاكتساب به ، كذلك يجوز الاكتساب بالربا ، فالبيع عندهم هو الربا بالضبط ، ولكن بصورة اخرى : انت في البيع تعطي سلعة وتأخذ ثمنا ، وهنا تعطي قرضا و تأخذ ايجاره . كلا..

]و احل الله البيع وحرم الربا[

بالطبع ليس عبثا انما الهدف محدد هو : منافع البيع و اضرار الربا.

]فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف و امره الى الله]له ما سلف من رأس امواله ، وهو مرجو لامر الله ان يشأ يعذبه او يتوب عليه.

]ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون[

[276]و الربا يســبب تكويــن طبقة من المترهلين و العاطلين عن العمل المنتج ، فيؤخر اقتصاد المجتمع ، وهو في ذات الوقت يمتص جهود الفقراء ، ولا يشجعهم على العمل الجاد ، بينما الانفاق في سبيل الله ، و اعطاء الفقراء صدقات لرفع عوزهم ، و تهيئة رأِس مال لهم ، سوف

يسبب في تدوير الثروة ، و تحريك عجلة الاقتصاد و تشجيع العاطلين على العمــل من هنا تقــع الصدقات ، في مواجهة الربا تماما.

]يمحق الله الربا و يربي الصدقات[

و الصدقات دليل على ايمان المنفقين وشكرهم لنعمه الثروة ، بينما الربا دليل كفر المرابين الحقيقي ! بالله ، بالرغم من تظاهرهم بالايمان كما انه عمل اجرامي و اثيم.

]و الله لا يحب كل كفار اثيم[

و ربما جاءت كلمة الكفار بصيغة المبالغة للدلالة على ان المرابي يكفر مرتين ، مرة حين لا يدفع للفقراء الصدقة ، و مرة حين يمتص جهود الفقراء بالربا.

ما هو العلاج ؟

[277]كيف نتخلص من الربا ؟ ان القلب البشري يهوى الثروة ، ومن الصعب التخلص من هذا الهوى ؟

يقول القرآن الحكيم : ان طريقة الخلاص من شهوة الثروة هي الايمان بالله ، و العمل الصالح ، و الصلاة ، و الزكاة.

]ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون][٢٧٨] ان تنمية التقوى في النفس هي مسؤولية المسلم نفسه ، فعليه الا ينتظر شيئا يربيه ، او شخصا يعظه ، بل ليكن واعظ نفسه و مربيها ، و ليتخلص من السلبيات وفي طليعتها الربا.

]يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و ذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين [فاذا كانت بينكم وبين الناس ربا ، فارضوا منهم فقط برأسمالكم ، و اعفوهم عن الربا.

[279]اذا لو لم تتقوا الله ، فان الله يعلن عليكم حربا تتمثل في تخلف إقتصادكم ، واشاعة الخلاف بينكم ، و تسلط العدو عليكم ، و نزول الكوارث الطبيعية بكم . و غيرها.

]فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون [280][يمكنكم استعادة رؤوس اموالكم التي دفعتموها للمقترضين دون اخذ الربا منهم ، و لكن لا يجوز لكم الضغط عليهم.

]وان كان ذو عسرة[

الذي استدان منكم.

]فنظرة الى ميسرة[

فلابد من اعطاء مهلة حتى يقدر على الوفاء ، و الافضل من اعطاء المهلة هو التغاضي رأسا عن الدين ، و اعتباره صدقة.

]وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون[

[281]صحيح ان من الصعب عليكم ذلك ، ولكن يجب على الانسان ان يتجاوز الدنيا في سبيل الحصول على الآخرة ، فغدا لا تنقذ الانسان من عذاب الله ثروته او شهرته.

]و اتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[

العلاقة التكاملية بين التقوى و الانظمة الاجتماعية

هدى من الآيات

تكميلا للحديث عن الانفاق و الربا ، تحدث القرآن في الآيتين ما قبل الاخيرتين من سورة البقرة عن التقوى في الدين ، مما يحتاج اليه المجتمع ، و امر الايعتمد احد الطرفين على حسن سلوك الطرف الاخر ، بل يضبط عمله ، فيكتب دينه الى اجله و يستشهد عليه . و الكتابة تكون بيد أمين ، يملي عليه صاحب الدين فيكتب . وان لم يكن هناك كاتب ، فلابد ان يقبض صاحب الحق رهينة.

ان حكم الدين ، مثل بسيط و واضح للعلاقة التكاملية بين التقوى كرادع نفسي للمسلم عن الظلم ، وبين الانظمة الاجتماعية التي تمنع الظلم . فلا يمكن ان يكتفي المجتمع بواحد عن الآخر . اذ قد يكون الظلم ناشئا من عامل السهو و الغلط و النسيان ، وقد تكون التقوى ليست قوية الى درجة منع الظلم ، ولكنها اذا قرنت بالانظمة الاجتماعية تصبحان معا عامل ردع ضد الظالم.

لهذا نجد : ان الله يأمر بالتقوى لتكميل ثغرات الانظمة ، فالكاتب و الشهيد و صاحب الحق ومن يقترض منه ، يجب ان يتزود كل اولئك بالتقوى ، حتى يمكنهم التعامل من دون ظلم . . الكاتب يكتب بالعدل ، و الشهيد يقوم بالشهادة لله ، و صاحب الحق لايسأم من كتابة دينهصغيرا او كبيرا.

ومن عليه الحق)المقترض) لا يضار بالكاتب و الشهيد ، كل هذه ثغرات قانونية لا تسد الا بالتقوى . و تأتي آية الدين لتكمل حديث القرآن هنا عن التقوى و ربطها بالانظمة الاجتماعية.

بينات من الآيات

كتابة الدين

[282]من هنا يقرر القرآن ان من المفروض ان يكون الدين الى اجل مسمى ، وان يكتب

حتى تسهل المطالبة به ، و بالتالي لا يحجم احد عن اقراض اخيه بحجة الخوف من المماطلة فيه او انكاره.

]يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه]وهنا تلقى المسؤولية على المثقفين ، فعليهم ان يراعوا العدل في الكتابة فلا يزيدوا او ينقصوا ، وان يتحملوا مسؤوليتهم في الكتابة فلا يحجموا عنها بسبب او بآخر.

]و ليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب]و ليتذكر الكاتب ان ا لله هو الذي زوده بنعمة العلم ، فعليه ان يؤدي شكر هذه النعمة باستثمارها في خدمة المجتمع ، فلا يمتنع عن الكتابة و ليكتب.

]كما علمه الله فليكتب و ليملل الذي عليه الحق[

اي فليكتب الكاتب حسب ما يمليه عليه المقترض لا حسب ما يمليه الدائن ، لان المقترض هو الذي سوف يطالب بالمال في الاجل المحدد ، و يطالب عليه ان يعترف سلفا بما يمكن فرضه عليه.

]و ليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا[

وهنا ياتي دور التقوى حيث من الممكن ان يتلاعب المقترض في الاوراق ، فلا يعترف حين الكتابة بكل المال الذي استدانه ، او بالاجل المحدد له ، فعليه ان يتقي الله ولا يغير في الكتابة الرسمية ، منذ البدء ، تمهيدا لاكل اموال الناس بالاثم.

]فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا[

كأن يكون مريضا او صغيرا.

]اولا يستطيع ان يمل هو[

بأي سبب من الاسباب كأن يكون مسافرا ، او شخصا كبيرا لا يمكن حضوره عند الكاتب او ما اشبه ، فآنئذ يقوم و كيله و وليه بالاملاء على الكاتب ، و يعتبر اقراره و تعهده كافيين لمطالبة موكله او وليه بالحق.

]فليملل وليه بالعدل و استشهدوا شهيدين من رجالكم]على الورقة الرسمية.

]فان لم يكونا رجلين فرجل و امراتان ممن ترضون من الشهداء]من الذين تقبل شهادتهم لمزيد الثقة فيهم ، ولكن لماذا تخلفت المرأة عن الرجل في الشهادة ؟

السبب ان المرأة قد لاتضبط الشهادة بسبب انصرافها عنها ، و انشغالها عادة بأمور اخرى ، فكان من المفروض ان يزداد العدد لمواجهة النقص في النوعية.

]ان تضل احداهما فتذكر احداهما الآخرى[

واذا طلب من الشهداء الحضور فعليهم الحضور لانه من دون حضورهم قد يضيع الحق.

]ولا ياب الشهداء اذا ما دعوا[

ويجب ان يكتب دينه انى كان قليلا او كثيرا.

]ولا تسئموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله[

لانه من دون الكتابة يتعرضون للنزاع ، و النزاع قليله كثير ، و قد يمنع النزاع الصغير من تدوير الثروة في المستقبل.

]ذلكم اقسط عند الله و اقوم للشهادة و ادنى الا ترتابوا]فالله يحب ذلك لانه يضع حدا لاكل المال الحرام ، وهو يسهل عملية الشهادة ، لان النص المكتوب دليل قوي على الحق ، وهو بالتالي يمنع انتشار الريب في المجتمع الاسلامي ، و اللاثقة التي تسبب بدورها في تحجيم المعاملات التجارية.

]الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها]فلا يكتب لتسهيل عملية التجارة من يد تاجر الى اخر ، مما يعرف بالطبع موقع تداول السلعة فلا يتعرض للنسيان ، كما ان الانكار فيها او السرقة غير وارد .بسبب طبيعة انكشافها لدى الناس.

]و اشهدوا اذا تبايعتم[

لان ذلك اقسط عند الله ، وابعد للخلاف في المستقبل . خصوصا في الصفقات الكبيرة كالعقارات .

]ولا يضار كاتب ولا شهيد[

اي لا يجوز الاضرار بهما بسبب شهادتهم بالحق.

]وان تفعلوا فانه فسوق بكم[

فالاضرار بالكاتب او الشهيد يجعلهما يميلون عن الحق و يجارون الاقوى ، و قد تكون انت الاقوى اليوم ، اما غدا فيكون خصمك هو الاقوى ، بينما تكون انت صاحب الحق ضعيفا . واذا انتشر في

المجدتمع الاضرار بالكاتب و الشهيد ، و بالتالي انتشـرت الكتابات الوجاهيةو شـهادة الـزور ، آنـئذ قد تصبح انت ضحية هذا الفسوق ، لذلك قال القرآن : (فسوق بكم) اي فساد يشملكم كلكم ، و هنا ثغرة قانونية تسدها التقوى ، اذ ينبغي ان يلتزم الجميع بعدم الاضرار بالكاتب و الشهيد التزاما نابعا من ايمانهم بالله ، حتى لا ينتشر الفسادو الفسوق . و اخيرا يذكرنا الله بعلاقة التقوى بالعلم ، و يبين انه اذا كانت التقوى نابعة من الايمان بالله ، فان العلم هو الاخر نعمة من نعم الله ، فعلينا الا نكتفي بواحد عن الآخر.

]و اتقوا الله و يعلمكم الله و الله بكل شيء عليم]هذه الاية اطول آية في القرآن ، و تناولت العلاقة بين الغيب و الشهادة ، بين الروح و الجسم ، بين الايمان و العلم ، و بالتالي بين النصائح الخلقية و الانظمة الاجتماعية ، وهي توصي بضرورة الوصول الى الحق عبر اي وسيلة مادية او معنوية مشروعة ممكنة ، و يدع الباب مفتوحا امام بعض الوسائل الحديثة التي تكشف صاحب الحق مثل التحقيقات الجنائية ، طبع الاصابع ، الكشف العلمي على الخط ، جهاز الكذب عن طريق تسارع نبضات القلب .. وما اشبه . ان كل وسيلة مادية توصلنا الى اليقين التام والعلم القاطع بالحقيقة يأمر الاسلام بها ، ويعتمد عليها جنبا الى جنب اعتماده على روح التقوى النابعة في النفوس.

[283]و تكميلا للحديث عن الدين يتحدث القرآن عن الرهن فيقول:

]وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة[

فان الرهن يساعد على استمرار العلاقة التجارية بين الناس ، فعملية الرهن ليست مفروضة لذاتها ، بل بهدف المحافظة على حق الدائن.

]فان آمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن امانته وليتق الله ربه]فمادام الشخص وضع ثقته فيك فلا تخنه في أمانته ، و اتق الله لانه سيطالبك بحق صاحب الامانة ، و يأخذه منك عاجلا او آجلا .

]ولا تكتموا الشهادة و من يكتمها فانه آثم قلبه و الله بما تعملون عليم]فاذا كان احد من الناس يعرف أمانة عند احد ، فليشهد لصاحب الامانة ولا يكتم الشهادة . فان ذلك سوف يسبب نقصا في ايمانه.

المسؤولية و مسقطات الاحكام

هدى من الآيات

في الدرس الاخير من هذه السورة ، يحدد الله بعض بنود المسؤولية و التي تزرعها التقوى في النفس ، فيبين..

اولا :ان الله يحاسب الانسان على كل عمل ، وعلى كل نية سواء اظهرها الانسان ام لا . فمادامت النية " الارادة " هي منشأ العمل ، فان الله يحاسب عليها.

ثانيا : اهم مسؤولية على الانسان وهي مسؤولية الايمان بالله و رسوله و الاعتقاد ابدا بالتقصير امام الله.

ثالثا :يبين حدود مسؤولية الانسان ، انها في اطار قدراته . فبقدر سعة قدرات الانسان تتسع مسؤولياته ، و كل انسان يتحمل مسؤولياته دون مسؤوليات الاخرين . وهنا استثناءات في المسؤولية منها : الخطأ و النسيان و الحرج و العجز (الضرر. (

هذه الاستثناءات خاصة ليست دائمية بل في ظروف معينة (كالجهاد في سبيل الله) لا يستثني عن المسؤولية شيء . ذلك لان النسيان ينشأ من اللامبالاة ، و الخطا ينشأ من عدم الجدية . اما الحرج والضرر ، فهما يرافقان ظروف الجهاد بصورة طبيعية.

و تنتهي سورة البقرة بالدعاء بالانتصار على الكافرين ، وهو التطلع العظيم الذي يبقى دافع الامة نحو التقدم و البناء ، و المحور الذي تلتف حوله فئات الأمة فتبتعد عن التشرذم.

بينات من الآيات

[284]اصلاح الامة يبدأ من اصلاح افرادها ، و يبدأ اصلاح الفرد بتزكية نفسه و تصحيح منطلقاته واهدافه.

ذلك لان كل شخص يعمل وفق ما تمليه اهدافه ، و ينظر الى احداث الحياة و يحدد مواقفه منها حسب منطلقاته . و القرآن الحكيم يحمل الانسان مسؤولية اصلاح منطلقاته و اهدافه حين يحمله مسؤولية افكاره . فلست حرا في ان تفكر ما شئت ، ذلك لان بعض تلك الافكار من ابنية الشيطان التي تكبر و تكبر حتى تصبح اعمالا خبيثة . فعلـيك ان تفرض على قلبك رقابة شديدة ، حتى لا تدخلها كل فكرة خبيثة وهاجسة انحرافية . وعليك ان تعرف ان علم الله و قدرته و سلطته تحيط بك و بالسماوات و الارض فأنتبه لكل اعمالك.

]لله ما في السموات وما في الارض[

و الانسان بعض ما في الارض.

]وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء]وهم الذين اذا مر بهم طائف من الشيطان تذكروا فاستغفروا الله ، هؤلاء يقبضون على الافكار المتسلله الدخيلة الى قلوبهم و يطردونها ، فيغفر الله لهم الله ، بعد ان يحاسبهم حسابا يسيرا.

]و يعذب من يشاء والله على كل شيء قدير[

قادر على الحساب الدقيق لما يجري في النفوس ، و قادر على الجزاء . وربما هذه الآية جاءت

لتبين مسؤولية الانسان تجاه افكاره تكميلا لبيان مسؤوليات البشر.

[285]فالانسان اذا مسؤول عن تصرفاته و مسؤول عن افكاره ، و عليه فهو مسؤول عن الايمان او الكفر في قلبه . ان الايمان عمل مسؤول لصاحبه ، ذلك لان كل بشر يولد بالفطرة التي يستطيع ان يعرف الله بها ، لولا انه يطمر فطرته في تراب الشهوات ، و يحتجب وراء سحبالاساطير و الخرافات ، فلا يؤمن بالله . الا الذين يستجيبون لفطرتهم و يستنيرون بنور العقل و يخرقون به حجب الغفلة و الاساطير ، انهم يصممون على ان يقاوموا ضغوط الهوى باتجاه الفكر ، وان يتبعوا هدى العقل في الايمان بالله.

من هنا فالمؤمنون هم الذين يتحملون مسؤوليتهم تجاه ما يجري في قلوبهم فيختارون الايمان.

]آمن الرسول بما انزل اليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته وكتبه و رسله لا نفرق بين احد من رسله]هذه هي عناصر الايمان الاساسية وهي قاعدة بناء الشخصية المسلمة التي يلخصها القرآن في نهاية هذه السورة التي تحدثت عنها بشكل مسهب . الايمان بما انزل الله من كتاب ، و الايمان بالرسل جميعا دون حساسية تجاه رسول ، اذ ان اية حساسية من هذا النوع تضر بالايمانذاته.

فاليهود مثلا ، الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد (ص) انطلاقا من حساسيتهم تجاه العرب ، كانوا كفارا حتى برسالة موسى ، لان رسالة موسى ، لم تكن عنصرية ، بل الهية وهم حولوها الى عنصرية.

و الايمان بالملائكة هو رمز الايمان بهيمنة الله و سلطانه في كل شيء، وانه الذي يدبر ما في الكون من فوق عرشه العظيم الذي وسع السماوات و الارض.

و هذا الايمان يدفع بصاحبه الى السماع و الطاعة . السماع لفهم كتب الله و رسالاته . و الطاعة لرسل الله و رجال دعوته.

]و قالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير[

و الايمان يدفعك الى الشعور بالمسؤولية و الخشية من الذنب و الاهتمام بالمغفرة ، كما ان الايمان بالله يدفعك الى الايمان بأن مصير العباد اليه ، وانه يجازي على الحسنات وانه قادر على ان يبعث الموتى.

اطار المسؤوليات

[286]ما هي حدود المسؤولية و بالتالي حدود التقوى التي تحدثت عنها الدروس السابقة ؟

اهم هذه الحدود:

- 1القدرة : ان القدرة شرط عقلي للتكليف ، ولذلك لا يكلف الله احدا على اعمال الاخرين لانه لا يقدر عليها فبقدر استطاعتك يكلفك الله ، ولن يكلف الله احدا الا بما يقدر . فلو استطاع شخص التأثير على الناس باتجاه الخير ، فسوف يكلف بهم بقدر استطاعته ، وفي حدودها ولا يكلف الطفل الذي لا يميز شيئا ، ولا المجنون ، ولا المريض بما يعجز عنه ، ولا المعدم.

ولا يحمل الله الانسان مسؤولية الهواجس التي تتزاحم في قلبه من دون ارادة منه)كالحسد الذي لا يطيعه صاحبه او كالتشكك في الخلق ، و التشاؤم الذي لا يتبعه صاحبه ، و نية السوء التي لا يحققها صاحبها وهكذا. (

و التكليــف يقدر ايضا بالعمل سلبا وايجابا .. فبقدر عملك الصالح تجازى بالخير ، و بقدر عملك السيء تعاقب بالسوء . ولا ينفعك عمل غيرك كما لا تضرك ذنوبه ، ابوك ، مجتمعك ، قادتك ، ائمتك ، كل يعمل لذاته ، وانت تعمل لنفسك و انما عملك يشفع لك.

]لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت]٢ - و الخطأ الذي يرتكبه الانسان من دون عمد معفي عنه ، بالرغم من ان المسؤولية قد تشمله بسبب ان الخطأ ينشأ من اللامبالاة .ومن هنا نجد ان الله وضع على بعض انواع الخطأ كفارة ليردع الناس عنها ، و ليزيدوا من اهتمامهم بانفسهم ولا يتورطوا فيها . مثل كفارةالخطأ في الحج و كفارة قتل الخطا.

- 3النسيان هو الاخر معفي عنه بالرغم من انه يقع في حدود قدرة الانسان ايضا . فبالاهتمام تستطيع الا تنسى شيئا.

من هنا جاء تعبير القرآن عن رفع مسؤولية الخطأ و النسيان بصورة دعاء . بينما كان التعبير عن رفع مسؤولية العجز - بشكل قاطع - قال الله:

]ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا[

- 4التكاليف التي تسبب ضررا لحياة الانسان و ابتعادا عن سنن الله ، كالرهبنة و الاعتزال عن الناس والامتناع عن الزواج او عن اكل الطيبات ، ان هذا النوع من التكاليف كانت في الامم لاسباب مرحلية ، ولكنها انتفت في الاسلام لان الاسلام ليس دينا مرحليا بل دينابدي ، للبشر .

- 5في الاسلام خففت التكاليف المجهدة و التي سميت بالحرج فاذا اصبح الصوم مرهقا لصاحبه و يستنفد كل جهده وكل طاقته ، يجوز له آنئذ ان لا يصوم . و كذا الحج و كل التكاليف . لذلك قال:

]ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به]هذه هي حدود المسؤولية ، وهي مشكلة الانسان انه قد يقع في الذنب حتى داخل هذه الحدود فيحتاج الى العفو . العفو عن الذنب و التغاضي عنه ، و عدم العقاب عليه ، اما الغفران فهو محو

الذنب من قائمة الشخص و تصفية آثاره . و الانسان بحاجة الى عفو الله و غفرانه، كما يحتاج الى توفيق الله له بان يصلح من نفسه ما افسده الذنب عليه.

ان كل ذنب يخلف في ذات الشخص و داخل مجتمعه آثارا ، وعلى الانسان الذي يتوب الى الله من ذنوبه ان يقوم بجهد مكثف بأصلاح ما افسدته الذنوب ، و هنا يحتاج الى رحمة الله.

]و اعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين]و هذا الدعاء الاخير هو تطلع الامة الى المستقبل ، هذا التطلع الذي يعتبر هدف الامة المقدس الذي يتمحور حوله كل ابنائها.

ان أية أمة بحاجة الى هدف يكون بمثابة حبل يشد بعضهم ببعض ، وقناة تصب فيها جهود الامة ، و مقياس لمدى تقدم الامة او تخلفها ، و دافع قوي لأبناء الامة بالتضحية و العطاء و النشاط و التعاون.

و الامة الاسلامية تتطلع الى يوم تنتصر فيه على الكافرين ، و تحقق مبادىء الاسلام في الارض ، وتحمل الخير لجميع الناس . انها تتطلع الى تطبيق رسالتها في الارض ، ولذلك فهي ليست امة عدوانية ، او عنصرية ، او استعمارية ، انها امة تبني ذاتها لتهيئها للعطاء.

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن ابن كعب عن رسول الله (ص) : " من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه و ملائكته حتى تجب الشمس "و عن بريدة عن رسول الله (ص) انه قال " : تعلموا سورة البقرة و سورة آل عمران ، فانهما الزهراوان ، و انهما تظلان صاحبهما يوم القيامة ، كأنهما غمامتان ، او غيابتان ، او فرقان من طير صواف "مجمع البيان / ص ٤٠٥

الاطار العام للسورة

رسالات الله بين الوحدة و العنصرية

هدى من الآيات

بعد ان يذكرنا الدرس الاول من سورة آل عمران بربنا الذي لا اله الا هو الحي القيوم ، يبصرنا بأن

الكتاب الذي نزله الله على قلب الرسول حق . وانه يصدق ما مضى من كتب . وان منزله هو الذي انزل من قبل التوراة و الانجيل ، مما يوحي بوحدة رسالات الله . اوليست جميعا هدى للناس . وانه لقرآن كريم يفرق بين الحق و الباطل ، و ينذر الكافرين به بعذاب شديد نازل من عند عزيز منتقم.

والذي انزل الفرقان حكيم خبير بمصالح عباده . لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء . وهو الذي يحيط علما بطبائع البشر . اوليس قد صورهم في الارحام كيف يشاء . سبحانه لا شريك له وهو العزيز الحكيم.

بينات من الآيات

حقائق القرآن بين حق التأويل وفتنة الباطل

هدى من الآيات

أرأيت كيف تتوحد حبات المسبحة ؟ انها تنخرط جميعا في خيط واحد او رأيت كيف تتــوحد اوراق الشجرة الكثيفة ؟ انها تلتف حول الفروع التي تتمسك - هي بدورها - حول الساق الغليظة الضاربة بجذورها في الارض.

كذلك ابناء آدم لا يمكن ان يتحدوا من دون حبل يعتصمون جميعا به ، او أصل راسخ يلتفون حوله . فما هو ذلك الحبل في رؤية الاسلام ؟

انه كتاب الله المتجسد في رسول الله ، او في من هو امتداد حقيقي لشخصية رسول الله (ص (.

ولان سورة " آل عمران " تتحدث لنا عن التوحيد و الوحدة . سواء على صعيد المؤمنين برسالات السماء جميعا او على صعيد المسلمين فقط ، فإن القسم الاول من هذه السورة تتحدث عن كتاب الله ثم عن رسله الى الناس.

ما هو كتاب الله ، لماذا لا يؤمن به الناس وما هو مصير الكافرين به ؟ حول هذه الاسئلة تبحث آيات هذا الدرس:

بينات من الآيات

الحياة بين آفاق المستقبل و شهوة الحاضر

هدى من الآيات

نتائج ضعف الروح الدينية

هدى من الآيات

بينات من الآيات

القيادة الصحيحة في المنظور القرآني

هدى من الآيات

يبدو ان سورة آل عمران تدخل مع هذه الآيات في رحاب موضوعها الرئيسي وهو ضرورة الالتفاف حول القيادة الصحيحة و نبذ القيادات الدخيلة و ضرورة ذلك في الوحدة . فتهيء النفوس - قبل ذلك - ببيان ان الملك لله ، وان القدرة المطلقة بيده.

ثم ينهي عن قبول قيادة كافرة الا عبر التقية ، ثم يأمر بالطاعة للقيادة الاسلامية و يربط بين طاعة القيادة الرسالية الصحيحة وبين الايمان بالله . بل بينها وبين حب الله.

ثم - حذر من طرف خفي - الذين لا يتبعون القيادة : بأنهم كفار يتعرضون لسخط الله تعالى.

بينات من الآيات

الجماهير تقدس الذوات و بصائر القرآن

هدى من الآيات

بينات من الآيات

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

الاطار العام للسورة

رسالات الله بين الوحدة و العنصرية

هدى من الآيات

بعد ان يذكرنا الدرس الاول من سورة آل عمران بربنا الذي لا اله الا هو الحي القيوم ، يبصرنا بأن الكتاب الذي نزله الله على قلب الرسول حق . وانه يصدق ما مضى من كتب . وان منزله هو الذي انزل من قبل التوراة و الانجيل ، مما يوحي بوحدة رسالات الله . اوليست جميعا هدى للناس . وانه لقرآن كريم يفرق بين الحق و الباطل ، و ينذر الكافرين به بعذاب شديد نازل من عند عزيز منتقم.

والذي انزل الفرقان حكيم خبير بمصالح عباده . لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء . وهو الذي يحيط علما بطبائع البشر . اوليس قد صورهم في الارحام كيف يشاء . سبحانه لا شريك له وهو العزيز الحكيم.

بينات من الآيات

حقائق القرآن بين حق التأويل وفتنة الباطل

هدى من الآيات

بينات من الآيات

الحياة بين آفاق المستقبل و شهوة الحاضر

هدى من الآيات

نتائج ضعف الروح الدينية

هدى من الآيات

القيادة الصحيحة في المنظور القرآني

هدى من الآيات

يبدو ان سورة آل عمران تدخل مع هذه الآيات في رحاب موضوعها الرئيسي وهو ضرورة الالتفاف حول القيادة الصحيحة و نبذ القيادات الدخيلة و ضرورة ذلك في الوحدة . فتهيء النفوس - قبل ذلك - ببيان ان الملك لله ، وان القدرة المطلقة بيده.

ثم ينهي عن قبول قيادة كافرة الا عبر التقية ، ثم يأمر بالطاعة للقيادة الاسلامية و يربط بين طاعة القيادة الرسالية الصحيحة وبين الايمان بالله . بل بينها وبين حب الله.

ثم - حذر من طرف خفي - الذين لا يتبعون القيادة : بأنهم كفار يتعرضون لسخط الله تعالى.

بينات من الآيات

الجماهير تقدس الذوات و بصائر القرآن

هدى من الآيات

بينات من الآيات

رسالة عيسى من ميزات النشأة الى خصائص الرسالة

هدى من الآيات

بينات من الآيات

بشرية الرسول و مراحل انتصار الرسالات

هدى من الآيات

بينات من الآيات

الحق مقياس الصواب و أساس الوحدة

هدى من الآيات

بينات من الآيات

مواقف اهل الكتاب عصبية وتضليل

هدى من الآيات

بينات من الآيات

العلماء بين تبرير الهزائم وتفجير الطاقات

هدى من الآيات

بينات من الآيات

الارتداد اقسامه و جزاؤه

هدى من الآيات

بينات من الآيات

العصبية عقبة الوحدة و اساس الكفر

هدى من الآيات

الوحدة هاجس الامة الحضاري

هدى من الآيات

"وحدة رسالات الله " كان موضوع الدرس السابق ، اما موضوع هذا الدرس فهو " وحدة الامة الاسلامية " التي تتمسك برسالة الله الواحدة ، حيث يعالجها القرآن من عدة وجوه ابرزها : ان اهم شروط الوحدة وجود رابطة مشتركة بين افرادها و فئاتها ورابطة الوحدة الاسلامية كتاب الله والقيادة الاسلامية التي تجسد هذا الكتاب ، و مزيد من الاعتصام بهما يعني مزيدا من التفاعل و التماسك ، وليس من الممكن ان نطلب الوحدة من دون مبدأ . و نظرة الى الوراء ، الى الجاهلية ، تكشف لنا كيف لم يقدر العرب من توحيد انفسهم - بالرغم من ايمانهم بالوحدة و بضرورتها الحياتية لهم - حتى جاءت الرسالة فوحدهم الله بها.

ولان الوحدة مبـدئـية فلابد ان توجد في الامة فئة تتطوع للمبدأ ، و تدافع عنه ، و تراقب مدى تنفيذ الامة له ، حتى لا يتراخى الحبل الذي يشد الامة ببعضها.

و الوحدة المبدئية هي التي يباركها الله ولا يبارك الله وحدة امة من دونخضوعها لقيم الله ، اذ ان الله سيفصل الذين لا يخضعون لقيمه عن المؤمنين في يوم القيامة و يفرق بينهم ، بينما يجعل المؤمنين في منزلة واحدة.

ونحن كذلك يجب ان نفكر في يوم القيامة حيث يفصل الله بين الناس و نطبق في الدنيـا القيم الالهية ، و الفكرة التي يكررها القرآن خلال حديثه عن الوحدة هنا ، هي : ان الخلاف غير المبدئي يساوي الكفر بالقيم التي تربط الامة ببعضها فاذا لم يتراخ حبل القيم الذييعتصم به الجميع ، لا يمكن ان توجد ثغرة بين المؤمن واخيه المؤمن.